

نوال السعداوي

مذكراتي  
في  
جن النساء

دار الآداب

## مذكراتي في سجن النساء

د. نوال السعداوي / مؤلفة مصرية

الطبعة الأولى في مصر

الطبعة الأولى لدى دار الآداب عام ٢٠٠٠

حقوق الطبع محفوظة

All rights reserved. No part of this book may be reproduced, stored in a retrieval system, or transmitted in any form or by any means without prior permission in writing of the publisher.

جميع الحقوق محفوظة. لا يسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب أو أي جزء منه أو تخزينه في نطاق استعادة المعلومات أو نقله بأي شكل من الأشكال، دون إذن خطي مسبق من الناشر.

دار الآداب للنشر والتوزيع

ساقية الجتير - بناية بيهم

ص. ب 123 - 4 - 11

بيروت - لبنان

هاتف: 861633 / 861632 (03)

فاكس: 009611861633

e-mail: d\_aladab @ cyberia.net.lb

## الإهداء

إلى كل من كره الظلم حتى الموت،

وأحب الحرية حتى السجن

ورفض الكذب حتى الثورة.

وإلى كل من رفع صوته بالاحتجاج والغضب،

حين كسروا بابي بالقوة المسلحة

وساقوني إلى السجن في ٦ سبتمبر ١٩٨١،

إلى كل هؤلاء النساء والرجال والشباب

والأطفال... داخل مصر وخارجها...

أهدي هذا الكتاب

نوال السعداوي

القاهرة/ مارس ١٩٨٢

## مقدمة الطبعة الثالثة

كتبت هذه المذكرات بعد أن خرجت من السجن منذ ثماني سنوات. هل مضت ثماني سنوات؟ كأنما كنت في الزنزانة بالأمس! وهل أنا اليوم خارج السجن؟ لماذا إذن هذا الشعور بالاختناق والانحباس؟ كانت القضبان من حديد لكنها اليوم من مادة أخرى غير مرئية. تطوّرت التكنولوجيا ولم تعد الأنظمة الحاكمة في حاجة إلى سجون وقلاع. نحن على أبواب القرن الواحد والعشرين وشعارات الديمقراطية مرفوعة في الغرب والشرق والشمال والجنوب. إنها موضة العصر. أمل الشعوب المقهورة وفزع الدكتاتوريات الموروثة منذ العبودية. تناقض جذري عميق بين الحرية الحقيقية ونظام السلطة الهرمي. يقف فوق قمة الهرم فرد واحد، صورته في كل مكان. في السماء والأرض. صوته الوحيد المسموع. رأيه الوحيد الصائب. من حوله بطانة من الأعوان. مجموعة من الرجال. وجوههم تتشابه في كل عصر. مشيتهم متعرجة. ظهورهم محدبة. عيونهم لها نظرة غير مستقيمة. يزوغون عند المواجهة. ينتظرون الأوامر والتوجيهات. يملكون السياسة والصحافة والمجالات والأدب والفن والراديو والتلفزيون. يملكون النقد والمعارضة في حدود ما هو مسموح. يملكون

الجوائز والأوسمة والباب المفتوح إلى التاريخ والموسوعات القومية والبطولات الوطنية وبدلات التمثيل السخية وهدايا الملوك والرؤساء في الشرق والغرب والأقطار الشقيقة.

بعد أن خرجت من السجن كان أمامي طريقان. طريق الأمن والرخاء والحصول على الجائزة ولقب الكاتبة الكبيرة. أو الطريق الآخر الصعب الذي قادني إلى السجن من قبل.

واخترت الطريق الثاني. منذ الطفولة لا أطيع إلا عقلي أو الصوت المنبعث من أعماقي. لا تستسلمي، لا تسيري في مواكب النفاق. لا تكوني واحدة من القطيع أو موظفي البلاط. كوني نفسك.

لكن السجن اليوم لم يعد جدراناً مرئية. أصبح السجن شيئاً أنتفسه في الهواء. حصار حول العقل ورقابة غير ملموسة ولا منظورة. لم تعد هناك قائمة سوداء، وإنما قائمة رمادية شفاة لا تُرى بالعين المجردة.

أعيش وراء جدران غير مرئية وأعيش الغربة والمنفى داخل الوطن. لكنني لا زلت أكتب وليس في العالم قوة تستطيع أن تسلب مني القلم. أسكب عقلي فوق الورق حروفاً وكلمات. لكنهم يملكون قنوات الاتصال بالناس. يسيطرون على أجهزة الإعلام والثقافة والنشر. يملأون عقول الناس بالحكايات النافهة. يستخدمون كلمة الله لإرهاب كل عقل يفكر. يستخدمون كلمة العدالة لضرب كل من يسعى إلى العدالة. وكلمة

الديموقراطية لمصادرة الحرية. يقتلون الإبداع في المهد. يخنقون الفكر الجديد بأصابع غير مرئية.

وفي الشارع حين أمشي أرى وجوه الشباب منكسرة حزينة. عيون ذابلة مطفأة. بطالة بلا عمل. حياة بلا أمل. وجوه الفتيات شاحبة. الخطوة متعثرة. العقل داخل الرأس ملفوف بقماش. العالم شرقاً وغرباً يمحج بالتغيرات الهائلة. الأسوار تسقط تحت زحف النساء والرجال والشباب. النظام الهرمي الطبقي الأبوي يهتز فوق قاعدة عريضة بدأت تنهض وتثور وتخرج في المظاهرات. لكن هناك رأياً عاماً مهما كان، وهناك وعي رغم محاولات تزييف الوعي، ومساحة من الحرية تسمح بالحركة والتمرد.

وهنا التمرد عورة. هنا الوعي إثم. هنا المعركة خطيئة. هنا الرأي العام غائب. الناس غارقة في هموم البحث عن الخبز. هنا يدخل الإنسان السجن في الظلام بلا جريمة وبلا تحقيق. هنا يموت الإنسان قبل الأوان. هنا يخنق العقل وتدفن الموهبة وشجاعة الإبداع.

لكنني لا أعرف اليأس. في خيالي حلم حياتي. أن أكتب كلمتي وقرأها الناس. سوف يقرأها الناس اليوم أو غداً أو بعد غد. لا يهم اليوم أو الغد أو بعد الغد. فسوف يقرأها الناس.

نوال السعداوي

يناير ١٩٩٠

## مقدمة

لأنني ولدت في زمن عجيب يساق فيه الإنسان إلى السجن لأنه ولد بعقل يفكر. لأنه ولد بقلب يخفق للمصدق والعدالة. لأنه يكتب الشعر أو القصة أو الرواية. لأنه نشر بحثاً علمياً أو أدبياً، أو مقالاً يتنادي فيه بالحرية. أو له ميول فلسفية.

لأنني ولدت في هذا الزمن لم يكن عجيباً أن أدخل السجن. فأنا اقترفت الجرائم جميعاً... كسبت القصة والرواية والشعر. ونشرت بحوثاً علمية وأدبية، ومقالات تنادي بالحرية. ولي ميول فلسفية.

لكن الجريمة الكبرى أنني امرأة حرة في زمن لا يريدون فيه إلا الجوارح والعبيد. وولدت بعقل يفكر في زمن يحاولون فيه إلغاء العقل.

أبي كان حراً وأمي كانت حرة. منذ الطفولة جرت الحرية في عروقي مع الدم. رأيت أُمِّي متمردة ترفض سلطة أبيها العسكرية وتنشور على زوجها إذا ارتفع صوته في البيت. ورأيت أُمِّي غاضباً ثائراً في وجه الحكومة والملك والإنجليز. وجدتي الفلاحة الفقيرة سمعتها تغني ضد الظلم وضد الفقر وحزن السنين.

وأخي كان أكبر مني، وحين رفع يده عالياً ليصفعني رفعت

ييدي أعلى من يده وصفعته. ولم يكررها. وحين أراد زوجي الأول أن يلقي وجودي الغيت وجوده من حياتي. وحين صاح زوجي الثاني: أنا أو كتاباتي! قلت: كتاباتي! وانفصلنا. وحين انتفض وزير الصحة غاضباً: الطاعة أو الفصل! قلت: الفصل! وفقدت منصبى.

وحين قال السادات: الحرية ترفرف والعدالة والرخاء والسلام قلت: أين الحرية والناس في القيود، والرقابة كالسيف على الأفكار والعقول. وأين العدالة أو الرخاء والفقراء يزدادون فقراً، والأغنياء يزدادون ثراءً ويجمعون الملايين، وأين السلام وصفقات السلاح تتضاعف والحرب في لبنان تزداد ضراوة.

لم أدخل في حياتي لعبة السياسة ولا الأحزاب ولا الصحافة، ولا الانتخابات ولا الجمعيات النسائية برئاسة زوجات الحكام. حتى مهنة الطب هجرتها. رأيت الأطباء يشتررون العزب ويشيدون العمارات بدم المرضى الفقراء. والناس تمرض بسبب الفقر والجوع والفقر وليس في الطب أقراص لعلاج هذه الأمراض.

لم يبق لي من سلاح في حياتي إلا القلم. أدافع به عن نفسي، عن حريتي وحرية الإنسان في كل مكان. لم يبق لي إلا القلم لأعبر عن مأساة الفقراء والنساء والعييد. ولأقول للناس إنني أكره الظلم وأحب العدل. وأحترم الإنسان ولا أنعتي للسلطان مهما كان. ولا أقول نعم. ولا أشترك في الاستثناءات ولا أسمع الإذاعات ولا الخرافات وأغلق بابي دون موظفي البلاط. ولا أقدم قرايين الولاء. ولا أطيع إلا عقلي. ولا أكتب إلا رأيي.

ولا أمشي في الزفة. وليست لي شلة. ولا أحضر الحفلات. ولا أترنن كالحرير ولا أستحم بالشامبو الأميركي. ولا أشرب البيرة الإسرائيلية. ويصيني الغثيان إذا قرأت الصحف.

ربما لهذا السبب كسروا بابي بالقوة المسلحة وساقوني إلى السجن. ولم أندعش فالصدق في زمن الكذب لا يمكن أن يكون حراً طليقاً. ولم أفزع لكني غضبت، ورفضت أن أفتح لهم بابي بهدوء. رفضت أن أختنفي في الليل دون صوت. أن أمضي في الصمت دون ضجة. أن أساق إلى السجن أو الموت دون غضب وثورة!

ولم أخجل. ولكني زهوت. ولم لا أزهو. دولة بوليسية بأكملها تخاف مني. من امرأة واحدة غير مسلحة. لم تعرف أصابعي إلا ملمس القلم. ألهذا الحد ترهبهم حروفي على الورق!

سأظل إذن أكتب. سأكتب وإن دفنوني في قبر. سأكتب وإن أخذوا القلم والورق سأكتب على الجدار، على الأرض. على قرص الشمس ووجه القمر.

لا شيء اسمه مستحيل في حياتي....

وحين صاح المسؤول البوليسي في السجن قائلاً: لو وجدت عندك طبنجة أهون عندي من الورقة والقلم، قررت أن يكون عندي قلم وورقة قبل أن ينتهي النهار.

كيف... لا أدري!

لكنني أردت القلم والورقة بكل جزء من كياني. في حياتي كلها لم أرد شيئاً بكل جزء من كياني إلا وأخلته...

وقبل أن تغلق الشاويشة علينا باب العنبر الساعة الرابعة تماماً بعد ظهر ذلك اليوم كان معي القلم والورق. ليس إلا ورق تواليت، لكن حروفي واضحة وأستطيع أن أقرأ ما أكتب...

حين أخضت الشاويشة وضابط المباحث وزحف الليل، نهضت وجلست تحت الللمبة الكهربائية الصفراء، فوق قعر الصفيحة المقلوبة، أسندت ظهري إلى الجدار وكتبت أول حروفي في السجن:

لأن الديمقراطية أكنوية فإن الإنسان الذي يكتب الشعر أو قصة حب يمكن أن يدخل السجن.

إن قصة الحب الصادقة قد تكون في صدقها أخطر من صندوق متفجرات أو قنابل زمنية.

فهي تكشف عن بؤس الفساد في المجتمع.

إن الذين يكذبون في حجرات النوم هم أنفسهم الذين يكذبون في دهاات البرلمانات ومقاعد القيادات وصفحات الجرائد.

فالرجل لا يستطيع أن يكذب بالليل ثم يصدق بالنهار. والرجل لا يمكن أن يكون جسداً كاذباً وعقلاً صادقاً.

أما هؤلاء الذين يجمعون الكذب والصدق معاً فهم ذوو الوجوه المسوخة والعقول المسوخة.

المأساة التاريخية الكبرى أن هؤلاء الممسوخين هم الذين يصلون إلى مقاعد الحكم، وفي أيديهم تتجمع الثروة. وكلما زادت ثروتهم وأملاكهم زاد تعقشهم للمزيد. كالمعدة العريضة لا يزيدها الماء إلا ظمأ!

ولهذا لا تكف الحروب في العالم، ويتكاثر عدد الممسوخين. تراهم لا يهتمون إلا بحوادث الحرب وأمور السياسة.

وكرهت السياسة وأنا طفلة، وكرهتها وأنا شابة، وكرهت الحرب، ولم تكن تشغلني أمور السياسة ولا تثيرني مانشات الصفحة الأولى في أي جريدة.

كنت مشغولة بالفن والأدب لكنني اكتشفت أن الفن والأدب لا يوجدان بغير الصلوق، وأن الصلوق لا يمكن أن يوجد بغير الحرية. والحرية لا توجد بغير الثورة.

ومن أجل الحرية يجد الفنان نفسه في حلبة السياسة. من أجل الحرية لا يمكن فصل الفن عن السياسة. والحرية هي الثورة. حرية جميع أفراد المجتمع، رجالاً ونساء.

وإذا النساء حرمن الحرية فلا يمكن أن تكون هناك ثورة. وهل تتحقق الثورة في مجتمع يكبل نصفه بالقيود؟

ما زال الطريق إلى الحرية أمامنا طويلاً. فالسياسة نفاق، كذب، ورجال السياسة ألوانهم مخططة، كرجال الصحافة. أخطر رجال السياسة والصحافة هم الذين يعيشون في كل عهد. يتربعون على عروش الصحافة والسياسة والفن والأدب والطب ثابتي ثبات

الشمس في مركزها. أرى ثباتهم يدور ويدور بكذب لا مثيل له. جلودهم فقط تتغير، لكنهم هم لا يتغيرون.

إمرأة أنا. نعم. وحياتي كلها كانت صعبة منذ ولدت حتى دخلت السجن. رغم صعوبتها لم يتغير قلبي. لا أستطيع أن أشك في إنسان، والإنسان عندي بريء والآلهة مذنبون. الإنسان لم يخلق شريراً ولا تنطوي طبيعته على الشر. الشاويشة التي تحرمني، وتحمل مفتاح زنزاني وثقت فيها من أول لحظة. لي حدس مخيف أعيش به منذ الطفولة، كبر معي، وما زال يكبر، وأخشى أن يكبر أكثر فأرى أكثر مما يطيق المجتمع. وبعد السجن ماذا يبقى ليفعلوه معي؟

لكنني ما زلت غير راضية عن كتاباتي. فأنا لا أكتب بشكل حر، أو بالحرية التي أريدها. عشت في عالم يفضل الكذب في كل شيء. في السياسة والاجتماع والأخلاق والفن والعلم. خلق فئة من الناس يملكون الكتب ولا يقرأون. والذين يقرأون منهم لا يفكرون بعقولهم، وإنما يعقول غيرهم. يبتهج الواحد منهم حين يقول إنه صديق الحاكم، أو أن الحاكم قال له كذا: لم أشر على واحد منهم ينتمي لذاته. يفعلون في الخفاء ما لا يستطيعون أن يفعلوه في العلن. ويكتبون ما لا يعيشون.

وأشعر بالغربة حين أراهم أو أسمعهم.

أنا أكتب ما أعيش... أنا إنسانة قررت ما تريد. وهاشت ما تريد. وأصبح لي نفسي، والناس أيضاً. أصبحت أملك جزءاً من السماء، لأنني أستطيع أن أحلم...

وفي السجن لم أفقد قدرتي على الحلم، والأمل، والمعاصرة أيضاً حين أريد. في يوم من الأيام هدّدت بأن أحرق العنبر والسجن كله بعود كبريت.

الأمل عندي يجمع نحو الفاع أحياناً، يدخل في بطن الأرض، ثم يشد نفسه من جوف الحوت ويجمع باتجاه الأفصان... ويطير في السماء كمصفور...

كيف يستطيع الأمل أن يكون عندي قوياً. كيف يجد الإنسان الأمل ويشعر به. لا أستطيع أن أنام وأنا أدرك أن قبلة ستضرب حتماً في مكان قريب. لا أستطيع أن أنام وأحلم أنني سعيدة لمدة أربع وعشرين ساعة دون أن يقطع ذلك الحلم صوت رصاصة.

صراعات في الخارج والداخل، وداخلي أنا أيضاً، تتلاطم، تجعلني أقول أشياء أعيشها بشكل جنوني. وأقولها الآن كلمات تبدو لي صغيرة لا تعني شيئاً. ومع كل ذلك أنام وأصحو وأحلم بالثورة! العليقة تطلق رصاصة، والكلمات على الورق ماذا تطلق؟ السجن مكان راكد. لكن الإنسان داخل السجن لا يكون راكداً.

داخل السجن يعرف الإنسان اللون الحقيقي لكل الأشياء، ويكتشف الإنسان أجمل الألوان وأجمل البشر، وأقبح البشر أيضاً. إلا أن شيئاً واحداً يكتسح كل الألوان:

الأمل بانكسار الأبواب والقضبان والأقفال والانطلاق في الجو كمصفور يفرد.



الأمل هو الثورة، وهو تغريد العصفور الحر.

لكني ما زلت غير راضية عن نفسي. ما زلت لا أملك حزيني.  
لم أكتب بعد الكتاب الذي أحلم به، ولا الرواية التي تعيش  
معي. لم أعش حياتي التي ولدت لها، ولم أولد في الزمان  
المناسب. لا زال كثير من الرجال والنساء في بلادنا يؤمنون أن  
وجه المرأة عورة. أما الثورة فهناك من يؤمن أيضاً أنها كوجه  
المرأة تحتاج إلى حجاب يغطيها. وهناك من يتحدث بالثورة في  
كل يوم، وما أكثر الثورات التي سمعنا أنها حدثت في بلادنا.  
ثورة وراء ثورة، وثورة تصحح ثورة. من كثرة الثورات أصبحنا  
نحلم بحياة ليس فيها ثورة. وفقدت الكلمة معناها. كل الكلمات  
فقدت معناها. التحفظ في مكان أمين هو الوضع في السجون.  
الثورة هي اللاثورة أو إجهاض الثورة. والأمن الغذائي هو التسمم  
الغذائي، وقلت لنفسي سأتوقف عن الكتابة حتى أعثر على  
كلمات جديدة. كلمات لم تمنهن.

هل يمكن أن الثورة تعني مزيداً من الفقر والخضوع والتبعية.  
هل يمكن أن تعني الثورة أن الإنسان صاحب البلد يصبح في بلده  
أقل قيمة وأقل كرامة من الأجنبي!

هل يمكن أن الثورة هي وضع العصافير المقرّدة في الأقفاص  
والسجون وإطلاق سراح الغربان والصقور والنسور وكل ذوي  
المخالب القادرة على القنص والخطف؟

## الجزء الأول

### القبض

سمعت دقة على الباب.

كنت جالسة إلى مكتبي الصغير في غرفة نومي، مستغرقة في  
كتابة رواية جديدة.

عقارب الساعة تشير إلى الثالثة بعد ظهر يوم الأحد ٦ سبتمبر  
١٩٨١، تجاهلت الدقة على الباب. ربما يكون الباب أو بائع  
الخبز أو المكروني أو أي أحد، وسوف يعود أدراجه إذا لم يفتح  
أحد.

عذابي حين أجلس للكتابة هو تلك المسؤوليات الصغيرة في  
البيت، أو جرس الباب أو جرس الهاتف. استطعت التخلص من  
التليفون بنزع الفيشة من الحائط. لكن الباب... هل أنزع الباب  
من الجدار!

هذه الرواية تعذبني. من أجلها تركت كل شيء. تفرّعت تماماً  
لها. مستعصية كالحب المستحيل. تريدني بكل كياني بكل عقلي

وجسدي، أو لا تعطيني نفسها على الإطلاق، الكل أو لا شيء، مثلي تماماً ويقدّر ما أعطيها تعطيني، ولا تريد أن يزاحمها في عقلي وقلبي أحد، لا زوج ولا ابن ولا ابنة ولا انشغال في أي عمل، ولا حتى قضية المرأة.

بدأتها في خريف ١٩٧٨، في ذلك الوقت كنت أعمل مستشارة بالأمم المتحدة في أفريقيا. بيتي كان في أديس أبابا لكنني أتجوّل في البلاد الإفريقية بحكم عملي، ولأول مرة في حياتي أرى منابع النيل في الحبشة وأوغندا، بحيرة فيكتوريا تخيلتها وأنا طفلة، لون مياهها ورانحتها ذكرتني بمصر، حيث ولدت. أحمل مصر داخلي أينما سافرت، السيول فوق صخور الحبشة تجري أنهرأ صغيرة بلون نهر النيل- لون بشرتي، وملامح الناس في أديس أبابا تشبه ملامح جدودي وأبي وعقاتي في كفرطحلة.

#### الدقة الثانية على الباب.

لا زلت جالسة أتجاهل الدقة، وأتجاهل أبواق السيارات في الشارع، تجوّل في جميع بلاد العالم ولم أر أناساً كالمصريين يدوسون على أبواق السيارات بأيديهم بمثل ما يدوسون بأقدامهم على دواصة البترين... شقتي في الدور الخامس لكن أصوات أبواق السيارات كالصراخ... كالعويل المستمر...

في أديس أبابا كانت شقتي هادئة نطل على الهضاب الخضراء، هدوء كامل، لا صوت ولا بوق سيارة. لكن الرواية أثبت واستعصت. استطعت أن أكتب البحوث العلمية والمقالات،

وكتبت عن المرأة... إلا الرواية. هذه الرواية، أمرها عجيب. تبعده عني بقدر ما أبعد عن مصر، وما أن أهبط في مطار القاهرة... وأشم رائحة التراب وعرق الناس وأبواق السيارات ووجوه الأطفال الشاحبة فوقها الذباب، وطواير النساء بالجلابيب السوداء، وعيون الرجال المرهقة المنكسرة... حتى تقترب الرواية، وتقترب...

كنت أبحث عن أديب كتب أدباً عظيماً وهو خارج وطنه... عقلي يقول لي إنه ممكن، وأسافر.

لم أكن أسافر اختيأراً. كنت أبحث عن وطن آخر، منذ شتاء ١٩٧٢ وأنا أشعر بالغربة في وطني، لماذا؟ لأنني كتبت كتاباً فيه أفكار جديدة... لأنني وقفت في محاضرة لي في كلية الطب بجامعة عين شمس وقلت رأيت في المرأة والمجتمع والطب والأدب والسياسة، وأنا لا أفصل بين أي منها.

لم أكتب إلا ما يملئني عقلي، ولم أقل إلا رأيت أمام جموع الطلبة والطالبات، كانت القاعة مليئة بالمئات أو الألوف والكل كان سعيداً، وانتهت المحاضرة بمناقشات عميقة علمية وعدت إلى بيتي.

لكن ما حدث بعد هذه المحاضرة كان عجيباً.

طلبتني مباحث أمن الدولة وحقت معي. غضبه وزير الصحة. غضبت نقابة الأطباء. غضبت دور النشر وأجهزة الإعلام.

وأصبح إسمي في القائمة السوداء.

إن أجهزة الدولة حين تغضب على كاتب تستطيع أن تمنعه من النشر وتحقق صوته فلا يصل إلى أحد. لا يمكن أن يترجع كاتب على قنّة الأدب إلا إذا رضيت عنه السلطة.

كل شيء عندما في يد الدولة ونحت سيطرتها المباشرة أو غير المباشرة. بالقانون الواضح أو بالقانون الخفي، بالعرف أو بالخوف المرمس القديم من السلطة. أحد الأدباء الكبار في جريدة الأهرام قل لي يوماً حين سألته - لماذا يقول لي رأياً ويكتب رأياً آخر - إذا فصلوني من الأهرام هل تتولين الإصداق على أولادي في المدارس؟. الناس من خوف الذل في ذل..

معظم الناس هننا موظفون حتى الأدباء والفلاسفة.

منذ ستين طويلة لم أقرأ أديباً عظيماً، ولم أسمع من فيلسوف واحد. اشتغلت في الأمم المتحدة لأتحلّر من الحكومة، لكنني اكتشفت أن أجهزة الأمم المتحدة كأجهزة الحكومة. وخبراء الأمم المتحدة موظفون يخافون على الراتب الشهري مثل كل الموظفين ويسود في الأمم المتحدة الرجال من الطبقات العليا والبلاد الكبرى الثرية وتهبط إلى القاع الساء من العالم الثالث.

### الدقّة الثالثة على الباب

لا بد أنه البواب، ولن أفتح له الباب. هذا البواب لا يحترم من السكان إلا صاحب العمارة لا يمكن أن يثق بابه ثلاث مرات وبهذا العنف الناس في مصر تغيّرت. لم يعد أحد يحترم إلا أصحاب الممارات والدولارات وشركات الافتتاح ومزارع

الدواجن واليهن الإسرائيلي واللبان الأميركي.

كتب استقالتي من الأمم المتحدة في حريف ١٩٨٠ لأنني غربي وأعود إلى مصر لكن غربي طُئت وأنا في مصر. بل زادت ورادت غربي في الحكومة، فكنت استقالتي في شتاء ١٩٨١. وقلت فيها إن كل شيء أجسي أصبح أعلى قيمة من أي شيء مصري، حتى الإنسان.

الدقّة الرابعة والخامسة، وتكرّرت الدقّات على الباب.

لا يمكن أن يكون هو البواب. مهما استهان بالسكان المستأجرين فلن تصل به الجرأة إلى هذا الحد.

بهتت وسرت نحو الباب.

ظلال طويلة سوانا وراء الشراعة الزجاجية. وصوت أنفاس تلهث. سرت وعشة فوق جسدي. وحدي تماماً بالشفقة. زوجي سافر قبل الفجر إلى قريته قرب طنطا. ابتني وأبي خرجا ولن يعودا إلا في الليل

ربما لصوت لكن المصوح لا تدقّ الأبواب.

مرتدة متوجّسة لم أفتح الباب لا أمام ولا طمأينة هذه السنين. هتفت من وراء الباب بصوت جعلته عالياً شجاعاً: مَنْ وراء الباب؟

وجاءني في الصوت الغريب: البوليس!

دارت الأرض لحظة، وتصورّت أن حدثاً وقع لابي أو استي

أو لروحي وهو عائد على الطريق لكن الصوت عدواني، لا يسم  
من حادث.

بأصابع مرتجفة فتحت الشراعة..

اتسعت عينائي في فحول... عدد كبير من الرجال المسلحين  
بالبنادق والسناكي. عبور حادة تنفذ من خلال الأعمدة الحديدية  
الرفيعة، وصوت خشن يقول بلهجة أمرة

- افتحي الباب!

ربما حدم. الواقع يحتلظ بالخيال والرعي باللاوعي، وعقلي  
مازال لا يصدق أنه حقيقة.

- من أتم

- افتحي الباب بالأمر

خيال لا شك. منذ طموثني حتى اليوم لم يكلمني أحد بهذه  
اللهجة. لا أبي ولا أمي ولا أي إنسان دخل حياتي أو طرق  
بابي.

أبي لم يوجه لي أمراً طوال حياته. كان يباقتني في كل شيء  
حتى وجود الله. أما الله فأنا كنت أناقشه. ولا بد أن يفهمني الله  
بما يقول.

تجمع العصب في حنقي: أي أمرا

- البوليس!

- ملايككم ليست بوليسية!

تقدم من حلف الفرقة المسلحة صباط، يرتدي قبعة بوليسية،  
وسنرة بيضاء، وفوق كل كتف قطعة فضية أو نحاسية تلمع،  
وأمامه يصد تلمع في انتمامة مؤدبة

- افتحي الباب من فضلك

- لماذا

- عندما أمر بتفتيش بيتك.

- أريد أن أرى هذا الأمر قبل أن أفتح الباب.

- ليس معنا الأمر الآن.

- لا يمكن أن أفتح لكم دون أن أرى أمر النيابة هنا هو  
القانون.

- لا بد أن تفتحي الباب!

- لن أفتح الباب حتى أرى أمر النيابة!

أغلقت الشراعة. جسدي يرتعد. قلبي تحت ضلوهي يدق  
بموت.

ولكن دقائق الباب كانت أشد عنفاً.

ربما كاموس. فتحت عيني لأصحو من النوم، لكنني وجدت  
نفسني صاحبة وواقفة فوق قدمي في الصلاة والباب يرتج تحت  
الدقات العنيفة.

حركت قدمي فوق الأرض إلى الأمام وإلى الخلف وتجوّلت  
في الحجرات الثلاث، لا أعرف ماذا أفعل.

ببني شقة صغيرة معلقة في الدور الخامس بين السماء والأرض الشارع يبعد عنها عشرين متراً تقريباً. لو ففرت من السعدة سينتهشم رأسي فوق أسفلت الشارع لا بواحد تطل على جيران. البيوت في الناحية الأخرى من الشوارع السعيدة. والسيارات تندفع فوقه في سرعة اليرق. أمام باب العمارة عند من سيارات البوليس، ورجال مسلّحون. البنادق مرفوعة فاغرة أرواحها كأنها ناحيتي.

ماذا حدث. هل انقلبت الدنيا. أم أن كياني الصغير قد انقلب وتحول إلى عصاة خطيرة تهدد الدنيا.

رفعت عيني إلى السماء. السماء في مكانها ولا شيء تعبر في الدنيا لكنها ديا شه عاتبة، لامالية، ولا تدري شيئاً عن تلك الدقات العتقة فوق بابي

تركت الساعة. رأيت التليفون فوق مكتبي. رفعت السماعة وطلت رقماً. لم أسمع الجرس. طلبت رقماً آخر. الجرس يرن بدون انقطاع. طلبت رقماً ثالثاً. الخط مشغول طوال الوقت.

الدق يرداد عمداً حذر من البيت تهتر في أعماقي ارتجاجة، وفي رأسي صوت يقول لي افتحي لهم، وصوت آخر يشعث من مكان صحيح في نفسي، من عمق بعيد في ذاكرتي، في طفولتي، يقول لي بإصرار: لا تفتحي! لا تستسلمي!

في كل مراحل عمري لم أكن أطيع إلا ذلك الصوت المسمت من أعماق أعماقي.

ولم أفتح الباب. دحبت فرقتي وارتديت ثوب الخروج كان ثوباً أبيض ارتديت حذائي. وضعت بطاقتي في حقيبة اليد الصغيرة، وعشرة جنيهات ومفتاح الشقة والسيارة، ومنديلاً أبيض صبراً أحدث أتجول في الشقة، غرفة ابنتي، سريره، مكتبها، مكتبها، صورته داخل إطار صغير. مضرب التنس، والكور داخل علبة. وحذاء كاوتش. دخلت غرفة ابني. سريره، مكتبه، مكتبته، صورته وهو طفل. كراريس الملوسة وأقلام ملونة، خرجت إلى الصالة، المكتبة الكبيرة، شرائط الموسيقى، رأس خشبي أسود من نيروبي. عدت إلى غرفتي، سريري، سرير زوجي، صفوف الكتب، فوق المكتب صورته وصورتني معاً... صحف الصباح فوق المصدة الصغيرة: خرج مبكراً ولم يقرأها من عادته أن يقرأ الصحف في الصباح. لكنني أتركها حتى المساء. لو قرأتها في الصباح تفسد الأكاذيب مزاجي وأفقد الهدوء المطلوب للرواية.

جذب عيني في لصفحة الأولى ما شئت كبير. «التحفظ على مشيري العنة الطائفية». قرأت منذ أيام عن أحداث الرواية الحمراء. معركة بين مسلمين ومسيحيين قتل فيها بعض أشخاص مصر لم تعرف أبداً الممارك الطائفية. يد خفية تعث بوحدة الوطن. أيعلمون في مصر ما فعلوه في لبنان سمعت صوت انكسار الباب كأنه انفجار.

أحدثهم الحديدية تدق الأرض بسرعة كجود جيش انطلق نحو لقتال هجموا على الشقة كالجراد الوحشي، أفراهم مفتوحة

تلهت، وبنادقهم فوق أكتافهم مشهورة.

لم أكن أرى نفسي، لكن يبدو أن شكلي تغير. ووجهي تغير  
وعيناى تغيرتا. لا بد أن شيطاناً تقمص جسدي... لأنني لم أعد  
خائفة.

وقفت أمامهم في الصالة الصغيرة مرفوعة الرأس مستعنة  
لمواجهتهم حتى الموت.

تسكروا أمامي لحظة جامدين. لا بد أن شكلي كان مرعباً.  
وقلت بصوت مرعب أيضاً: كسرت الباب! هذه جريمة!

ولم أهرع ما الذي حدث. لعل صوتي أكد لهم أنني امرأة  
ولست شيطاناً. لعلهم فوجئوا بأسى لازلت موجودة بالشقة ولم  
أهرب.

أحاطوا بي وهم يلهثون. وجوه طويلة شاحبة ملبدة بالمرق.  
أمواه مفتوحة تلهت، أنوف مقوّسة كمناشير الطيور الجارحة.

الفت حولي مرققة منهم كالسلسلة الحديدية. مرققة أخرى  
انتشرت في الحجرات الثلاث. قنثوا أذراجي. لمحت أحدهم  
يمسك الرواية من فوق مكتبي. هتفت بغضب: هذه رواية...  
اتركها... لا تلمسها...

لكنه دسها في حقيبته معه. وصرخت بغضب: هذه جريمة  
أخرى!

كيف تتزعموا مني روايتي! لا دخل لكم بها!

رجل آخر أحد يفت في معكرتي الحاصة فوق المكتب يقرأ  
فيها ويداء تلعبان في ساعة مكتبي الصغيرة

وسمعت رئيسهم يقول: خذوها إلى السيارة، وسلحق بكم  
بعد أن نكمل تفيش الشقة.

كنت له أتعشون الشقة في عيبي! هذه جريمة ثالثة، إذا ضاع  
شيء منها أنت المسؤول!

هبطنا الأدوار الخمسة. أبواب الشقق كلها مغلقة. عيون من  
وراء الأبواب مدعورة. وقفنا عند الدور الأرضي ننتظر بقية  
الرجال ورئيسهم المصاط لا زالوا دخل شقتي يمشون بأوراقتي  
وأشياي الحاصة. العصب يتجمع في حلقي كأنه قطة. اقترب أحد  
الحيوان فأعدوه سرعة بالبنادق

هبط المصاط ومن حوله رجاله يحملون أوراقتي ويلهثون. صار  
الموكب المهيب عيونهم مبيدة بالخوف والرهبة... امرأة تحمل  
صداً صاحت بغضب يا عبيتكم!... تشهرون البنادق في وجه  
امرأة! اذهبوا وحاربوا إسرائيل! فتاة من بعيد تلوح لي بيدها،  
لؤخنت لها يدي.

انفضض الضابط وأمر الرجال المسلحين بركوب السيارات. قفر  
الرجال في السيارات حاملين السائق على أكتافهم. أحدي  
المصاط إلى إحدى السيارات. طلب مني أن أصعد لأجلس بينه  
وبين السائق. رفضت وقلت: سأجلس بجوار النافذة.

نظر الضابط إليّ بدعشة. الآن فقط رأيت وجهه. شعر أسود

أكرت. عيتان سوداوان شارب كثيف أسود فوق الشمة العليا. شعبان ممثلثتان، مخرجتا عن أسنان بيضاء وهو يقول. هذا ممنوع... هذا ضد التعليمات... صوته خشن، لكن فيه رنة صنف، وعباء رهم السواد الداكن اللامع فيهما استكة ونوع من الحصرع للأوامر أو الاستسلام للقدور.

حاول أن يقصي بالجلوس بيه وبين السائق. رفصت الجلوس بين رجلس في هذا الحر الشديد جسدان عريان يتران بحرق الكراهية من البداية لا بد أن أمرض إرادتي لا أعرف إلى أين يأخذني السجين أو الموت لم يعد يهمني سوى أن أجلس في المقعد الذي أريد وليحدث بعد ذلك ما يحدث.

نظر الصايط في عيني. ثبت عيني في عينه. لم تطرف عياني. عيناه طرفتا، ونظر إلى الأرض. ربما كان يفكر، ويقول لنفسه إذا كانت الأوامر تعير عقل فأنت لك عقل ولا داع لإثارة الناس في الشارع. ثم إنها امرأة ولن تقفز من باب السيارة وهي سائرة.

بدا عليه اليأس، ثم صعد أمامي وركب إلى جوار السائق، وصعدت بعده وركبت إلى جوار النافذة والباب.

تحرك الهواء بمجرد أن تحركت السيارة. أخذت شهيقاً عميقاً. انتصرت إرادتي. شيء بسيط لكنه هام لأنه الانتصار الأول...

الناس ما زالوا واقفين على جانب الشارع. بعض الشباب رفعوا أيديهم ولوحوا لي. رفعت يدي ولوحيت لهم انتقص

الضايط على مقعده قائلاً:

- أرجوك لا تكلمي الناس.

- أنا لا أكلم الناس... أنا ألوح لهم.

أطلقت السيارة حلقي جاف. قلبي ما زال يدق لكن ضرباته ثقيلة أطراعي باردة. أصابع يدي كما هي، وعلى ركبتي حقيبة يدي الجديدة، وفي قدمي حذائي، نسمة معشة تنفذ إلى وجهي من نافذة السيارة، وأمام عيني شارع الجيرة، وحديقة الحيوان، وشارع الجامعة، والسيارات، والناس في الطريق، وكل شيء من حولي كما كان.

ولكني لست كما كنت. شيء ما خطير حدث، في عمضة عين لم أهد أنتهي إلى هذا العالم خارج السيارة. ولا إلى هؤلاء الناس السائرين في الشارع أو الراكبين سياراتهم والعائدين إلى بيوتهم

العودة إلى بيتي بدت لي كالمستحيل. أو كالانتقال من عالم إلى عالم آخر فتحت عيني ثم أغمضتهما، وتصوّرت أسي سأنتحهما فأجد نفسي في بيتي وقد انتهى الكابوس.

فتحت عيني ووجدتني جالسة في السيارة وإلى جوري صايط البوليس، ومن حلقي ألمح أطراف البنادق تطل من سقف السيارة. قلبي ما زال هاجراً عن التصديق، خلع الصايط قمعته على ركبتيه. مسح العرق فوق وجهه ورأسه بمسديل أبص كبير وهو يقول: تعشينا جداً يا دكتور!

اتسمت عياني . هل يحاطني . وهل أنا ما زلت هذه الذكورة .  
داكرتي بدأت تعود . . . كنت جالسة أكتب الرواية ثم سمعت الدقة  
على الباب . . ثم الدقات . . ثم انكسار الباب كالانفجار . . .

قلت بندهشة : من أنت من اكسرت الباب ! هذه جريمة يعاقب  
عليها القانون .

اتسم بسخرية : أي قانون . ألم تسمعي خطبة الأمل .

- أي خطبة .

- خطبة رئيس الجمهورية . . السادات . . .

- لا أسمع الخطب .

- لو سمعتها لعرفت كل شيء .

- أعرف ماذا .

- تعرفين لماذا جئنا إليك وإلى أين تأخذك .

- إلى أين تأخذونني !

- لا شيء ! مجرد سؤال أو سؤالين وتعودين إلى البيت .

- تحديق .

- لا . . . أبسط من ذلك . مجرد سؤال أو سؤالين وتعودين إلى

البيت .

\*

لو قال لي ذلك الضابط إنه يأخذني إلى السجن ربما كان الأمر  
محتملاً أو أقل سوءاً . على الأقل كنت سأعرف إلى أين أنا  
ذاهبة . المعرفة مهما كانت أقل إيلاماً من الجهل .

الجهل كالصوت ، بل هو الموت فعلاً ، لأننا لو عرفنا الموت  
لما كان هناك موت ولا خوف من الموت .

الجهل هو الخوف ، ولا شيء يربع الإنسان سوى الجهل .  
وقد استعرت الرحلة العجيبة من باب بيتي إلى السجن هذه  
ساعات عشت خلالها أغرب جهل في حياتي . كالعمياء تماماً ،  
وكأنهم ربطوا حول عيني عطاء سميكاً أسود ، يحجب لصوه  
ويحجب الطريق ولا أعرف إلى أين أذهب . وفي كل مرة أسأل  
الضابط إلى أين نذهب مرة قاتلاً : أبداً . . لا شيء . . . مجرد  
مناجاة وتعودين إلى البيت .

تأملت حركة السيارة وهي تحرف من الشارع الرئيسي وتدخل  
في شوارع صغيرة . نور المصابيح العالية ينمكس على نوافذ  
البيوت المعممة . هدوء عريب . تعلقت عياني فجأة بنور يضاء في  
إحدى البوارج لكن النافذة ظلت مغلقة . رجل عجوز يسير كأنه  
يهرج ويدخل في أحد البيوت . شب وفرة يسيران وأيديهما  
متشابكة بحذاء سور ضخم . كشف نور السيارة ظهرهما . تمككت  
أيديهما بسرعة واحتتمبا في ظل شجرة . حيّل إلي أن الضابط  
سيهبط من السيارة ويقض عليهما . لكن السيارة واصلت السير ،  
والضابط يطر إلى الأمام مستغرقاً في تنعم الطريق . ومن حين إلى  
حين يقول للسائق يمين شمال ، شمال يمين . ثم قال أخيراً :  
أيوه . . هنا . . قف .

لم أعرف بالضبط أين أنا ، دخلت مع الضابط إلى مبنى صغير ،  
وصعدنا بضع درجات . رأيت رجلاً قصيراً سمياً أصلع طلب مني



مطاتي الشخصية. نقل الرجل عينيه من صورتني في البطاقة إلى وجهي وقال: تعبتنا جداً يا دكتورة... لماذا لم تفتحي لهم الباب قلت: لم يكن معهم أمر مكتوب من النيابة. نظر إليّ بدهشة ولاحظت أن له عيماً أصغر من عين وقال: أي أمر... ألم تسمعي الخطبة..

- أي خطبة!

- خطبة الأمان.

- هل أوامر النيابة أصبحت تصدر عن طريق الحطب؟ أم أن الخطاب أصبحت تلغي القوانين!

أعاد إليّ مطاقتي، وهبطت مع الصابط الدرجات، ثم سرنا خلف المبنى، وهبطنا إلى سلم صغير، وأدخلني الصابط إلى حجرة في الدور السفلي، وأشار إلى كرسي خشبي صغير وسط الغرفة وقال: اجلسي هنا قليلاً، وسأعود حالاً

جلست وأنا أتلفت حولي. ظهر رجل عجوز عند الباب كأنما انتشفت الأرض منه، ورأيت يرفعه يده إلى أعلى كأنه يحييني كدت أرفع يدي لأردّ عنّي تحيته لولا أنني أدركت أنه يؤدي التحية للصابط الذي اختفى

ظل الرجل واقفاً بالباب، يسعل بشدة، وعرقه في حقه نافرة حول العنق باقة مسودة بمرق قديم لون سترته تحت ضوء الللمبة الحافت يميل إلى الصفرة. وعلى كتفه شيء أشبه بالشريط، وعلى صدره ثلاثة أزرار نحاسية بلون الصدا، تدلى أحدها بحيط رفيع يوشك أن يسقط مسح الرجل عيبيه بكم سترته، ورأيت في يده

مسحة صفراء، وفي قفصيه شيش بلستيك.

حلّ واقفاً دحية الباب وظهره ناحيتي، وصوت أفعاسه يأنيني رنباً متصلاً كهواء مضغوط يخرج من ثقب في عنق رجاجة مفلقة... يحرك المسحة بين أصابعه: الله... الله... الله...

كلمة الله لم تكن صوته، وإنما حركة صدره وهي تعدو وتهبط مع أصابعه. طرقة أصابعه مسموعة. ابتلعت لعاباً جافاً مرأ.

قلت: هل هناك قليل من الماء؟

استدار نحوي. وجهه مليء بالتجاعيد. جرى يظهر محني قليلاً إلى ركن مظلم وعاد بقلة من الفخار عنقها مكسور، ومن حول العوكة يقع سوداء على شكل شعاع، ورائحة عطلة تبيحت منها. ترددت والقلّة في يدي أقربها من فمي، قال الرجل بعنف: اشربي هذا ماء زمزم، والله أحسن ناس تشرب من قلتي، أخذ القلة من يدي ورفعها إلى فمه. الماء يكركر في فمه، مسح فمه بيده وخناً لقلة في الركن، ثم جلس على دكة خشبية وراح يكلم نفسه: أملاها كل صباح من الطرقة في بيتي لا أشرب من ماء الصور هذه الأيام. مواسير المياه فيها.. أعوذ بالله.. رينا غاضب هذه الأيام على الناس كنت أصعب القلة في النافذة لتبرد، لكن كل من كد يمر في الشارع يرفعها إلى فمه ولا يبقى له شيء. الذب تعثرت لم أكن أحمل هم القلة ولا الماء كنت أصعد إلى دورة مياه المدير في الدور الأول وأنوصاً. لكن الماء أصبح يقطع حتى هذا المدير الكبير. وجل طيب متواضع ليس كالمدير

السابق. لعنة الله عليه... حصل على ترقية كبيرة وانتقل من هنا إلى مكتب الرئاسة والحمد لله...

وسمعت بجاء صوتاً حينَ إليّ أنه صرخة ألم، صوتاً رنّ في أذني حادّاً لم أعرف أنه صوت فتاة أو فتى أو طفل ودقّ قلبي بعنف. ظننت أنه صوت أبي أو أستي بعقلي الواعي كنت أدرك أن السيدة حمدي بعيداً عن بيتي بأكثر من عشرة كيلومترات، ولا يمكن أن أسمع صوت أحد في بيتي حتى وإن صرح لكسي بهتت وقعة على قدمي، خففت قلبي أسمعها بأذني، وعرق كسائر لرح جعل الثوب يلتصق بحمدي، وقلت للرجل أنظر أنني سأبقى هنا كثيراً؟...

حملني الرجل في بعيسين صغيرتين حمراوين حاليتين من الرموش، ثم قال وهو يستدير نحو الباب: الله أعلم...

فلت: ألا يوجد تليفون هنا لأتصل بالبيت؟... أريد أن أطمئن أسرتي إلى أنني هنا.

لم أعرف تماماً ماذا قصدت بكلمة «ها»، لكن الرجل حملني في مرة أخرى بدهشة أشد ثم انفرجت شفها عن انسامة شبه ساخرة وقال: «تليفون» لا يوجد هنا تليفون، ثم أطلق شفتيه بسرعة كأب أمشي لي سرّاً ليس له أن يعشيه وقال أن لا أعرف شيئاً هنا، ولا أعرف هل يوجد تليفون أم لا يوجد تليفون هذه كلها أمور علمها عند ربي، وما دمت وصلت إلى هنا فكل شيء علمه عند الله

مددت ذراعي في الظلمة لأنظر إلى الساعة فوق معصمي، وأنا أقول للرجل: كنت وحدي بالبيت حين جازوا ولا بد أن زوجي وأستي وأستي عادوا الآن ويبحثون عني، ثم أنا لا أعرف لماذا يقصون عليّ، ولماذا يتركوني هكذا أنتظر، ولا أحد يقول لي إلى أين أذهب لا بد أنهم يحضون عني شيئاً لا يريدون أن أعرفه.

وقال الرجل وهو يمدّ ذراعه ويكشف عن جرح قديم ربطه قطعة من الشاش المشع «إنهم لا يخفون عليك شيئاً يعرفونه. إنهم لا يعرفون شيئاً يا أستي، ويستطرون مثلك تماماً. الكل ينتظر، أمر ربا ماذا يفعل الواحد ولكل واحد مهمة محدّدة أيام زمان كان الأمر يأتي مكتوباً...

كان عقلي شرداً، لكن أذني التعتت كلمة «مكتوباً» وكنت قد سمعت من قبل عبارة «أمر ربا» وتساءلت بصوت كأبي نائمة: أمر ربا كان يأتي مكتوباً؟ لكن ما أن سمعت صوتي يرنّ في العرفة الحالية حتى أدركت أسي يقطر وتذكرت ما حدث وقلت. ثم أفتح لهم الباب... لم يكن معهم أمر مكتوباً

وأطلق الرجل حفيه على عيبيه وقال «كان الأمر يأتي إليهم مكتوباً، لكن هذه الأيام الوقت ضيق وكل شيء يمشي بسرعة والأمر يأتي مستعجلاً عن طريق الرق ويوزع على الجميع على شكل برقية عاجلة والبرقية لا تكون مكتوبة بحط اليد ولا مضروبة بالمكّة، ولا أحد يعرف من أرسل البرقية إلا المدير الكبير. وهو أيضاً لا يعرف، لأنه يسمع الصوت في التليفون ولا

يعرف صاحب الصوت لكنه يعرف اللهجة ويعرف أنه أمر أتى من فوق، وعليه التفيد فوراً، وبسرعة يندق المدير الجرس ويجمع صباطه الصباط ما قلوبهم طيبة، وهذا الصباط الذي دخل معك رجل طيب جداً، من أسرة طيبة. أبوه تربي في قصر الملك، وحاله الآن في قصر الرئاسة في عابدين. كلهم ناس لهم أصل، وإذا قال لك لواحد منهم إنه لا يعرف فاعلمي أنه صادق لا يكذب. فهو لا يعرف شيئاً والمفروض ألا يعرف، وإذا نسرت أسرار الدولة حارج الدولة، وهذا شيء خطير يحاسب عليه المدير الكبير شخصياً وأنا يا راجل يا صغير، أنا أيضاً أحاسب على أي شيء كبير أو صغير. عندنا هنا لا شيء صغير. والمفروض أن أعرف الصغير من الكبير، لكن المدير نفسه لا يعرف. الدنيا تتغير بسرعة والشيء الصغير يصبح كبيراً دون أن يعرف، ودون أن يقول له أحد. وأنا لا يقول لي أحد شيئاً. مجرد أربع كلمات بالعدد «افتح الغرفة وانتظر التعليمات» وأقول لزوجتي أن عدي طواري. قد أعيب أسوأ أو شهراً كانت تظن أنني متروّج من امرأة ثانية لكن الرواح يحتاج إلى مال، وأنا والحمد لله ليس عندي إلا الستر، ولقمة الحلال أطعمها هي وأولادها السعة، كلهم في المدارس والحمد لله، وأشكر الله والحكومة لأن التعليم بالمجان، لكن الأهلية. الحذاء الواحد أصبح ثمنه يساوي مرتبي في شهر واحد. وأقول يا رب مبيعة أحلية. وشمشب بلاستيك لي. هذا الشمشب في قدمي ثمن حذاء، وعندي حداثي القبيم، أوفره للمسابيات، أو حين أصعد لمقابلة المدير، لكن عدي رئيس بثلاث شرائط لا يخاف الله،

قال للمدير إنني أرتدي الشيشب في أوقات العمل الرسمية، وطلبتني المدير، وصعدت إليه وفي قدمي الحذاء، ورأيت جالساً بالقمص والسلطون بدون الجاكيت. لا يرتدي الجاكيت في الصيف إلا إذا جاء أحد من مكتب الوزير، وألهمني الله فقلت له يا سعدة اليه أنا لا أحلج الحذاء إلا لأنوصاً وأصلي، وأب أصني خمس مرات، وأنوصاً خمس مرات، فالدنيا صيف وحر وعرق ولا مؤاحدة عدي عادت في الأمعاء بسبب عسر الهضم فأنا رجل فقير إلى الله وعندي ستة عيال وأمه.

صوته حانت بعيد كأنه يسمت من بطن الأرض. آلام حادة في طهري وأب جالسة على كرسي حشبي صغير بدون ظهر نهضت وبدأت أتمشى في الغرفة. أفر دواعي وساقني وأحرّك عيني ورأسي.

قلت له إلى أين ذهب الصباط؟ ألا تعرف ما الذي سيحدث بعد ذلك؟ وقال الرجل وهو يتمطى ويثاءب: وهل يعرف أحد ما الذي سيحدث له حتى يعرف ما الذي سيحدث لغيره؟ هذه كلها أمور بيد الله! وما دمت قد وصلت إلى هنا فلا تنعبي نفسك في التفكير في العدد إن أمرك لم يعد بيدك وإنما بيد أخرى. عليك أن تتظري. كلما ستظري من ما لا يتظر؟ أب أنتظري مثلك لأعود إلى زوجتي وأولادي ولا أعرف متى أعود ولا هم يعرفون. الصبر طيب. ومن صبر قال. اسمعي كلام رجل عجوز اشتغل في هذا المكان ثلاثين عاماً لا فائدة من التفكير التركي عقلك وراءك ولا تفكري في شيء. وما دمت قد وصلت إلى هنا

فاعلمي أن هناك من يفكر لك، وكلما قلّ تفكيرك في أمر نفسك مرّت الساعات أسرع وأسهل، وما دمت تؤمن بالله والرسول فلا خوف عليك، الله لا يتحلّى أبداً عن عبيده، وربما لا تصدّقي أن المدير الكبير حين صعدت له ذلك اليوم وفي قديمي الحذاء نظرت إلي رئيسي ذي الشرائط الثلاث وقال له إنني أرئدي الحذاء. وقال رئيسي - إنني أخشى الشئب وتصورت أن المدير سيأمر بتفتيش العرفة لكنه لم يأمر بالتفتيش وضحك فجأة، ولم أعرف هل أضحك مثله. فالمعروض أسي أضحك حين يضحك وإن لم يكن هناك شيء مضحك، وقتت له يا سعادة اليه الدنيا حر وأما أحلج الحذاء من شدة الحر كما نخلع سعادتك الجاكته، ولم يغضب مني المدير وظلّ يضحك ويقول لرئيسي أليس في قلبك رحمة على هذا الرجل المعجور، أقسم بالله العظيم لم أر في حياتي أطيب من هذا المدير، ولئن أرى إنساناً عنده كل هذه الرحمة في قلبه، وظلّ يضحك، وأنا أيضاً ضحككت وأقول لنفسي لا بد أن هناك شيئاً مضحكاً.

وسمعت يضحك كأنه يسهل، ويهزّ رأسه كالمحتق بعضه في حلقه، ومسح عيه الدامعتين من الضحك أو السعال بكف كبيرة متنفقة، ظلت نحني وجهه طويلاً كأنه أغمض عييه وبام، لكن كمّة هبطت من فوق وجهه مبلّلة بدموع أو عرق غزير...

الغرفة كانت مختنقة بهواء راكد لا يتحرك، ورائحة تشبه التراب أو طين الأرض، والعرق الغزير يساق فوق وجهي وعيني وظهري كخيوط رقيقة تتحرك وترحف فوق جسدي كالكاينات

الحية. وكنت لا أزال أنمش في الغرفة ذهاباً وإياباً كحيوان محسوس داخل قفص، وتوقفت فجأة وأنا أقول للرجل: أريد أن أذهب إلى دورة المياه. وردّ الرجل على المورد لا توجد هنا إلا دورة مياه واحدة، وهي في الدور الأول، بجوار مكتب المدير، ولا أحد يدخلها من غير المديرين، أو على الأقل من الرجال، فما بال امرأة مثلك.

وسرى العصب المفاجيء كالقشعريرة فوق جسدي وانصرفت أو ربما فمرت في الهواء كفرخة مذهوجة وقلت: ماذا تقصد بقولك امرأة مثلي؟ أنض أنني امرأة أقل من الرجال؟ أنا امرأة أكثر احتراماً من أي رجل هنا بمن فيهم مديرك الكبير!

ولم يظهر على الرجل أي تعيّر وقال بصوته الخامت وكأنه يتبعث من قبر أو من جسد شخص ميت: «لا يأتي إلى هنا إلا الناس المحترمة، أما الناس غير المحترمة فلا يأتون هدي، ويدهون إلى عرفة أخرى في المبنى الآخر، والحارس عليهم أقل مني درجة، وهو الذي يكسّس الغرفة ويمسح ولا يرتدي الري الرسمي مثلي. الحارس هنا محترم، لأن الناس التي تأتي هنا كلها محترمة! وراء جازواها وأكرم من وراء! كلهم محترمون ويعاملوني باحترام يتادوني بكلمة أستاذ. أما هناك فالتناس كلها غير محترمة، ويبيت في الغرفة مائة شخص أو أكثر، بعضهم يؤل وهو نائم أو جالس، والحارس هو الذي يجمع ويكسّس، أما هنا - نعم، أنت في نعمة ولا تكفري بعمّة الله، قولني الحمد لله! وابتسمي هكذا ولا تكشري! من يأتي إلى هنا ويكسّر

يعرض نفسه للمتاعب. إنهم لا يحبون من يقضب، ولا يحبون  
أبصاراً من يظهر المرح، لا تفصي ولا تفرحي وتمثلي كل شيء  
بهذه دون أن تتسمي في سرور أو تعصي أو تحزي، فالحر  
بصايتهم أبصاراً، لأنهم يتصورون أن الناس تحزن لأنها تكرههم،  
وهذا عبر صحيح، لأن الناس التي تأتيها لا تكرههم، كلهم  
ناس محترمون لا تعرف الكره ولا الحقد، وليس في قلوبهم إلا  
الحب والإيمان بالله!

وتوقف الرجل عن الكلام كأنما مات فجأة، ورفعت عيني  
إليه. كنت قد جلست مرة أخرى وسقط رأسي فوق صدري ربما  
عموت تجمّد الرجل لحظة وهو واقف كالتمثال ثم حبط قدميه  
إحدهما بالأخرى ورفع ذراعه إلى أعلى ولا مست يده رأسه،  
وظل واقفاً هكذا ولم أعرف ماذا حدث. لكنني رأيت ضابطاً  
جديداً يدخل إلى القرقة ويقول لي:

هيا بنا.

- وقلت: إلى أين؟

- وقال: أبداً.. لا شيء.. مجرد ساعة أو ساعتين وتعودين  
إلى البيت!

•

لا أدري كيف صدّفته حين قال لي ستعودين إلى البيت بعد  
ساعة أو ساعتين. تصوّرت أنه لا يمكن أن يكذب. لم تكن  
ملاصحه بوحى بالكذب، أو هكذا حيّل لي، ولم أكن أفقت بعد  
من الإغماء في العربة الحاققة في بطن الأرض ولا رال صوت

الرجل المعجور في أدبي كهوت الشياطين أو الملائكة يحاسيون  
الموتى في المقور، والتجاعيد ملأت وجهه كوجه جدتي حين  
كانت تحكي لنا ونحن أطفال عن عذاب القبر.

خرجت من باب الغرفة. لفحني تيار هواء شديد، دفعتني بقوة  
أمام الصابط ورأيت السيارة تنظر، تصورت فعلاً أنه سيأخذني  
إلى البيت بعد ساعة أو ساعتين، وأسي سأعلق عيني وأنتحها  
وأرى بيتي وزوجي وابتي وابني.

وكنت أحملني في وجه الصابط في تلك اللحظة. كان ينسم  
وعلى وجهه ذلك التعبير عن المرح أو الحجل، وفي عيني نظرة  
إنسانية غريبة، لا توحى أبداً أنه رجل يوليس، أو رجل كاذب،  
أو رجل قريب عني. كأنني رأيت من قبل، وملاصحه مألوفة  
ومألني والسيارة سائرة: هل أشتري لك زجاجة كوكاكولا، لا بد  
أنك تشعرين بالظما! قلت وأنا أكاد أضحك كطفلة: سأموت من  
الظما!

وأوقف السيارة، وأرسل السائق ليشتري. لاحظت أيضاً أنه  
ليس السائق السابق، لكنني لمحت من خلال بامده صغيرة ورء  
ظهري عدداً من الرجال المسلحين يركبون معاً في الحلف. عاد  
السائق ومعه رجلاجان من الكوكاكولا ورغيفان فينو داخل كل  
مهما قطعة من الجبس الرومي. لم أكن جائعة لكن الصابط دس  
الرغيف في حقيبتي يدي وهو يقول: متجوعين فيما بعد.

ملأني ردة بالربة والشك وثقل قلبي بإحساس عامص، إسي

داهية إلى مكان سأجوع فيه لكنني طردت الربة والشك،  
وتصوّرت أن ملامح الصابط صادقة وبريئة، ولم أدرك أنني كنت  
أرسم له ملامح من عدي، وأن الأمل في عودتي إلى بيتي جملي  
كالعمياء لا أرى أن السيارة تتجه بي في طريق آخر.

كالعمياء تماماً لم أر أن مدينة القاهرة كلها أصبحت وراء  
ظهري، وأن الشارع الذي نسير فيه ليس شارعنا، رأيت يشبه  
شارعنا، ومن البعد رأيت وجهاً يشبه وجه أبي يطل من نافذة،  
وكدت أهتف وأنادي عليه لكنني أطفقت شعفي في صمت بعيني  
المفتوحتين عن آخرهما رأيت أبا أصبحنا خارج القاهرة وأن  
السيارة تسحرف في طريق زراعتي، وعن يميني أرى الحقول  
الواسعة تمتد في الظلمة، وعن يساري يجلس الصابط وإلى جواره  
السائق، ومن خلال النافذة بجوار السائق رأيت مياه النيل تلمع  
تحت ضوء مصابيح الشارع.

ونظرت إلى وجه الصابط ورأيت ملامحه البوليسية دون دهشة  
ودون صدمة وكأني كنت أراها طول الوقت، وكأني أعرف طول  
الوقت أنه يكذب علي، وأني لن أعود إلى بيتي وأن وجه ابني قد  
أصبح بعيداً عني، أبعد من ذلك الحجم الذي يلعب في السماء  
وأطرفت رأسي ونظرت إلى أصابع يدي، لمست يدي اليمنى  
بيدي اليسرى. أنا بقطة وعلى قيد الحياة! دعت رأسي ونظرت  
من النافذة نسمة الليل محملة برائحة الريح الهواء كالضربات  
الحفيفة السريعة على وجهي هواء الليل معاً برائحة الخريف  
تعرفت على الطريق. أول رحلة إلى القباطر الحبيبة. كنت طفلة

في الابتدائي عدي صورة قديمة راقت على العشب الأخضر  
ومن حولي تلميذات الفصل ومن خلفنا القاطر... الحقول  
ممتدة من بعيد ألمح بيتاً صغيراً فيه ضوء، يشبه بيت وسط  
الحقول وأنا طفلة. وجه أمي يلوح لي في الظلمة. ووجه  
أبي... مات الآن منذ أكثر من عشرين عاماً... هيونهم تلمع  
في الظلمة ابتسامة ربما أو دموع. عياني جفتان. حقيقي  
جاف. ابتلعت لعاباً مرّاً.

توقعت السيرة فجأة في الحلاء تجسّد الدم في عروقي  
عصابة لصوص مسلحة. ستلبحن وتخفي جثتي في الحقول.  
وربما اغتصاب قبل القتل. مخاوف وقصص قديمة منذ الطفولة  
تأملت لندفاع عن نفسي، لكي سمعت لسائق يقول السيارة  
معدلة هط الجميع، وحوطني الرجال المسلحون، فتح السائق  
غطاء السيارة واتهمك هو والصابط في إصلاحها. صوت الموتور  
كحشرجات حيوان يحتصر، السيارة تنتفض فوق المعجلات في  
قفزات متقطعة كفرخة مذبوحة. أطلّ الصابط برأسه من تحت  
غطاء السيارة وصاح في الرجال المسلحين بصوت عاصب. لماذا  
تعطلون الدكتورة بهذا الشكل؟!... تعالوا هنا!!!...

بدأت أتمشى على جانب الطريق. نسمة الليل هادئة حريئة.  
لحقول ممتدة في الظلمة انشعدت عن السيارة قليلاً قدماي  
تسرعان الحصى. قلبي يدق، بأمل مفاجيء في الحرية. لحسن  
حظي أبي ولدت في بلد متحلف والجهاز البوليسي سياراته قديمة  
تتملّك لأول مرة أدرك فوائده التحلف الرجال المسلحون

وضموا سادقهم على الأرض وراحوا يدمعون موحرة السيارة.  
السائق داخلها يحاول أن يوقف الموتور الميت الصابط يسمح  
عرقه بمتدليل أبيض ويلعن السائق.

أحدث شهيقاً عميقاً... وحركت ذواعي وسائقي في الهواء.  
وبدأت أسير إلى الأمام... دون أن أنظر خلفي...

لكنني سمعت صوت السيارة يزار، وعجلاتها تجري فوق  
الأسفلت تبث الأمل الحاطف هذه السيارات العنيفة كالقطة  
بسمعة أرواح.

وجدتني مرة أخرى جالسة إلى جوار الصابط. قبعت على  
ركبتي. يسمح عرقه بالمتدليل وأصابه عليها بقع سوداء.

وقال: الحمد لله.

وقلت الذي لا يحمد على مكروه سواه! وصحك ولم  
أصحك كان رأسي خارج النافذة وحياتي شاردتين وعقلي لا زال  
متشككاً لا يدرك تماماً ما يحدث، أو إلى أين تنتهي هذه الرحلة  
المجهولة مع رجال غرباء مسلحين

وسمعت الصابط يقول فجأة: أتعرفين أنني قرأت كتبك  
ورواياتك. اتسعت عياني في دهشة. أيعاطبي؟ وهل أنا كتبت  
كثيراً أو روايات؟ كأنما نسيت من أنا...

وقلت متسائلة: كتبتي. رواياتي؟

وقال: نعم، كتبك ورؤاياتك.

رأيت قبعت البوليسية فوق ركبتي وأفتت تماماً متذكّرة ما حدث.

وقلت: هذا عجيب!

وقال: ما هو العجيب؟

وقلت كنت أظن أن رجال لبوليس لا يقرأون الكتب أو  
الروايات.

وقال: نحن مثل كل البشر، ومهتنا مثل مهن كل الرجال.

قلت: مهن الرجال! ألا توجد نساء في البوليس؟

وقال: لا، لا البوليس ولا الجيش ولا لقضاء ولا الحاكم ولا  
الوالي ولا رجل الدين. هذه كلها مجالات مغلفة أمام  
المرأة... كتبت ذلك في أحد كتبك أليس كذلك؟

قلت: هذا صحيح.

قال: نحن في بلد إسلامي، والمرأة في الإسلام ناقصة عقل  
ودين... أم أنك ضد الإسلام؟...

وقلت: ليس هناك إسلام واحد... كل دولة تفسر الإسلام كما  
تشاء... أليس كذلك؟

حيل لي وأنا أتجاوز معه أسى أتبادل حديثاً عادياً مع أحد  
الرملاء في برهة بالسيارة على شاطئ النيل، لكنني سمعت النافذة  
الرجاجنة حلق رأسي ورؤوس الرجال ورؤوس السائق فأطبقت  
شفتي صامتة لحظة ثم قلت في عصب إلى أين نذهب! ظن

صامتاً وهو ينظر أمامه إلى الطريق ثم قال: ستعرفين حالاً... لا تتعجلي الأمور.

وقدت هذا هو طريق القناطر الخيرية وأنت تأخذي إلى سجن القناطر. لماذا لم تقل ذلك منذ البداية؟

وقال: أبداً.. لن آخذك إلى سجن القناطر.

تأملت الطريق بعيني. إذا لم يكن هو السجن مماذا يكون؟ السجن أصلاً فهو شيء معلوم، أما هذا المصير المجهول! عيالي تجولان في الطلعة لازالت الحقول عن يميني، والنيل عن يساري مياه النيل تحت ضوء السيارة تبدو مكسرة حزينة. السماء سوداء تترك فيها النجوم والأشجار كالأشباح تتحرك بغير صوت. صوت الموتور يرتفع فوق الصمت وعجلات السيارة تصطك بالأرض الأسفلت. أغمض الصابط عيني ونام. السائق أسدل أيضاً جفنيه فوق عيني، والسيارة تسير وحدها وتحرف لتسقط في النيل، لولا حركة سريعة من يد السائق اهترت السيارة وارتطم رأس الصابط بسقفها فتتح عيني مدحوراً وصاح في السائق: أتمام يا حمار؟ أتريد أن تموت كلنا غرقاً في النيل؟ ألا يكفيك أنك خرجت سيارة لا تصلح إلا للبيع في سوق المخردة...

أطلقت الكلمات من بين شفتيه كالفدائف محتلطة برداد لعابه. ثم أعيد شفتيه وظل محملاً أمامه في الطريق، وجماه يسقطان شيئاً فشيئاً فوق عيني إلى أن أصبحت عينا مفتقتين تماماً..

وسقط رأسه فوق صدره وبدأت أعماه المتظلمة ترتفع.

أصابع السائق سمراء مشققة تقصر على عجلة القيادة كأب فأس، وتحركها من اليمين إلى اليسار كشادوف وجهه أسمر نحيل تنتشر فوقه بقع بيضاء مرض جلدي معروف في الطب باسم السلاخرا تقصر في العناء وعلى الأحصص فينامين ب. يصعف العضلات ويختار الأعصاب وخلايا المخ. يصيب الإنسان بتلذذ الإحساس. منتشر بين أبناء الفلاحين الفقراء الوجوه الشاحبة السمراء دت البقع البيضاء واقعة في الظهور الطويل اشتعلت طيبة في الزيف مدسسين وجه السائق يدغمي بوجوده المرمى من الملاحين الصابط لعن أبه وجده وهو صامت مطرق حزين حزن آلاف السنين.

السيارة تمتد فوق الطريق، صوت الموتور الرتيب والصابط شخيرته يرتفع فوق صوت الموتور. شفاه تنهذلان. شفتان سميتان تسقط الشعلة السفلى فوق دقر مربعة ممثلة، وعق سمين أبيض سترته مفتوحة عند العنق، ورأسه يهتز ثم يسقط فوق صدر سمين. خيط رفيع من اللعاب الأبيض يتساب من بين الشفتين ويسقط فوق قطعة فميه تلمع على الصلر.

رفعت رأسي نحو الطريق أوار القناطر الخيرية تنعكس على صفحة ليل. تحرف السيارة بعيداً عن الأنوار. ندخل في طريق مظلم صيق كالسرداب تحرف في طريق آخر أكثر ظلمة وأكثر صيقاً اختفت رائحة الزرع والنيل ملأت أنفي رائحة تراب.



أحبي، ظهري يشي كجسد يدخل من فتحة القمر ثوبي أبيض  
يلون الكس بدا الصايط تساعدني في الدحور كيدي الحانوتي  
كأنما رأيت هذا المشهد من قبل، متى! ظلمة شديدة ورائحة  
تراب وعقونة.

شدت جمبي لأنتحهما كان مفتوحين من قبل، رأيت الممر  
المظنم في نهايته شبح أسود رأسه مربوط بمنديل أبيض من  
فوق الرأس لمة كهربية كالعين الواحدة المفتوحة الحمراء. رفع  
يده بالتحية حط كعب السدقية في الأرض الأسمنت. ضرب  
كعبي حداده الحديدي أحدهما بالآخر.

ثم انفتح في الجدار ثقب وانتلعتني الأرض

إلا أن الأرض لم تبتلعني كما تصوّر، وأصبحت وأنا داخل  
السج أقل حرقاً مما كنت خارجة ربما وقعت أسوأ مما  
رأيت، أو ربما لا يشعر الإنسان بالحرق إلا وهو خارج، فإذا ما  
أصبح في قلب الخطر صار جزءاً منه ولم يعد يشعر به.

أو لعلها الابتسامة الرقيقة التي قابلني بها مسؤول السج أرق  
ابتسامة رأيتها على وجه رجل أو امرأة في كل مراحل حياتي. لا  
أذكر أنني رأيت مثل هذه الابتسامة على وجه أحد. يمكن أن  
تكون ابتسامة حقيقية أم أنني أرسم له بيدي الملامح التي  
أريدها، كما فعلت مع صايط البوليس. أو أن رجال البوليس  
لديهم تلك القدرة على الابتسام وهم يقودون الإنسان إلى  
المشفة، وكلما اقترب حل المشقة من عقه زادت ابتسامتهم رقة

في نهاية السرداب المظنم رأيت عموداً طويلاً يسد الطريق  
توقفت السيارة عند العمود. فتح الضابط عينيه فجأة بذعر ومسح  
فمه بكفّه، برز من جانب الطريق رجل نحيل عيناه تلعبان  
وتتحركان بسرعة كميتي قاطع طريق رمق الضابط والسيارة ثم  
أسرع يجري بظهر محبي وشد العمود بحل أو سلسلة، فارتفع  
العمود في الهواء عن مساحة تسمح بمرور السيارة ثم سقط مرة  
أخرى وأغلق الطريق خلفنا

السيارة ترحب بطء في ممر مظلم طويل. الهواء راكد والظلمة  
تشدد صمت يشبه صمت القبور جدران عالية كالقلعة. اختفت  
السما والنجوم. ثم توقفت السيارة تماماً.

عياي تصطلمان بباب أسود ضخم. كأبواب القلاع والحصون  
في عهود الممالك أقل عيا عدد من الرجال المصحين كزبانية  
محكم التعيش، البادق والساكني طويلة مدنية كالإبر التي كانوا  
يفرسونها في أحادي الساعات بحثاً عن علامة الشيطان. هبونهم  
تجري كقطع الزجاج. نظراتهم تحوطني ثمقني من الأمام ومن  
الخلف ومن رأسي إلى قدمي.

دق أحدهم الباب بكعب بدقيته أطل من الشق رأس بدون  
شعر وحيان زجاجيت تدوران بسرعة. رفع يده بالتحية حين رأى  
الضابط وأجنى داخل الشق.

الشق في الباب محجم رجل قزم. العتبة عالية. رفعت قدمي  
في الهواء لأجتاز العتبة قامتي طويلة لا تدخل من الشق دون أن

وردد صوتهم عدوية وهم يقولون له ماذا تطلب. ماذا تشرب؟  
أتريد سيجارة؟

وسمعت المسؤول يقول برقة: ماذا تشربين؟ وصرت فوق  
جسدي تشعيرة كالرجفة وأنا أحلق في وجهه وهو جالس إلى  
مكتبه، ومن فوق رأسه صورة مكثرة للسيدات، بالملابس  
العسكرية وفي يده عصا.

كان الضابط مازال واقفاً وفي يده ورقة مدّها نحو المسؤول  
وهو يقول: أرجو أن توثّق عليها باستلام المتحفظ عليها.

رئت كلمة «المتحفظ عليها» في أدبي غريبة بلغت حولي كأنما  
أبحث عن واحدة عيري ثم أدركت أنهم يتحدثون عني. لم يمد  
لي اسمي أو لقبني أو شخصيتي. أصبحت المتحفظ عليها رقم  
١٥٣٦. في القائمة الطويلة استبدل اسمي بهذا الرقم، ووثّق  
مسؤول السجن باستلام المتحفظ عليها من الضابط، ووثّق  
الضابط في دفتر السجن أنه سلّم المتحفظ عليها إلى مسؤول  
السجن. كل ذلك وأنا جالسة مكاني لم أتحرك.

ثم بأصابع رقيقة أرق من ابتسامته سحب مني المسؤول حقيبة  
يدي أفرغ محتوياتها فوق مكتبه. بطاقتي الشخصية مفكرتي  
الصغيرة. وقلمي معنّاح الشقة والسيارة. مدبيل يد أبيض عشرة  
جبهات والرغيف العينو. هزّ الحقيبة عدة مرات أدهس أصابعه  
في الجراب الداخلي، وخرجت يده تمسك مرآة صغيرة.

أعاد إلى الحقيبة المدبيل الأبيض والرغيف وباوله لي وهو

يقول بقية الأشياء كلها ممسوعة، وسنصنعها لك في أمينات  
السجن حتى تخرجني من هنا بإذن الله.

«تخرجني»! للكلمة تونّ عجيبة، والحروح من هنا كالانتقال من  
الموت إلى الحياة. كالتحوّل من جسد إلى جسد أو من شكل إلى  
شكل آخر.

لمحت مرآتي الصغيرة على المكتب، فعمدت يدي إليها،  
وكدت أرمعها أمام وجهي لكن يد المسؤول كانت أسرع.  
- المرأة ممنوعة.

- لماذا؟

- تعتبر من الأدوات الحادة والأدوات الحادة كلها ممسوعة  
أدوات حادة! أما في طريقي إلى مكان بكل هذه الخطورة!  
هياي تدوران حولي فوق الجدران، والسقف، مكتب عادي كأي  
مكتب في الحكومة، والوجه داخل إطار الصورة كاشف عن  
أسسه، صاعط على عكسه، من تحته رأس المسؤول الأصلع،  
شعرات قليلة فوق الأذنين، قطع ذهبية أو نحاسية فوق الكتفين،  
يدون شيئاً في الدفتر. رفع رأسه، عيناه مرهقتان حمراوان كأنما  
أيقظوه من النوم فجأة. دق الجرس دحلت امرأة سمراء قصيرة،  
ترنّدي معطفاً ومادياً، في يدها سلسلة حديدية تصم عدداً من  
المفاتيح الصخرة.

امرحت شعته عن ابتسامته واهنة: متأسف يا دكتورة... كنت  
أود أن أراك في مكان آخر ثم رغب ووقفت قامتني أطول من

قامته. سار ناحية الباب وتوقف من فوق رأسه مرآة معلقة في الحائط لمحت فيها وجهي. وجهي لارال كما كان. لكنّه شاحب وأكثر طولاً، حدي وأساي الأمامية أكثر بروراً. عياني تشوبها حمرة حميدة لكن سواد العين كما كان أسود لامع خفق قلبي بمرحة مفاجئة، كنت أظن أساي مت، أو أن شكلي لم يعد هو شكلي. رأيت التليفون الأسود على منصة صغيرة، مددت إليه يدي لأدير رقم بيتي وأطمئن روجي وأبتي وأبي على أساي لا زلت بحير لكن يد المسوون كانت أسرع. هذا مصروع! متأسف يا دكتورة.

رمت التليفون وأما استدبر لأحرج، كأنما أنفي النظرة الأخيرة على آخر شيء في عالم لم أعد فيه.

ثم رجعت وجهي وأنا واقفة على عتبة الباب. المرأة تواجهني. رأسها مربوط بمديل أبيض شرتها شديدة السمرة. وجهها مليء بالحفر الصغيرة كأنّار جذري قديم يقع بيضاء فوق أنفها وحديها.

سارت أمامي تطرقع بشيشها البلاستيك، والمفاتيح في يدها تصدّ، والسلسلة الحديدية حلقاتها صغيرة مستديرة كالسلسلة التي يربط بها الكلاب.

•

## الجزء الثاني

### السجن

إذا كانت أصعب لحظة في حياة المحكوم عليه بالإعدام هي اللحظة التي تسبق سقوط المفصلة على عنقه، فإن أصعب لحظة في حياتي هي التي سبقت دخولي الرقعة.

عياني تتابعان حركة السلسلة في اليد السمراء المقفلة والأصابع المشققة، ومن حولها المفاتيح الصخمة تهتز. المفتاح الواحد كالمطرقة الصخمة له رأس شاكوش وذراع حديدية طويلة لها أسنان مشرشرة.

الأبواب ذات القصدان الحديدية تنعكس ظلها على الجدران المرتمعة في الطنمة كالأشباح الحرافة حديد يدور في الحديد ويصطط الصوت يرتطم بالأسوار، ويرتدّ الصدى فوق الجدران، كأن مئات الأبواب الحديدية نوّصد، وتعلق، وصغير حادّ كالصمت، وأصوات تظنّ كالصغير، كريح من المدحان المكثوم يتعد من ثقب ضيق.

الششب اللامستيك في القدمين السماوين المشفتين يرتطم  
بالأرض ظهرها محني داخل المعطف الرمادي الباقية حول  
العنق مسوطة بحرق قديم. كتف أعلى من كتف. على الكتف  
الملوي شريط أسود كريشة سوداء على رأس طائر عراقي، أو  
حيوان أسطوري في الأزمنة القديمة لكن المعانيخ في يدها  
تجعلها أشبه بزعيم عصاية في عانة أو أحد الأحراش المهجورة

الظلمة تشد وتصح لها كثافة فوق حفتي الهواء يركد وينقل  
وتصح له رائحة مادة تحرق غشاء الألف كالعار الحائق.

توقفت المرأة عند أحد الأسوار الصخمة دي القصبان  
الحديدي أدخلت المفتاح في الباب وظهرها ماحيني أمامها  
لها صوت مسموع كأنما تلهث.

ثم رن صوتها في الظلمة وبعيداً كأنما يأتي من بطن الأرض،  
أو من زمن محيق بالغ القدم:

- ادخلي.

كان الباب الحديدي صخماً وثقيلاً، دفعته بيدها بصعوبة لم  
يتمتع إلا عن مساحة صغيرة تسع لمرور جسدي. رأيت أصابعها  
المشقة فوق ثوبي الأبيض تساعطني في الدخول.

رأيت هذا المشهد من قبل. الآن تذكرت، منذ سنين بعيدة.  
الأصابع السمراء المشقة تحوط جسد أمي الملعوف في الكفن  
الأبيض وتدفعه ببطء داخل الثقب المفتوح في الأرض. ومن  
حولها أبي وأهلي بملابس الحداد هيونهم تلمع بالدموع

عبي مفتوحان بغير دموع ارتطم رأسي بحديد الباب.  
- حاسبي على نفسك.

صوتها أيضاً مألوف. لا تزال واقفة على عتبة الباب عيناها  
تسعان بلمعة خاطفة قبل أن تحضيا.

دار المفتاح في الباب ثلاث دورات ودب الصمت في أدبي  
كالصبر الحاذق. كصرخة واحدة ممددة بغير انقطاع سددت أدبي  
بأصابعي والمليل الأبيض وضعت على أنفي. في السقف لمة  
كهربية تحملق كالعين الجاحظة المشوقة أسرة حديدية من  
دوريس أجسام تتحرك داخل هباءات سوداء. الرؤوس  
ملفوفة بالطرح البيضاء أو السوداء. وجوه محتمة تحت النقاب.  
ثقوب صغيرة تطل منها عيون.

هل سقطت في قاع يثر؟ أم هطت على كوكب آخر؟ أم أسي  
عدت إلى زمن العيد والحريم! أم هذا حلم وأن نائمة؟

لكي لست نائمة أنا واقفة صاحبة واعية نماماً أنني داخل  
السجن. وهذه هي المرأة أو العسر. الجدران الأربعة. الباب  
الحديدي ذو القضبان.

أغمضت عيني ثم فتحتهما. لا تزال الأشباح أمدني تعرفت  
على أحد الوجوه تحت الضوء الأصفر...

هتعت بسرور: صابناز.

وتدنقا. صحابية وأدية لم أكن رأيتها من سبيل طويلة.  
تغيرت كثيراً. لم تكن ترتدي الحجاب.

رمفتي عيان من حلال ثقيين في القاب الأسود وسأت:

.. من زميلنا الحديثة؟!

ردت صافيوار: الدكتورة نوال السعداوي صاحبة الكتب  
المحظرة .. الكتب المليئة بالكفر

رأيت جسماً يتحرك فوق الدور العلوي لأحد الأسر، وبهتت  
من نومها فجأة نهت.

.. أهلاً نوال!

الدكتورة أمينة رشيد، أستاذة بجامعة القاهرة. التقيت بها عدة  
مرات في بيتي وبيت بعض الصديقات. وشأت بيننا صداقة.  
تعانقنا بفرح وقالت صافيوار لأمينة: هل قرأت الكتب التي  
مشتها نوال.

وقدت أمينة طعماً، قرأتها، وطالبتني في الجامعة قرأت الكتب  
وطلس مني أن أستضيف نوال في الكلية ليتحدث معها .. إنها  
كتب مهمة والكثيرون يعجبون بها.

رددت صافيوار: إنها كتب كافرة وملحقة.

قالت أمينة: هل قرأتها.

ردت صافيوار: أنا لا أقرأ إلا كتاب الله.

قالت أمينة: وكيف تحكمين على كتب لم تقرئها!

ومرت لحظة صمت

بدأت بعض العنيتات المسفات يسألن في استطلاع عن هذه  
الكتب عيان من حلال الثقيين اقترنا مني وسمعت الصوت  
يسألني

.. هل نصلين؟ هل تصومين رمضان؟ أليس وجه المرأة عورة؟

وقلت: العورة هي الظلم والكذب وبغذاء عقل الإنسان  
امراة أو رجل .. العورة هي وجود في هذا السجن بدون  
جريمة وبدون تحقيق!

تُعت العيتان داخل الثقيين وامتلأت بالبريق. التفت ناحية  
أمينة: وأنت يا أمينة متى جئت؟

قلت أمينة: من يومين. جاءت القوة المسلحة إلى بيتي. كان  
معني سي، ومهمكة في نقل أثاث بيتي إلى شقتي الجديدة،  
وعدت منهم تأجيل الفجر علي حتى يسافر سي وحتى أنهى نقل  
الأثاث. لكنهم رفضوا .. وجازوا بي إلى السجن. لم يكن  
في هذا الاعتبار. ك في المستشفى في الغرفة نفسها مع فريدة  
الشار وشاهدة مقلد. ولم أشعر أسي في سجن. كان عدد  
صحف والراديو والأطعمة والياب يعشع عيت طول النهار.  
نكهم نقلوا إلى هذا العسر، ومنعوا عنا كل شيء. وأنت ماذا  
حدث لك يا نوال؟

قلت: دقوا الباب، رفعت أذ أفتح لهم. لم يكن معهم أمر  
من النيابة. كسروا الباب وجازوا بي إلى هنا

اتسمت عينا أمينة: كسروا الباب؟!

وحياة سمعها الممتح يدور في الباب. امتح باب العبر  
ودخلت امرأة ثم انغلق الباب.

رأيت وجهها في الضوء الأصفر وهي تقبل نحونا وهتعت  
برور: لطيفة!

الدكتورة لطيفة الريات. التقينا منذ عشرين عاماً ونصادفنا،  
بجمع بين الأدب والفن، والصداقة. تعانقنا بفرح.

وقلت لطيفة. قرأت في جريدة المساء اسمي ضمن قائمة  
المتحفظ عليهم، وحين عدت إلى البيت وجدت رجال البوليس  
كانوا يظنون أن أختي هي أنا. وضحككت....

ثم نظرت إلي: وأنت يا نوال ماذا حدث؟

قلت. رفعت أن أفتح لهم الباب بدون أمر النيابة - كسروا  
الباب....

وقالت لطيفة وصحت الأمور إلى نهايتها ليقتضوا على كاتبة  
مستقلة مثل نوال رحمة الله على الديمقراطية وحرية الرأي!

كان الفجر على وشك الطلوع.

وقلت لا بد سام قليلاً لنستأنف المعارك غداً...  
وضحكنا لكن القلب ثقيل والموجوء مرهقة والعيون  
فيها قلق عادت أمية إلى مكانها فوق الدور العلوي للسري، إلى  
جوارها فتاة مسيحية اسمها البراء... لها وجه طفلة. حاولت  
لطيفة أن تنام على نصف سرير إلى جوار صابيار، لكنها نهضت

بعد قليل، وصعدت المرتبة على لأرض ولقت حول حبيبها رباط  
أبيض ومامت...

طلعت مفتوحة العينين أنامل ما حولي. السقف الأجرب  
الأسود الجدران المشققة القصص الحديدية، نافذة صغيرة  
قرب السقف مسدودة بالأعمدة الحديدية أجسام ساء وفتيات  
يرقدن على الأرض أو فوق الأسرة الحديدية السوداء دنت  
الدورين.

فردت ذراعي وبطرت إلى أصابعي حركت يدي وأمسكت اليد  
الأخرى كل ما حدث حقيقة وليس حلمًا. لا زلت أرتدي الثوب  
الأبيض الذي ارتديته بسرعة وهم يذوقون الساب والحداء  
المعتوح. قلماي متورمتان قليلاً إرهابك اليوم الطويل. حلقي  
خاف، وفي رأسي طين، وصور تتابع كدالشرط السيماني،  
أحداث قديمة منذ الطفولة وأحداث جديدة، الدقات العيمة فوق  
لسب، صوت الباب وهو ينكسر... هوهات البادق المفتوحة  
العيون الرجائية تجري وتدور. صوت الرجل العجوز. السرداب  
الصيقل المظلم، والعمود يرتفع وينحفض. والشق في الباب  
انصحم الأسود الجو خاسق شديد الحرارة. تمددت على  
الأرض إلى جواردي سرير حديدي بدوري في الدور الأول  
ترقد امرأة شعرها طويل يخفي كل وجهها. وفي الدور الثاني ترقد  
امرأة ملفوفة بالسواد من الرأس حتى القدم أحساد أخرى راقدة  
على الأسرة أو على الأرض بعضها نصف غار، وبعضها ملفوف  
بالسواد لمحت سريراً خالياً انكأ يدي على الأرض وحمت

جسدي فوق قدمي وسرت نحو السرير لكن ما أن جلست عليه حتى هبطت شرائطه الحديدية الممزقة ولا مست الأرض. رفعت المرتبة لمطاط من فوق السرير ووضعتها على الأرض. تمددت عليها من فوق رأسي جدار أسود تلتصق به لمبة كهرباء مصاة طول الوقت تسكب في عيني شعاعاً أحمر كسيح من الحديد المنصهر وأصوات كالطين أو الصغير الحاد تسكب في أذني كحيط طويل من السائل الكاوي. من أين تأتي هذه الأصوات؟

وصحت المدبر الأبيض على عيني، سددت أدبي بأصابعي وأغمضت عيني لكن الأصوات ظلت تخرق أدبي، والضوء ظل ينفذ من خلال السدليل ومن خلال الجفن إلى عيني، فتحت عيني بين العين والجنس مساحة كبيرة من الألم الحارق ادبي لا يخف، ومسافة طويلة من الرمس الذي لن يتقصي الرمس لم يعد هو الزمن، أصبح هو والجدار شيئاً واحداً، والهواء أيضاً لا يتحرك ولا شيء يتحرك حولي إلا الصراخ والعثران، ومن تحتي مرتبة رفيعة من المطاط تعرج منها رائحة بول قديم، وتحت رأسي حقيبة يدي الفارغة، ولا رلت أرثدي العستان الأبيض الذي خرجت به، والمجداء في قدمي.

رفع السدليل من فوق وجهي ودسسته في أذني. طنين وصراخ حاد متصل لا أعرف مصدره. أصوات عجيبة وصحيح لم أسمع من قبل. من أين تأتي هذه الأصوات؟ كأنها تنفذ من الجدران الأربعة، ومن السقف، ومن بطن الأرض أصوات بشرية وغير بشرية صراخ حاد كصراخ الطفل المولود ونحيب

وبراح كمواء الذئاب وشجار وسياب وبكاء مكتوم كالشبح، وسدان كالصغير، وصفعات باليد وركلات بالقدم، وخزير ماء كالشحية، ودعاء وإبهال وترنيل كالصلاة، وتبقى صفادع، ومواء وطمط وساح كلاب، ومن فوق كل ذلك صفارة حادة. بداءات الصراخ.

كنت راقدة فوق ظهري لأبعد رأسي ما أمكن عن رائحة المرتبة تحتي الحر كان شديداً. العرق أحته لزجاً، والفسان التصلب بجسمي لا نقطة هواء واحدة وصلدي لم يعد يتحرك لا صاعداً ولا هابطاً. لا زفير ولا شهيق وحيل إلي أنني أموت أو مت فعلاً.

وبغبرة الدفاع عن الحياة افتتح جعائي وحدهما في دعر. لم أكن مدعورة بالمعنى الصحيح. كنت في حالة من الإعياء القوية من الموت تلاشى فيها كل المشاعر ومنها الشعور بالدعر

ولا أحري لماذا افتتح حضائي. كان يمكن أن أموت وأنا معمصة العبيس. لكن اكتشفت شيئاً لم أكن أهره: أن الإنسان يموت وهو مفتوح العبيس، كأنما يريد أن يرى كيف يموت، أو كأنما يدافع عن حياته بكل حواسه ومنها حاسة النظر.

في تلك اللحظة خيل إلي أنني أمتص بعيني الهواء الذي عجز صدري عن امتصاصه. وربما لهذا السب لم أمت. ظننت أحس وأرى، لكن صدري لم يكن يتحرك.

ماذا كنت أرى في تلك اللحظة؟

عبياي كانتا ماحية السقف. ورأيت يرساً كبيراً أصفر منتصباً  
بالسقف، يرحف سطه. وحطرت لي فكرة غريبة أن بطراني الثالثة  
عليه قد تجدبه نحوي فيسقط فوقي، وأعمضت عيني ثم فنحت  
عياً واحدة بحذر شديد ورأيت البرص يحرك أرجله ثم سقط  
فجأة.

لو كنت في حالتي العادية كان لابد أن أنهض مدهورة قبل أن  
يسقط البرص فوقي. لكنني لم أتحرك. وأعمضت بالبرص يجري  
موق ساقني ولم أحرك ساقني ثم رأيته يقف مدهوراً ويحتني في  
شق الجدار.

تسمعت عبياي في دهشة، وغمرني فجأة شعور غير مفهوم من  
السعادة، وأعمضت عيني في راحة ونمت حتى الصباح

حتى هذه اللحظة لا أعرف كيف نمت، ولا أعرف سر تلك  
الراحة أو السعادة التي عمرتني فجأة. ربما لأن البرص هو الذي  
خاف مني وأباً لم أحب منه، أو ربما هي سعادة الإنسان حين  
يكشف ذاته، أو تتدى أمام عبيه شجاعة جديدة في نفسه لم يكن  
يعرفها، أو يتبدد خوف أو وهم كان يعيش به.

وكنيت أعيش بوهم هرب، أو بحوف غير مطفي من البرص.  
جدتي كانت تقول إن البرص إذا لامس جسم بني آدم مرض بدء  
«البرص»، كنت طعنة حين سمعت هذا الكلام وارتبط في ذهني  
«البرص» كحشرة «البرص» كمرض جلدي. وظل هذا الارتباط  
في وجداني حتى بعد أن درست الطب وعرفت أن لا علاقة بين  
البرص والبرص.

وتعلمت في السجن ما لم أتعلمه في كلية الطب. رحف  
البرص على جسمي ولم يحدث لي أي شيء. ورحفت الصراخير  
علي ولم يحدث لي أي شيء. وتبدد الحوف الذي عشت به من  
هذه انكاثات الصعيرة البريئة، التي تتحرك برشاقة عجيبة في الليل  
وتبحث لنفسها عن الطعام في القمامة وشقوق الجدران.  
وأصحت أنام يوماً عفيفاً هيناً وهي تترافض من حولي دون أن  
يصيبني شيء.

أول ليلة في السجن نيت وأنا نائمة ما حدث، وتصورت في  
«صباح أنني سأرى عرفة نومي، سريري الأبيض الصغير إلى  
حواره سرير زوجي، صفوف الكتب في المكتبة البيضاء، وجه  
اسي يطل من الباب، صوت ابتي في الحمام... أعدام الموسيقى  
من الصلاة الصغيرة... لكنني فتحت عيني على جدار أسود عال  
مليء بالشقوق ترحف فيها الحشرات السوداء والبيضاء، ومن  
تحتني أرض أسمنت تمتد بطولية وعفوية، وأصوات من بطن  
الأرض أو من تحت الجدار تصرخ بالباب «يا بت ال...»  
لعنت نصت على أعضاء الأم الجنسية، وعلى كل أعضاء النساء.  
سباب من كل نوع يلصق الأم والأب والجدود وجدود الجدود.  
يسمع الدين والديا بكاء وحجب وشجار وصراخ أطفال.

صوت امرأة يصيح «بادي يا بت على البيت فتحية»... صوت  
آخر يرد صائحاً «فتحية مين فيهم. فتحية الحرامية والا فتحية  
افتالة! أصوات تصرخ وتولول. حراذل وصماتح تخبط  
نعصها نعصاً... حديد يرتطم بالحديد وأبواب تمنع وتغلق



وتصقق... خطوات فوق الجدران ومن تحت ومن فوق.

أعصت عيني ومحتهما أين أنا؟ أتحنس رأسي ما الذي تحت رأسي؟ حدائي! ما الذي تحت جسدي؟ الأرض الأسست! وما هذه الرائحة العريضة كرائحة المجاري؟ وهذه الأحساد السوداء والرؤوس الملفوفة بالسواد؟ والعيون المطقة من القلوب! تشككت في يقظتي الكاملة لكن الحقيقة الباردة رحمت فوق جسدي كالشلل. كنت جالسة أكتب الرواية وفجأة دقوا الباب. . . رفعت أن أفتح لهم... كسروا الباب ودخلوا... تابعت الأحداث كشرط يحري فوق كرة من المقاطع.

لأول مرة في حياتي أحس بالعجز أمام قوة أكبر مني. رحمت الإحساس بالعجز على جسدي كالشلل. حيل إلي أنني لم أجد قدرة على تحريك ذراعي ولا ساقتي، ومن شدة العزع وجدنتني أفتقر واقفة على قدمي.

لا أدري كيف انتقلت من النقيض إلى النقيض لمجرد اكتشافي أن جسدي قادر على الحركة كما كان انقلب الإحساس بالعجز إلى إحساس بالقدرة، ولم يعد مهماً أن يكون أمامي جدار أو فضاء، لكن المهم أن يظل جسدي قادراً على الحركة، وأن أستطيع أن أفل قدمي فوق الأرض قدماً وراء قدم.

في حركة قدمي وأنا أفنهما على الأرض شيء أشبه بالمرح، كمريض بالشلل شقي فجأة وأصبح يمشي.

لا أدري ما سر تلك القدرة الإنسانية على التكيف والانتصر

على أسوأ الظروف. لكن كل شيء بدأ محتملاً ما دام جسدي يتحرك. لعلي بدأت بفكرة الموت أو الشلل ليبدو كل شيء بعد ذلك أقل خطراً وربما هذه هي قدرة الإنسان على التكيف أن يبدأ بالأسوأ فيصبح الأقل سوءاً محتملاً.



ولم يمض يومان حتى رأينا الدكتورة عواطف عند لرحمن تدخل علينا العنبر. إنها أيضاً صديقة لي منذ سنين.

رحبت بها وعانقتها. وأنا أقول صاحبة لحاد تأخرت في الحصول على عواطف! قالت وهي تضحك كنت مسافرة وقصوا علي في المطار، هبطت من الطائرة فرأيت البوليس في انتظار، وكان أبي ينتظري في المطار، وسار معي والبوليس من حولنا، لم يفرح ولم يخجل بل سار إلى جوارتي مزهواً بأبه. . . وكان معه الصحف ورأيت صورنا جميعاً، وحكى لي أبي ما حدث، وقال لي إنهم كسروا باب بيتك يا نوال هل هذا صحيح؟!

وبدأنا نحكى ما حدث. وانضمت إلينا جميع الرميلات في العنبر... كنا أربع عشرة امرأة وفناء. . . من مختلف الأجيال ولأعمار والأفكار.



مد اللحظة التي فثت فيها عيني على أول صباح في السجن أدركت من حركة جسمي وأنا أبصر وأشد عضلات ظهري وعفي أن قراراً حاسماً قد استقر في رأسي أن أعيش في هذا المكان

وتصق... خبطات فوق الجدران ومن تحت ومن فوق.

أعصت عيني وتحتهما أير أنا؟ أتحس رأسي ما الذي تحت رأسي؟ حدائي! ما الذي تحت جسدي؟ الأرض الأسمت! وما هذه الرائحة العرية كرائحة المجاري؟ وهذه الأجساد السوداء والرؤوس الملفوفة بالسرادق والعيون المطلة من الثقوب! تشككت في منظمتي الكاملة. لكن الحقيقة الباردة رحفت فوق جسدي كالشلل كنت جالسة أكتب الرواية وفجأة دق الباب رفعت أن أفتح لهم كسروا الباب ودخلوا نتاعمت الأحداث كشريط يجري فوق كرة من المقاطع.

لأول مرة في حياتي أحس بالعجز أمام قوة أكبر مني رحف الإحساس بالعجز على جسدي كالشلل. حيل إليّ أسي لم أعد قادرة على تحريك ذراعي ولا ساقتي، ومن شدة الفزع وجدتي أفزع واقفة على قدمي.

لا أدري كيف تنقلت من النقص إلى النقص لمجرد اكتشاف أن جسدي قادر على الحركة كما كان. انقلب الإحساس بالعجز إلى إحساس بالفكرة، ولم يعد مهماً أن يكون أمامي جدار أو قضبان، لكن المهم أن يظل جسدي قادراً على الحركة، وأن أستطيع أن أفل قدمي فوق الأرض قدماً وراء قدم..

في حركة قدمي وأنا أنقلهما على الأرض شيء أشبه بالمرح، كمرضى بالشلل شفي فجأة وأصبح يمشي.

لا أدري ما سر تلك القدرة الإنسانية على التكيف والانتصار

على أسوأ الظروف. لكن كل شيء بدا محتملاً ما دام جسدي يتحرك. لعلي بدأت بفكرة الموت أو الشلل ليندو كل شيء بعد ذلك أقل خطراً وربما هذه هي قدرة الإنسان على التكيف. أن يبدأ بالأسوأ فيصبح الأقل سوءاً محتملاً.



ولم يمض يومان حتى رأينا الدكتور عواطف عبد الرحمن تدخل عينا العبر إنها أيضاً صديقة لي منذ سنين.

مرحب بها وعانقتها وأما أقول صاحبة لماد، تأخرت في الحضور يا عواطف! قالت وهي تصحك كنت مسافرة وقصوا عني في المطار، هبطت من الطائرة رأييت البوليس في انتظاري، وكان اسي ستطرنني في المطار، وسار معي والبوليس من حولنا، لم يعرف ولم يحجل بل سار إلى حواري مزهواً بأمه. وكان معه الصحف ورأيت صورنا جميعاً، وحكى لي ابي ما حدث، وقال لي إهم كسروا باب بيتك يا نوال هل هذا صحيح؟

وبدأنا نحكي ما حدث. وانصت إلينا جميع الرميلات في العنبر... كنا أربع عشرة امرأة وفاة. من مختلف الأجيال والأعمار والأفكار.



مد اللحظة التي فتحت فيها عيني على أول صباح في السجن أدركت من حركة جسمي وأنا أنهض وأشد عضلات ظهري وعيني أن قرأراً حاصماً قد استقر في رأسي أن أعيش في هذا المكان

كما عشت في أي مكان آخر قرار حاسم بدا لي كالجون، لأنه يلقي الواقع ويلقي المسق ويلقي الجدران والأبواب الحديد.

في كل مكان دعت أو ساءرت إليه، ومهما كان بعيداً أو غرباً، أتلفت حولي في دهشة، وكأنني ولدت فيه وساموت به ولم أعرف مكاناً غيره، والوجوه من حولي مهما بدت غريبة تبدو لي وكأنني رأيتها من قبل.

وجدتني واقفة أمام الباب ذي القصبان أغمز على أطراف أصابعي وأحرّك ذراعتي وساقتي في الهواء، بتلك الحركات الرياضية التي تعودت أن أقوم بها كل صباح في بيتي أو في النادي ومن بين القصبان الحديدية أرمق قطعة من السماء الزرقاء المظنة فوق الأسوار والأسلاك وأكاد أصحك كطفل، وأتطلع إلى كل الوجوه من حولي وأنسم وأقول صاح الخير، صوتي يرن في أذني مرحاً متعائلاً مستبشراً خيراً، يرن في الجو من حولي صائلاً كرتين آتية من المصّة المجلوة، وكأنني في بيتي، وكان هذه العيون من حولي هي هيون أعلي.

حتى الآن لا أعرف ما سرّ تلك المرح الذي أستقبل به أي صباح جديد. هل يغفل النوم مخي من الأحزان والآلام؟ أم أنني أصوّر بسداجة طفل أن اليوم الجديد سيأتي شيئاً جديداً. أم أن لداكرني قدرة حارقة على طرد الحزن والألم. أحياناً كنت أنهم نفسي بالسداجة أو الطفولة، وأود التخلص منها. وحين ماتت أمي ومات أبي حاولت التخلص من طفولتي، وحين كبرت ابتني وأصبحت فتاة شابة، وحين كبر أبي ولم يعد طفلاً.

أمي كانت تهربي حين أصبحت مجاعة في معزى أو مائتم، وأبي أبعث كان يرمقي بطرات حادة ويقول: أنت كبيرت .. ولست طفلة! من إن انتي قالت لي مرة أنت كبيرت يا ماما!

حتى في عزّ لأرمات، وفي أشد الأوقات واللحظات التي تستدعي اليأس، لم أكن أعرف من أين يبعث ذلك التفاؤل غير المستطقي كماؤل طفل سادج.

كانت الأمور تسوء أحياناً أكثر مما هي مسته، وتدهور أحوال داخل السجن، وسمع عن أحبار نبيء بالحظر، ويسود التشاؤم جميع المسجونات ممي في العنبر، وتظن كل واحدة منهن أنها محاطة بأبشع المحاطر ويجلس جميعاً ساكتات واجمات متشائمات، فإذا بشيء يهت فجأة متصفاً داخلها كالمارد، عاصفاً ثائراً على الوجوه والاستسلام للكآبة والحزن. متمرداً على الجمود وعدم الحركة. . . يقاوم الانهزام. . . والتشاؤم. . . لأقول لن نموت، وإذا متنا لن نموت ساكنات، لن نمضي في الليل دون صجّة، لا بد أن نغضب ونعطب، نصرب الأرض ونوح الأرض، لن نموت دون ثورة!

ثم مصحك. تصحك عواطف ونعمة وأمانة وصابار كلنا كما قاوم ونضحك أحياناً. . . وإلا إشتين لم تكن عيونهم تعرف النعمة أو التماؤل واحدة منهما كان اسمها بدورة. شابة في الثلاثين من عمرها في نقابها الأسود ثقبان للعيين ترتل القرآن بصوت يذكّرني بترتيل القرآن في المائتم، وملابس الحداد، والطرح السوداء تلعب بمعربات حول رؤوسهن، متلاصفت في صف واحد كرووس

نعریان، منادیل بیهضه یرفعها فوق عیون حمراء، أو یحركها فی  
الہواء حول رؤوسهن السوداء، ویطلق أصواتاً حادّة.

لم أكن أمرق فی طفولتی بین أصوات الندب والنواح فی المآثم  
وأصوات الرعارید فی الأفراح، وكنت أصحك أحياناً فی المآثم  
فإذا بالشعاع من حولي كنها ممطوطة، وقد أسمع من یقول لي  
عیب. - أو حرام

وفي السجن لم أكن أسمع من «بدور» إلا كلمة حرم. كل  
شيء عندها حرام حتی الریاضة البدنیة: فالمرأة یجب ألا تهرّ  
جسمها والصحك عندها حرام لأن فی القرآن آية تقول «إن الله  
لا یحب الفرجین». رأيتها مرة نصحت دون أن تدري فرفعت یدها  
بسرعة إلى فمها وكتمت الصحك وهي تقول «اللهم اجعله خیراً  
یا رب!»

صوتها وحركة یدها والطرحه السوداء علی رأسها تشبه جدّتی  
الریفیة أم أبی، إلا أن جدّتی كانت تكتشف وجهها ولم تعرف  
التقب أو الحجاب، وجدّتی كانت تحيعة الجسم خمیفة الحركة  
تشتمل طول النهار فی الحق وتعود إلى البیت لتطبخ وتحیز. لكن  
«بدور» سمیة ثقیلة الحركة لا تفعل شیئاً طول النهار سوى  
الجلوس، أو تناقش مع زمیلاتها المصقبات حول ما فی القرآن  
ونقاشها كالشجار.

والثانیة كان اسمها «موقبة»، شایة فی حوالی الثلاثین أيضاً.  
شبه «بدور» إلى حد كبير فی ملامحها وحركاتها لكنها لم تكن  
ترتدي التقاب علی وجهها، ولا الحجاب. كانت سائرة مثلاً

تماماً لكنها كانت تصنع الحجاب علی عقلها ولا تتصور أن هناك  
من یفكر بطريقة أخرى غیر طریقتها ونقاشها أيضاً يأخذ شكل  
الشجار.

كنت تشبه «بدور» فی ذلك الإیمان الأعمی بمفكرة واحدة،  
ومن لا یؤمن مثلها یكون كاهراً لكن إیمانها لم یكن بالله أو  
محمد مثل «بدور». لا تتحرك من مكانها إلا نادراً تظل جالسة  
طول النهار تناقش فی السیاسة والنحرب والجماهیر الکادحة  
وتختلف مع الآخریات حول معانی الاشتراکیة العنمیة

التجربة الأولى فی السجّر، وفي أعمدتی عشق عجیب لأول  
كل شيء فی حیاتی. أول مرة ركبت الحمار وأنا طفلة، وأول مرة  
ركبت الفطار إلى المدرسة. وأول مرة ركبت الطائرة من القاهرة  
إلى أسوان. وأول مرة أسبح فی بحر الإسكندیة. وأول مرة أفقد  
زوجی بالطلاق. وأول مرة أفقد عملي فی الحكومة. وأول مرة  
أحوصل آلام الولادة لیخرج من جسدي رأس طفلي. وأول مرة  
أصع السماعة فی أذنی وأسمع دقات القلب. وأول مرة أرى  
حروف اسمی فی المطبعة. وأول خطوة أحطوها بحو أول رجل  
فی حیاتی.

فی كل مرة كانت تتناهی رعشة مریح من الخوف والفرح  
وفي كل مرة تعلّب الفرح علی الخوف. حتی هذه المرة وهم  
یسوقونی إلى السجن تعلّب الفرح علی الخوف. . . کیف؟ لا  
أدري! لكنی كنت أحسه فی أعماقی كما مخفياً یحسّ الظهور  
أمام الآخرین وكأنه نوع من الإنتم.

لقد ولدت في عالم يكره الفرح والمرحين حتى أمي كنت  
نرمقي بصيق أو كراهية حين قرأت أرقص بفرح. كنت أظن أول  
الأمر أنها لا تريدني أرقص، لكنني أدركت فيما بعد أنها لا  
تريدني أفرح. لماذا؟

عرفت حين كبرت أنها ولدت مثلي في عالم يكره الفرح  
والمرحين، ويضطر إلى كل لغة إنسانية على أنها انحراف. أما لغة  
الاستكشاف فهي محرمة، لأن المعرفة محرمة. الآلهة وحدها هي  
التي تمتلك المعرفة. والجهل هو النعمة التي منحها الله لميئده من  
الشر، ومن يشتهي المعرفة كمن يشتهي الإثم والخطيئة والشر  
المحرمة.

لكنني ولدت بعريضة عارمة جامحة للمعرفة، لمعرفة كل شيء،  
كل شيء، حتى الموت. وربما بلغت حافة الموت أحياناً لمجرد  
إشباع استكشافات طفولية.

أما السجن فهو في نظري كالموت يستحق الاستكشاف.  
وطوال حياتي أنظر إلى من دخل السجن وخرج على أنه عرف  
شيئاً لم أعرفه، وعاش حياة لم أعشها.

والفرق بين السجن والموت، أن الإنسان قد يخرج من السجن  
ويعود إلى الحياة ويحكي للناس عما رآه. أما الموت فلا أحد  
يعود ولا أحد يحكي.

لهذا لم تكن تجربة الموت تطوف بخيالي. أما السجن! كم  
نمتبت أن أدخل السجن، بشرط أن أخرج منه مرة أخرى سليمة،

وفي الوقت الذي أريده. لكنها شروط لا يمكن أن يصممها أحد  
وظف السجن في خيالي كالكابوس، كالموت، الداحل إليه  
مفقوده والحارج منه مولود.

وفي السجن عرفت القيصير معاً فمة الحرور وقمة الفرح  
دروءة، الألم ودروءة اللذة. أعظم جمال وأشد قبح. وفي بعض  
الدحطات تصورت نفسي أعيش قصة حب جديدة. كيف؟ لا  
أدري، لكنني في السجن وجدت قلبي متفتحاً لأدب كما كنت في  
أول الشباب وريبع عمري. وفي السجن تذكرت صحبتي المطفئة  
وأنا طفلة، وعاد إلى فمي طعم دموعي في أفسي وأصعب أيام  
حياتي.

وفي السجن استعدت كل طفولتي وأصحت أصفق وأرقص  
فرحاً لمجرد سماع صوت الملعقة وهي تقلب السكر في كوب من  
الشاي.

كان الشاي كالنور الأسود والقش، والسكر قطع سمراء  
يحوطها السيل، لكن ما أن أفتح عيني في الصباح وأشم بخار  
الشاي يتصاعد من الإبريق حتى أقهر من مكائي، وأصب الشاي  
في لكوب البلاستيك الأخضر، أرشحه على مهل رشفة رشفة،  
ومدافه في فمي الد من أي شاي في حياتي، والوجوه من حولي  
كدها محبة، قريبة إلى نفسي حتى تلك الوجوه المحتمة تحت  
استجاب الأسود، حين دفعت الثقاب رأيت وحوهاً مشرقة صافية  
تقبض بالحب والتعاون والإنسانية.

وعشت الحياة الجماعية وسط النساء والفتيات امتلعت  
سعادتي حين كنت تلميذة في المدرسة الثانوية نفرح ونعصب  
ونشأصم ثم نتصالح نفرح بأقل شيء ونحزن لأسط سبب.  
تظهر الدموع في عيونا ونحن نتسم وتشرق الابتسامة ونحن  
لا نزال سكي تندو الحلاقات بيضا أحياناً كالبحور تفصل بين  
الواحدة والأخرى، وكل واحدة ما جريرة وحدها ويشتد العراك  
والحلاف لكن سرعان ما يحدث التفارب والتألف والوقوف  
صفاً واحداً في مواجهة السلطة الواحدة التي وضعنا وراء  
القبان.

«نور» العنة الوحيدة المسيحية. قبصوا عليها غس من قبصوا  
عليهم من المسيحيين والأقباط. غنة في حوالى العشرين من  
عمرها رقيقة حجولة لا علاقة لها بالياسة أو العنة الطائفة،  
التهمة التي الصقت بكل من انتمى إلى المعارضة. وكما نشاء  
يدا كانت الدولة تهتم هؤلاء المتحفظ عليهم داخل السجون  
بإشغال العنة الطائفة والكراهية والحقد بين فئات الشعب، لماذا  
إذن وضعتهم جميعاً في عتابر واحدة لماذا حبست المسلم  
المتطرف مع المسيحي مع اليمين مع اليسار أتريد بذلك أن يفك  
بعضهم ببعض داخل السجون؟!

لكن الذي حدث هو العكس تماماً. صاد الوثام بين الجميع.  
تحقق التعاضد داخل السجون بين كل فصائل المعارضة

ومجأة صدر قرار جديد... فصل المسيحيين عن  
المسلمين... حين كل فريق في عتابر منفصلة!

ودخل مسؤول السجن علينا ذات صبح يادي على «نور» اسم  
العنة المسيحية

قال: هاتي ملايسك وتعالني معي.

شحب وجهها بالخوف.

قلنا جميعاً في صوت واحد: إلى أين تأخذها!

قال: صدر أمر بفصل المسيحيين عن المسلمين

فلما لماذا؟ لا يمكن أن تحبس وحدها بعيداً عما!

وقمنا صفاً واحداً لسجود دون فصلها لكنه انترعها بالقوة

عانتنا واحدة واحدة وهي تبكي.

جلسنا واجمات صامتات. . وفي الصمت أدركنا حقيقة  
الأمر إن قرار التحفظ لم يصدر خوفاً من العنة الطائفة لكن  
خوفاً من الوحدة الوطنية. . .



أشد الكوارث بداياتها، وأخطر ما في حياة المسجون هو  
الانتقال المفاجيء من حياة إلى حياة، ومن عادات اكتسبها طول  
حياته إلى عادات جديدة لا بد أن يتعلمها وتزداد المشقة كلما  
كان الإنسان مرفهاً أو مدلاً، يتظر دائماً أن يخدمه الآخرون.

لكسي تعودت أن أخدم نفسي، أعمل كثيراً وأكل قليلاً.  
وأستحم بالماء البارد في الشتاء وأمارس الرياضة البدنية مد  
الطفولة أدركت مبكراً حاجتي إلى ذراعين قويتين أداغ بهما عن  
نصي عند الصرورة . في الشارع أو في الأوتوبس حين يحاول

أي رجل أن يحول كياني إلى جسد أشوي يستطيع أن يمسكه من الخلف أو الأمام.

وفي الجامعة حين كانت زميلاتي الطالبات يتفاحرن بعمومة أيديهن وصغر أقدامهن ورقة أجسادهن الصغيرة وارتداء عسلاتهن الضعيفة، كنت أحرر بقامتي العارعة وعسلاتي القوية المشدودة كيف حدث ذلك؟ لا أدري! كنت أحس في أعماقي عقلاً يرفض الضعف كأبوة، أو الأبوة كضعف لم أصح أبداً مسحيق التجميل على وجهي. لكني تعودت أن أعسل وجهي كل صباح، وأستاني بالفرشاة والمعجون، وأمارس رياستي الصباحية ثم أصبح جسمي تحت ماء الدش العزير.

فتحت عيني ذلك الصباح الأول في السحن فلم أجد ماء في الصنور ولا فرشاة أسنان ولا معجون ولا صابونة ولا فوطة ولا دش. والمرحاض ثقب في الأرض بغير باب وبغير سيفون. طامع نماء المجاري والصراصير.

بدأت حياتنا في السجن بإصلاح حال المرحاض كان ذلك هو نقطة الاتفاق الأولى وبداية اللقاء بين جميع الزميلات منقيات وسافرات.

لحسن الحظ أن أمعاء الإنسان لا تمرق بين يمين أو يسار أو دبر ودبر. ومهما اختلف الإنسان مع الإنسان فكرياً أو سياسياً فحاجتهما إلى المرحاض واحدة.

وعقدنا أول اجتماع في العسر حضرته جميع الزميلات، حتى

«دور» التي رفضت أول الأمر أن تعقد جلسة واحدة مع اللاتي اطلبت عيبن «الكافرات الملحقات» كانت أكثرنا حماساً بهذا الاجتماع لم أرها متحمسة بهذا الشكل حتى وهي تصلي أو تقرأ لقرآن وعرفت من بعد أنها كانت تعرف دخول المرحاض بسبب لصر صير ولولا الإمساك الشديد الذي كاد يقتلها لعلت على هذا الحول إلى الأبد.

«فوقية» أيضاً كانت شديدة الحماس لهذا الاجتماع الأول. كانت مثل «دور»، تقاطع المرحاض، ليس خوفاً من الصراصير، وإنما عجزاً عن الجلوس القرفصاء فوق ذلك الثقب في الأرض

كما جميعاً تعاني هذه المشكلة، وتفرعها الصراصير، والحشرات، إلا أن المشكلة كانت حادة بالة لدور وفوقية.

طننت أول الأمر أن مشكلة الإمساك هي سبب حماسها للاجتماع، لكني أدركت من بعد أنها تعشق عقد الاجتماعات، أو أنها أدمت هذه العادة عادة تنظيم الاجتماعات. وتعودت أيضاً الكلام باللعة المصيخة والضغط على محارج الألفظ والجلوس في كرسي الرئاسة

وفي السجن الكراسي من المصنوعات. كما نجمن على الأرض، وبدا عليها في الأيام الأولى تمتد الكرسي والمصبة. ثم خلقت لنفسها منصة وهمية من الدور العلوي لتسريز لحديد، صعدت إليه بصعوبة شديدة، ثم عدلت عنه بعد أن سقط التسريز بها، وأصبحت تجلس على الدور السفلي ثم

تموّدت، لجدوس على الأرض. لكنها لم تنمو أبداً أن تربع  
ساقها أو تشبها تحتها وهي جالسة. وكانت مثل «دور» صد  
تحريك عضلات الجسم، ليس بسبب الحرام أو القرآن، ولكن  
بسبب إصاعة الوقت في حركات عضلية لا طائل وراءها... وكنا  
نصحب معها ونقول لها: ألا تؤمنين بجدوى الحركة لأية عضلة  
في الجسم إلا اللسان؟

خلال الاجتماع الأول بذانا نوزّع على أممنا الأعمال  
ولمسؤوليات لتحقيق لأمننا معيشة الأديين داخل المسير.  
واتحدنا قراراً جماعياً واحداً بالوقوف صفّاً واحداً متماسكاً في  
مواجهة إدارة السجون لتحقيق المطالب الآتية.

١. إصلاح المراحيض وصباير المياه وتركيب دش في أحد  
المراحيض من أجل الاستحمام.

٢. إبادة الصراصير والحشرات القارضة وغير القارضة

٣. الحصول على «الحز الملكي» وليس خبر السجن العادي  
الذي يسمى فاحله الدود والسوس.

٤. سد الفراغ في الجدار بيسا وبيس عبر الأمهات لمسح  
الأصوات التي تفلقنا طول الليل والنهار.

اكتشفت أن الأصوات العجيبة، الصراخ والوواح والعمواء  
ولحبيب كدنا تأتي من عبر الأمهات السجيات مع أطفالهن  
المير ولدوا في السجن. ثلاثمائة أم وثلاثمائة طفل داخل عسر  
واحد مثل عسرا لا يفصلنا عنهم إلا نصف حدار لا يصل إلى

السقف. إذا كفت الأمهات عن الشجار والصراخ بدأ الأطفال في  
الحويل. وإذا كفت الأطفال بدأت الأمهات... وهكذا ليل  
نهار

إذا كان هناك من جحيم فوق الأرض فإنه عبر الأمهات في  
سجن النساء بالقاطر الخيرية أصبح عبرنا بالسية لذلك العسر  
هو العيم، وجنة الله فوق الأرض. ولمسائل كدنا سبية نحن  
أربع عشرة امرأة في العنبر... هنلنا مساحة من الأرض...  
نستطيع أن نفرّد أجسادنا نستطيع أن نمدّ الساقين، أن  
نمشي بين الأسرّة.

لكن إلى جوارنا وعلى المساحة نفسها من الأرض نتكدّس  
مشات الأمهات، ومشات الأطفال لكل أم طفل على  
الأقل... أجساد النساء متلاصقة والأطفال... الحشرات  
تقرص أجساد المواليد لأطفال تصرخ... الأمهات ينازعن  
على جرادل الماء، على قنبل من السكر يذاب في الماء ليشره  
الطعن... تمسك كل واحدة بشعر الأخرى... يتشابكن  
بالأيدي والأرجل... تدوس الأقدام الحافية المشققة على بطون  
الأطفال وأرداهم العارية فوق الأرض... يطلق السباب  
المرأة تسب المرأة وتلعن أمها وأعضاء الأشر، تسب نفسها.  
تلعن اليوم الذي ولدتها أمها وتلعن اليوم الذي ولدت فيه  
طفلها... ساء فقيرات أميات دخلن السجن بسبب الفقر أو بسبب  
الجهل أو بسبب قهر الرجال... وراء المسجونة منهن رجل.  
أب يكوي ابنته لتسرق... زوج يضرب زوجته لتمارس الدعارة.



أح يهتد أحته لتهرب له الحشيش والمخدرات رئيس عصاة  
سرق طمعة ودرّبها في الشوارع على النّوّل..

فدع المجتمع، قاع القاع الممعدنات فوق الأرض. الوجه  
الأخر من النظام...

في الليلة الثالثة أمسكت رأسي أحسنت أسي سأفقد عقلي  
لا بد أنهم وصعوباً في هذا المكان لتصيباً هذه الأصوات  
بالجنون!

في كل حياتي لم أسمع مثل هذه الأصوات كملأين المطارق  
تدق فوق الأذنين... وتتحول الأصوات كلها إلى صوت واحد  
كثيف حارق ويكاد يلمس باليد كالمائل الكاوي

كل شيء بدا محتملاً... السوس في العول والدود في الخبز  
والصراصير والبق والقمل والأبراص والثعابين... كل شيء إلا  
هنا السائل الكاوي الذي يمتد في الأذنين وينشر في الرأس  
ويعزو كل خلايا المخ ويضغط على العقل كالعار السام

وفي صباح اليوم الرابع كنا جميعاً وقوفاً متقيات ومسافرات  
صفاً واحداً ومطلباً الأول... قبل المرحاض وقبل الخمر  
الملكي وقبل احصار ملابس من البيوت وقبل خروجنا في السماء  
إلى الهواء والشمس... هو منذ ذلك الجدار بيت وبين عسر  
الأمهات والأطفال بالطوب والإسمنت.



أصابت الدّعة حين بادرت إدارة السجن إلى نفيه هذا الطيب  
أسرع من أي طلب آخر. في صباح اليوم التالي رأينا الرجال  
يسراوين والسترات الزرقاء البالية، يحملون الطوب والإسمنت  
وادوت النّاء، ومن حولهم عدد من الجود المسلّحين بالبندق.

ما أن طهروا في الماء الواسع حتى دثت في حابر المسجودات  
حركة غير هادئة. رؤوس منكوشة الشعر تطل من بين القصبين  
وعيون تدمع. أياد تلوح. انشمامات. صحنكات. عميرات  
العين. عبر الدّعارة كلّهُ خرج إلى السماء يشهد موكب  
الرجال. موكب حزين من الشباب عاشوا الشهور والسنين  
د حل البربريين في سجن الرجال المجاور لنا. أقدامهم حافية  
وحوهم ناحلة شاحبة... عيونهم منكورة حزينة. رفع أحدهم  
عبيه ورأى النساء والعنيتات بالجلابيب البيضاء... لمح العيون  
تبرق وتبسم. لمعت عباة فجأة ابشمت ثم أطرقت إلى  
الأرض. رفع الآخرون رؤوسهم... لمعت عيونهم.

اقرب العنيتات من الصف الطويل المنتظم. واحدة مدّت يدها  
وصافحت واحداً منهم، ناولته سيجارة أحدها بلهفة  
توقفت آخرون عن السير وبدأوا يرمقون الفتاة بعيون وجلة...  
نمرج الصف المنتظم وبدأت حركة كالهرج... وعيونهم تبرق  
حرّك الجود المسلحون ينادقهم فانتظم الصف من جديد

من خلال القصبان لمحتهم بدور من بعيد فأطلقت صرخة:  
رجال قادمون! فمرت الرميّلات المتقيات ولحمحات يرتدين  
العصاة والطرح والقفاد ويحنمين وراء الأسرة والحدود.

فتح لهم الشاويشة باب الحوش الصغير، ثم باب العسر،  
ودخلوا، وأكملوا بناء الجدار بيننا وبين غير الأمهات.

أقطع السائل الكاوي الذي كان يحرق الأديس. أحسا فجة  
أب انتقلنا من الجحيم إلى النعيم. تبادلنا نظرات التشكك.  
وهنت واحدة. خريبة هل يمكن أن يصدق أن إدارة السجن  
تسعى إلى راحتنا بمثل هذه السرعة؟ رفعت «فوقية» عيها  
الصغيرتين لتحصان بدقة الجدار الذي تم بناؤه ثم قالت وهي  
تضبط على الكلمات شفة وتؤكد: «إنني أعتقد دون أدنى شك أن  
المعرض الوحيد من سائرهم هذا الجدار هو تركيب أجهزة داخله  
لتسجيل كل ما يدور هنا.

ارتفعت عيون رائعة تفحص الجدار تنظرات وجلة قنفة..  
وساد جو من الكآبة والصمت والخوف المكبوت...

وصحكت وأنا أقول هذا شيء جميل.. سوف تصلهم  
بسرعة آراؤنا التي يخاف الآخرون من الوجود بها أمامهم..

وضحكت لطيفة وقالت: وسيسمعون أبا بصحتك..  
وضحكت جميع الزميلات إلا «بدور» و«فوقية» ظلت عضلات  
رجهيهما متقلصة. رفعت «بدور» زميلاتها المنقبات معينين  
غاضبتين وقالت: الصحيح بهذا الصوت العالي حرام. أما «فوقية»  
فقلت بصوت مكتئب: لا بد أن سافس هذه المشكلة،  
التكنولوجيا تقدّمت وهم يركنون أجهزة تسجيل بأحجام صغيرة  
جداً في كل مكان، فما بال السجناء أو عمال المساجين

السياسيين! سوف يسجلون كل كلمة نقولها ولن نستطيع أن  
نتنفس دون أن تنقل الأجهزة الإلكترونية حركة صدورنا وشكل  
أعضائنا!

الهواء بدأ يتنفس، صدورنا أصبحت تتحرك بحبر شديد أو لا  
تتحرك على الإطلاق... أحست بالاحتناق... حاولت أن  
أحفف جوار الكآبة. وقلت: فليسجدوا ما شاؤوا، لهم  
التسجيل. وتنفس نحن كما نشاء ونقول ما نشاء، لقد دحج  
السجن ألسنا سادي بالحرية ومرض القيود فهل يصح على أنفسنا  
القيود داخل السجن! هل يخفق أصعب بأعضائنا! ثم ماذا سيحدث  
لنا أكثر مما نحن فيه! لا ينقص إلا الموت!

وقالت لطيفة: صحيح لا يفصا إلا الموت ومدا بعد  
السجن؟

وصحكت عواطف على الأقل قبل أن نموت يسمعون آراءنا  
نحتمت واحدة من المنقبات: والله العظيم سوف أقول كل ما  
عندي وليسمع الطاعون!

وردت واحدة. يسقط قرار التحفظ! وقانون العيب! وأحلاق  
لقرية! وتوالت الهتافات.. يسقط قانون الاشياء! ومحكمة  
القيم! يسقط الافتتاح! تسقط معاهدة كامب ديفيد! والتطبيع!  
تسقط الدكتاتورية! يسقط الاستعمار الجديد! تسقط الامبريالية!  
والصهيونية! وصديقي كارتر وريجان وصديقي بيجر! يسقط  
الكذب والزيف!

وردت الجميع الهتاف بصوت واحد.. ثم بدأت الضحكات

ترن في العبير، وعمرت واحدة نعيمها للجدار الجديد وهي تقول  
سجن يا عم سجن!



في الأيام الأولى كانت الأوامر مثبّدة والذعر منتشر خارج  
السجن ودخله. صوت السادات الجمهوري لا يقطع في الراديو،  
وصورته في الصحف وعلى شاشة التلفزيون كل يوم، فاعرفناه  
من آخره، كاشعاً من أسانه كلها، ضاغطاً على فكبه بكل قوته،  
متوّحاً بقبضة يده في الهواء

لن أرحم سوف أسحق... لن أرحم.

من حوله رجالات الدولة، الجيش والبوليس والمباحث  
والمحاضرات والصحافة والإعلام، مجلس الشعب والشورى،  
جهاز المدعي الاشتراكي، كبار موظفي الحكومة والوزارات  
ولقطاع الحاصل وشركات الائتلاف والتوك الأجيبي ومشاريع  
الثورة الحضرية والأمر العدائي والرحاء وأقطاب الأمن والسلام.

من شدة الذعر أصبح الناس يخافون السير في الشوارع وكل  
من له قريب أو قريبة في السجن بات قلقاً ينتظر من يذق بابه  
ليأخذه إلى السجن وأصبح كل من يرفع سقاعة التليمون يظن أن  
صوته يذهب مباشرة إلى المباحث وكل إنسان ينام في غرفة نومه  
يشلّت ويظن إلى الجدران منصّوراً أنها مدينة بأجهزة التسجيل  
والعدسات الإلكترونية.

كان المعروف ألا يعرف شيئاً عما يحدث خارج السجن، أو

دخل سجن أن يظل داخل المعتبر وراء السنين الحديدية لا  
تصل إليها الصحف ولا راديو ولا رسائل ولا زيارات أهل، ولا  
أعنة من البيوت، ولا اتصال ولا كلام من خلال القصاص، مع  
أي واحدة من المسجونات السائرات في العناء.

لم يكن يدخل عبداً إلا الشاويشة والصابطة ومسؤول السجن  
والمسؤولون الآخرون القادمون من وزارة الداخلية أو المباحث.

في كل يوم كما يرى هؤلاء المسؤولين ذوي الملابس البوليسية  
أو ذوي المعاطات السوداء الذين يعدون إلى عسرها في زيارات  
متكررة مفاجئة، يماجتون بها إدارة السجن بمثل ما يماجتوا.

ملاحظهم متشابهة، وعصلات وجوههم مشدودة كأنما  
بالأسلاك، ومشيهم وحركاتهم، والعصا ذات البور المذهب في  
ليد اليسرى، وفي اليد اليمنى سبحة حباتها صفراء صميرة،  
يحركونها دون توقف والأظافر مقصوصة بعناية شديدة من  
الجوانب ولها بوز مدب يتهي ربيعاً دقيقاً كالإبرة.

وجوههم حلقة ورؤوسهم أيضاً حلقة بشكل واحد، كأنما  
يدهبون إلى حلاق واحد، ورائحتهم واحدة، ذلك السع من ماء  
الكولونيا الذي يسكه الرجل على وجهه بعد الحلاقة.

الرائحة كانت تفوح في العنبر وتبدو لنا عريضة شدة. تمنح لهم  
لشاويشة ياب الحوش الصغير ثم باب العنبر ويتشرون أماناً  
كالجراد الناعم الحالي من الأجنحة، وقد حباً أجنحته في طيات  
بطه الكبير، البارز فوق حزام البظلون.

يتقدمهم كبيرهم أو رئيسهم، بكامل هيئته البوليسية، المحوم  
تلمع على صدره وكفيه، وانعصا دات النور يحركها في الهواء،  
وعصلات عنقه وظهره مشدودة إلى الوراء، مائنه إلى جواره  
بالملايس ابوليسية أيضاً. مجومه على كفيه أقل. وإلى حوار  
الثائب مساعده بملايس البوليسية أيضاً. لكن الحجم أقل فأقل.  
مسؤول المباحث بالملايس غير الرسمية، والوجه النكري خلف  
البضارة السوداء أصغر حجماً، وارتعاعه بظه فوق حرام السطلون  
أقل.

في آخر لصف كان طيب السج، بدون معطف أبيض،  
يرتدي أيضاً الملايس البوليسية، يسرع الخطى ليقترّب مآده من مم  
الذي أمامه في الصف ومن وراء الطيب تقف الصابطة، متصّة  
إلى حوار مسؤول السج، تشبه لكنها بدون ملايس رسمية تشدّ  
عصلات وجهها وشفاتها مضمومتان بقوة وقراعاها حول صدرها  
مضمومتان وساقاها السمتان مضمومتان بثلة تهتران فوق كعبين  
عالين رقيقين من الألومنيوم. والشاوشة إلى جوارها تحاول هي  
لأخرى أن تشدّ عصلات ظهرها المحي داخل معطفها الرمادي،  
والشريط الأسود البهت فوق كتفها، ويذاها المعروفتان  
السمراوان مضمومتان فوق صدرها، وقدمها المشفقتان داخل  
الششب البلاستيك.

كما يجلس بعضها على الأرض وبعضها على الأسرة،  
شاحصات بعيوب المكنوكة المكشوفة أو المحتبة وراء الحجاب  
أو المظلة من خلال ثقب الفاف، تتابع حركة ذلك الطابور

الطويل من الهيئة العليا لإدارة الدولة البوليسية.

وهو رئيسهم رأسه وهو يهزّ عصاه وارتفع كتفاء إلى أعلى  
ومحصن الجدران بعينه ثم دار بهما على الوجوه أمامه، وقال:

- أوجو أن تكونوا مرتاحين هنا..

بادلت الرميلاط الطرات الساحرة وقالت واحدة بسخرية:

مرتاحين جداً.. بوجودكم!

انطلقت ضحكة من تحت نقاب أسود تجاهل الرئيس  
الضحكة وقال: نحن نحاول أن نلبي طلباتكم في حدود السلطة  
المباحة لنا.. وفي حدود التعليمات التي وصلت حتى الآن.  
أليس كذلك يا أستاذ عبد الرحمن؟!

ونظر إلى أحد المسؤولين في إدارة السج...

وقال المسؤول بسرعة: أبوه يا غنم. ثم ساء الجدار حتى  
السقف ليجمع عنهن أصوات الأمهات والأطفال.. وتم تركيب  
دش في أحد المراحيض.. وأحطرت إدارة الحشرات بورارة  
الصحة لإرسال حملة لإبادة الحشرات من العنبر.. وحصنا  
لهن نوتجية من عبر الدعارة لتطيف العبر، وتم صرف الحبر  
المنكي لهن، ونحى لا تأخر يا سعادة اليه عن ثلية طلبتهن.

وبهتت واحدة من الفتيات أنا أريد ورقة وقمماً لأكتب رسالة  
لأمي... و... وقاطعها قائلاً: إلا الورق والقلم... ممنوع  
معاً ياناً! إلا الورقة والقلم!! الطسجة أهون من الورقة والقلم!

رئت المعمدة بين الطسجة والورقة والقلم في أفني غربية،  
كماره في مثليّة هرلة. طنت أني جالسة في مسرح. لم أنصو  
أ الورقة والقلم يمكن أن يكونا أخطر من الطسجة في عالم  
الواقع والحقيقة.

لكر يدو أن الأمر كان كذلك بل أكثر من ذلك رأيت  
سجيات يفتش جسدياً تمد الصابطة أو الشاويشة بندها داخل  
جسد المرأة هذا ما عثرت على قصاصة ورق انقلب السجج رأساً  
على عقب.

أخذ يتمشى في العبر ومن حلقه الطابور. ألقى نظرة على  
المراحيض... ثم استدار نحوها وقال أتم في نعمة ها .  
عندكم دورة مياه... ونحن نراعي دائماً راحة الساء. لا  
يمكن أن تعامل المرأة كالرجل...

رمقني بنظرة وهو يقول. أليس كذلك يا دكتورة نوا؟ أم أنك  
تريدين المساواة بالرجال المتحفظ عليهم في طرة!

وقلت: لا بد أن أرى أولاً كيف يعيش المتحفظ عليهم في  
طرة ثم أصدر حكمي!

وقال: ها جة بالنسبة للسجون الأخرى.

وقالت عواطف ولماذا لا تأتي وتسكن في الجة!

تقلصت ملامحه

ثم قال: هل هاك طلبات أخرى؟

وقلت واحدة من الفسات «يريد ملابس من بيوتنا أن جئت  
بهذا لثوب الوحيد الذي ارتديه ليل نهار، وأغسله وأجلس إلى  
جواره حتى يجف ثم أرتديه».

أحبت الصقات عيونهن بأيديهن حجلاً خطر في مال  
بعضهن أن هذا الصف من الرجال تحيدها جالسة عارية بدون  
ملابس تنتظر أن يجف ثوبها. وأحقرت الفتاة في حجّل أيضاً

وقلت هذا أمر لا يحسب ولكنه يحلل رجال السليس الذين  
كذبوا علينا ولم يصرحوا بأنهم يسوقوننا إلى السجن أما أيضاً  
أغسل ثوبي الوحيد وأنتظره حتى يجف.

وهز الرئيس رأسه وقال هذا أمر علاجه سهل... أليس  
كذلك يا شفيق بيه؟ ونظر إلى مسؤول المباحث. وهز مسؤول  
المباحث رأسه فاهتزت النظارة السوداء فوق عييه.

وقال. طمأ يا صلاح بيه هذا موضوع بسيط جداً وسوف تصل  
إليه الملابس خلال أيام.

واستطت أسارير صلاح بيه فجأة وكاد ينسم وهو يقول حال  
حال... إذن لا توجد مشكلة!

وانتقلت الانتسامة كأنها بالعدوى السريعة من فوق شعني  
صلاح بيه إلى شفتي نائبه ثم مساعده ثم الآخرين واحداً وراء  
الأخر حتى الضابطة والشاويشة. الطبيب كان آخر من انتسم  
تردد لحظة في أن يفتح شفتيه المرمومتين. ربما أراد أن تكون  
شعنا مستقلتين تماماً عن شعني الرئيس ولكن يبدو أنه أعاد

التفكير ويدكر أنه موقوف في وزارة الداخلية شأنه شأن الصابطة  
فامرجت شفتاه باسماء، ولم يكتف بالابتسامة بل ألقى رأسه إلى  
الوراء وصحك بصوت عال مؤكداً وجوده ومحققاً ذاته المستقلة  
عن الصابطة أو الشاويشة

وقالت واحدة من المقبات بصوت حامت لا يكاد يسمع  
وكيف سحاصل على الملابس من بيوتنا هل سيسمح لأهلنا  
بزيارتنا وإحضار الملابس معهم.

وردة مسؤول المباحث بسرعة لا. الريارات مصوعة. كل  
واحدة صكر تحتاج إلى ملابس نكتب طلباً بالملايس التي تريدها  
وتسئم الطلب لصابط المباحث المسؤول.

وهنف صلاح يبه: عال... عال... إذن لا توجد مشكلة.

وانتجه نحو الباب ليخرج من العبر ومن خلفه الطابور الطويل،  
لكي ناديت عليه قائلة: يا أستاذ صلاح...

استدار نحوي وهيناه تنكران معصب معاجيء ربما لأسبي  
ناديته باسمه أو بلقب «أستاذ» وليس «ييه»...

قلت: توجد مشكلة يا أستاذ صلاح.

تعكرت جميع العيون وتقلصت الوجوه...

وقلت المشكلة أنا لا أعرف كيف سكتب هذه الطلبات دون  
أن يكون معاً قلم وورقة.

تراحت العصلات وهز الرئيس رأسه موافقاً وقال: معك

حق... ثم نظر إلى مساعده وظهر مساعده إلى مسؤول  
المباحث، ونظر مسؤول المباحث إلى صابط المباحث الذي  
قال هذه ليست مشكلة، سوف تحضر لكم الصابطة قلماً وورقة  
لكثانة هذه الطلبات ورمق الصابطة من تحت النظارة السوداء  
وهو يردد: لكثانة هذه الطلبات فقط كل واحدة تأخذ ورقة واحدة  
وتكتبها أمامك ثم تأخدي منها القدم والطلب على الفور

وهضت الصابطة: حاضر يا يبه

وهضت واحدة من المقبات وقالت وأنا أريد أن أكتب  
رسالة لأمي، فقصوا علي في الشارع، وهي في البيت لا تعرف  
أين أنا لا بد أنها تدور في الشوارع تبحث عني.

وقد صلاح يبه: لا تقلقي. لا بد أنها عرفت الآن.

وقالت الفتاة المنقبة: عرفت ماذا؟

وقال صابط المباحث: عرفت أنك في مكان أمين ولا خوف  
عليك لقد أعين السيد رئيس الجمهورية أن قرر التحفظ لا يعني  
إلا الحفاظ عليك في مكان أمين حتى يبدأ المدعي الاشتراكي  
التحقيقات.

ورثت ضحكة في العبر.

وقالت واحدة من السافرات: ومتى سيداً المدعي الاشتراكي  
التحقيقات؟ ووقع مسؤول المباحث يديه إلى فوق قائلاً: الله  
أعلم... نحن مثلكم لا نعرف شيئاً... وننتظر التعيينات من  
فوق.

وباعت حركة يديه عيان صغيرتان سادجتان تلمعان من حلال  
ثقوب القباب ورفعت عيبيها إلى السقف ثم شهقت بدعشة. من  
فوق؟!

ردّ صلاح يه سرعة وهو يحرك العصا في الهواء

كلنا في انتظار التعليمات من فوق ونعلموا خيراً إن شاء  
الله فأنتم في دولة القانون والمؤسسات ولي تقى في السحر أية  
واحدة تثبت براءتها.

واستدار لينتجه نحو الباب . ولم أشعر إلا وأنا واقفة على  
قدمي، وقد هدأ إلى ذاكرتي فحاة كل ما حدث . . كأنما كنت مائتة  
وصحوت . . الدقات العيمة على الباب . . صوت الباب يكرر  
كالانفجار . . البنادق المشهورة في وجهي . . صوت الرجل  
المجوز . . الطريق الطويل المظلم . . رحلة الساعات المطلقة  
إلى المجهول . . السلسلة - المفاتيح - الجدران - الفصيان -  
الحشرات . . الأرق . . ابني وايتي وروحي يدورون في الشوارع  
يبحثون عني . . الأيام والليالي والعمر الذي يضيع في الظلام . .  
وبعد كل ذلك يأتي هؤلاء الرجال المعطرون بعد أن ناموا الليل كله  
وعبّروا ملابسهم واستحموا بالصابون وأكلوا وشربوا . . جازوا  
يستعرضون علينا ملابسهم البوليسية ومجوهمم اللامعة، ونحن  
جلاسات على الأرض، وجوه شاحبة مرهقة - عيون قلقة مؤرقة -  
متربة - أقدام معفّرة اسودت كعويها من السير فوق تراب الحوش ثم  
الحوض في مياه المجاري بالمرحاض . . ويقولون إننا في الجنة  
وفي مكان أمين، ومن تثبت براءتها سوف يخرج!!

وهبت بصوت عالٍ: يا أستاذ صلاح!

واستدار نحوي . واستدار معه كل الطائور رأيت عيونهم  
مُسّعة تحمق فيّ، فأحدثت أحملق فيهم، وأنا أحسن أن صلري  
يتمتع بالعصب، لكي تدلّجرت أن هؤلاء ينظرون لأوامر من  
فوق . . . . . ينهم بمذون الأوامر فحسب . . . . . تحكمت في غصبي  
وقدت بصوت بارد لكنه قاطع كحد السكين:

إن العقل والمطق يا أستاذ صلاح لا يمكن أن يفهم ما قنته  
لأن عن هذه البرينة التي ستخرج من السجن بعد أن تثبت  
براءتها . . . . . ألا ترى أن هذه العبارة ضد القانون! إذا خرجت هذه  
البرينة من السجن بعد شهر أو سنة فمن يا ترى هذا الذي  
سيؤمّنها عن هذه الأيام والليالي التي عاشتها ها؟! وكيف يمكن  
أن تقول لنا هذه العبارة وتخرج هكذا باسم مستريح الصمير . . .  
وتقول عدل حال . . . لا توجد مشاكل . . أول مشكلة يا أستاذ  
صلاح أن البرينة كان يجب أصلاً ألا تكون ها . . ثم ها نحن  
ها منذ أيام وأسابيع ولم يدا أحد معنا التحقيق!! ولا نعرف أي  
واحدة منا ما هي التهمة الموجهة ضدها! انتحموا بيوتنا بالقرّة  
المسلّحة وبدون أمر من النيابة وحتى اليوم لا يعرف أهلنا هنا  
شيئاً، ولا نعرف عنهم شيئاً. ربنا الأمهات اللاتي تركن أطفالهن  
في سن الرضاعة، والطالعات اللاتي حرمن الدراسة، والعاملات  
اللاتي انقطعن عن العمل والوظيفة، والكاتبات اللاتي توقفن عن  
كتابة، ومعامل في الأسابيع الأخيرة بدون رعاية طبيّة،  
ولرميلات اللاتي انتقلت إليهن عدوى مرض الجرب، وكلنا

مهذّدت بالأمراض المنتشرة من حولنا، والتي ينقلها الذباب والحشرات والهواء المحمّل بالذحان والتراب وميكروبات البسوس هل يمكن أن تسمي هذا بالمكان الآمن؟ . . . وتقول إن في دولة القانون؟ أين هو القانون ولماذا لم يبدأ التحقيق معنا حتى اليوم؟! وكيف نجس بدون تحقيق؟!

كنت واقفة مشدودة العضلات عياني ثابتان على وجه رئيس الطابور. وظهري ناحيه الرميّلات . . . ورأيت الوجوه أمامي كأنها تنقلص، والعيون تتعكّر، والجو يتكهرب. لكن الطابور واقف صامت لا يتحرّك. كل واحد ينظر إلى الآخر بطرف عين، والعيون كلها ترمق صلاح بيه لثري ماذا سيفعل لتعمل مثله. وصلاح بيه واقف لا يتحرّك. وجهه ناحيتي لكن عيبيه مرفوعتان إلى أعلى كأنما في انتظار تعليمات نهبط من فوق ونقول له بماذا يرد عليّ.

وأحسّت حركة خلفي. لمحت بطرف عيني الرميّلات وقد وقفن جميعاً، مشدودات الرؤوس والظهور الوجوه المكشوفة تَمّ هن العضب والوجوه المحتمية تحت القاب انتصبت عظامها في تحد ولمعت العيون من خلال الثقوب ناهماً للانقضاء.

طلّعت عيب صلاح بيه مرفوعتين وهو صامت، ثم هبطت عياه بحركة تسم عن خيبة الأمل. ربما لم نهبط إليه أية تعليمات، وأصبح عليه أن يتصرّف وحده. . . . أو لعلّ أفكاراً كثيرة متصارمة دارت في رأسه ولم يعرف أيّ عصب أم لا يعصب إن أمور السيادة على كفت عفريت لا أحد يعرف ما الذي يمكن أن

يحدث عدّاً أو بعد ساعة واحدة لم تعد هناك صمات لبقاء أي واحد في معنّه أي حاكم في أكبر دولة يمكن أن يحتفي بطقه رصاص واحدة أي حكومة ممكن أن تطير في عمضة عين بانقلاب في الجيش أو ثورة بين الشعب وفي يوم وليلة يصح من في الحكم في السجن، ومن في السجن في الحكم، وسحاح الباقي على حال. وأطرق برأسه كأنه يفكر.

وقالت لطيفة فمصعب شديد: أين هو القانون وأين دولة القانون وبحر ها في السجن بدون جريمة وبدون تحقيق! كيف يداو ويحس قبل أن نحاكم؟! هذا ظلم. . . وانتهاك لحقوق الإنسان!

وقالت عواطف «ثائرة»: المبروض أن نحاكم أولاً بحسب القانون لا أن نجس ثم نحاكم. . . هنا هو الدستور. . .

وقالت واحدة من المقيّبات: أن لا أعرف لماذا أنا هنا! كنت داهية لأزور خالتي وقبصوا عليّ في الشارع؟

وقالت أمية: إذا كنا متهمات فلماذا لا نحققوا معنا. . . لماذا يتأخر التحقيق. . . إن ساعة واحدة في السجن بدون جريمة تساوي عشر سنين!

طلّ صامتاً يستمع ولا أحد يعرف ما الذي سيفعله.

ثم هزّ رأسه وانتمس «بنسامة مفتحة وقال بصوت هادئ تماماً:

لست أنا الذي وصعتكم في السجن أنا لست إلا معذراً



للأوامر . وحتى الآن لم تصل إلي أي أوامر بشأن التحقيقات،  
ولا رلت في انتظار التعليمات من فوق . . .

العيال الساجدان الريشان المطلتان من ثقي القاب، عينا  
طملة في السادسة عشرة لا تعرف شيئاً في الحياة . نبعثا  
حركة يديه وهو يرفعهما إلى أعلى . وهتعت بصوت طفولي:  
من فوق؟ من أين؟

وحرك مسؤول المباحث رأسه إلى أعلى قائلاً: من عدونا!

ومحاة رأيا سورة تنفض راحة يدها إلى أعلى . استعمر الله  
العظيم الله جلّ جلاله لا يصدر تعليمات بالحيس في  
السجون . إنه الطاعوت! أحده الله . . . ردت المقبات في نفس  
واحد: آمين!

وانفجرت شفتا الشاويشة دون أد تلوي وقالت هي الأخرى:  
آمين!

رفعها صلاح بيه بنظرة غاصبة وقال بلهجة أمرة: اسكتي  
أنت . لا تفتحي فمك!

وقالت الشاويشة بصوت خافت أنا لم أقل شيئاً . . أنا قلت  
آمين .

وانفجر عاصباً يصيح . قلت اسكتي . . لا تتكلمي وأنا  
موجود . . .

صت على رأسها كل عصيه المكتوم، فهي مجرد شاويشة، مي

أسفل السّم الوظيفي ويمكن له أن يمس عن عصيه فيها دود أن  
ترد . . . فعلاً انكشت الشاويشة والتصفت بالجدة .

ورفع هو رأسه مسسط الأساير وكأما استعداد سبطه وهيته،  
واستدار وخرج من باب العبر إلى الحوش يرفع قدماً ويرتفع كتفه  
إلى أعلى ويهبط الكتف الآخر ثم يدوس بقدمه على الأرض  
ويرتفع الكتف الهابط، ويهبط الكتف الذي ارتفع . مفاصل جسمه  
وأطرافه كأنها مشدودة بخيوط من أعلى المسرح

ومن حلقه الطاور الطويل، يحاول كل مهم أن يمضي  
مشيته . . وفي نهاية الطاور الشاويشة تحمل في يدها  
لمفاتيح . . خرجت وراءهم بعد أن أعلقت البابين الحديديين .



عادت الصابطة شكرية ومعها الشاويشة تحمل كرسياً خشبياً جلست  
الصابطة على الكرسي، رأيت في يدها بعض الأوراق البيضاء  
وقمماً . عدت الأوراق ورقة ورقة ثم عدنا واحدة واحدة  
وقالت أربع عشرة واحدة وأربع عشرة ورقة . . لكل واحدة  
منكر ورقة واحدة . تكتب الطلب الآن أممي بالملابس التي  
تريدها ثم تسلمني الطلب والقلم .



تعودت أن أكتب، والكتابة تقطع الرمن كحد السيف، والرمن  
في السجن يمتد طويلاً كأنه اللازم لكي لا أكتب إلا في  
الليل .

في النهار الحراسة عليا مشددة محكمة يعلق علينا بابان  
حديديان لا تحرك إلا داخل اعترى، أو ذلك الحوش الترابي  
لصغير أمام العير يخرج إليه من الساعة الثامنة والنصف صباحاً  
حتى الرابعة بعد الظهر تحوطه أربعة أسوار عالية من فوق أسلاك  
شائكة. أنف الحوش حمير مرة في صبح دقائق ثم أقف وراء  
أساب أنظر من خلال الفصيان إلى السجيات وهن يسرن في  
انماء بشعورهن الطويلة المكوشة، وجلابيهن البيضاء الطويلة  
الممرقة، تكشف عن أحرأ من أجاسهن، حاملات جردل الماء  
على رؤوسهن سائرات بحطوات ثقيلة مطيئة كسرت من المفر  
الحريص المساق إلى السلحانة.

واحدة منهن طويلة نحيلة اقتربت نحو قصبان الباب. حدها  
عظامهما بارزة على كل خد دائرة سوداء من الطين. عيناهما  
واسعتان عاثرتان في عظام الرأس كالخندقين العميقين. مقلتان  
سوداوان بارزتان فوق بياض العين. جمرتان مشتعتان بوهج  
أسود.

نار سوداء تطل من الرماد قبل الاحتراق الهائي أو الانطعاء  
لكامل.

من وراء الفصيان حيث أقف بعدت المقلتان لمشتعتان إلى  
هني. كالذهب الحارق أحستهما بين الجسم والعين

أمسكت يديها قصان الباب. أظافرها طويلة مدسة وبين الظفر  
واللحم مساحة من الطين الأسود وشعرها مكوش طويل كمرأة

من أهل الكهف عاشت في مطن الأرض قرونًا واشتعل عقلها  
نار مجونة لم تجد لها معداً إلا الثمين في عظام الرأس.

شهقت بصوت كالرفير الطويل رعب هاتي لها  
رعب...

نلت حولي مشائلة: لها؟  
أشارت بإصبع مدب إلى صدرها وقالت. هاتي لها  
رغب...

تحاطب معها وكأها شخص آخر انصدم في الشخصية  
يعالج به الإنسان الألم العادح متوهماً أن الألم يحدث  
لشخص آخر وليس له هو.

لم يكن في عتبرتنا حر لا رنا في أول الصباح والشاوشة  
سوية لم تحصر الحز بعد في الأيام الأولى كان لكل واحدة ما  
رغيفان في اليوم قدمنا احتجاجاً لإدارة السجن. أصبح لكل  
واحدة ثلاثة أرعة من الحز الملكي وليس ذلك الحز القديم أو  
الحز الميري.

في اليوم الأول لم أكل منه شيئاً فتحت الرغيف فرأيت الدود  
الأيض والسوس الأسود كزؤوس الدبابيس ملتصقاً بداية الخبز  
وعلى صحن القول أيضاً رأيت عدداً لا نهائياً من تلك الكائنات  
الدقيقة السوداء والبيضاء طافية على السطح.

ظل الصحن بالقول ومن فوقه الرغيف بجوار الجدار طول  
النهار وطول الليل حتى الفجر فتحت عيني على صوت فتاة من

المعصات تنوصاً لصلاة العجر. أسفل الجدار رأيت صحن  
الألوميسيوم من فوقه الرعيف والصراصير والحافس تجري من  
حوله احتجب في شقوق الجدار ما أن أحست بقدم تدب إلى  
جوارها رأيتها وهي تشي فوق الصحن وسمعتها وهي تمضع  
الحبر وانتلعت قليلاً من الماء وهي تهمس لنفسها - الجوع كمر!

أسفل الجدار وفي المكان نفسه عثر على رعيف قديم جاف  
كقرص من الأسمنت. احتطتته من فوق الأرض وعدت أجري  
إلى الحوش لم أرها الجدران في عظم الجمجمة. رأيت  
طهرها المحي وهي تجري وتخرج ومن خلفها الشاويشة بالمصا  
الحرران لا تقتربي من عسر السياسة يا شحاته يا ست الشحاتة  
إلهي وما ياخذك ويرثج السجن منك!

ثم ألفت العصا. بصقت على الأرض ومسحت فيها بكفها.  
دخلت الحوش ومن خلفها مساعدتها «دوية» تحمل فوق صدرها  
صعاً طويلاً من الأربعة ومن فوقه صحن كبير من الألوميسيوم

هتفت «دوية» بصوت مرح وهي تنسم كاشفة عن صفيص من  
الأسان الصغيرة الشديدة البياض في وجه شديد السمرة اثنين  
وأربعين رعيماً بالتمام والكمال كل واحدة ثلاثة أرغفة.  
والصحن ملآن بالقول حتى الحافة. كل هذا لأجل حاطر ماما  
نبوية وخاطركم يا ستات يا سياسيات.

احتطفت من فوق صدرها رعيماً وجريت نحو باب الحوش  
رأيت المقلتين السوداءين تلمعان من بعيد في الماء مخفية وراء

حداد تظن برأسها ثم تحتفي، وعبهاها تلمعان لحصة حاطمة  
وتحتيان، كجيمين بيرقان ثم ينهتان.

وهضت بصوت عال: تعالي... لا تعافي..

سمعت الشاويشة نبوية صوتي وكانت داخل العر مع دوية  
بورعان الأربعة على الزميلات فأقبلت تجري مهرولة وهي تقول

أرحوك يا دكتورة مصوع الكلام مع المسجونات، سيأتي  
صايط المباحث حالاً ويد، رآها تكلمك فمن يعوت اليوم على  
خير.

قلت هذه المرأة تكاد تموت من الجوع انطري إلى عيها  
بار الجوع مشتعلة في عينيها.

وقالت الشاويشة أتصدقين أنها ستأخذ الرعيف لتأكله؟  
إنها تلقيه في القمامة، ثم تجلس وتنش التراب وتأكله إنها امرأة  
مجبونة. انطري إنها تصحك من بعيد وليس في فمها إلا ثلاث  
أسنان!

قرشت الشاويشة الطهانية على أرض الحوش وحلست وفتت  
إلى جوارها أراقب المرأة من خلال قضبان الباب.

رأيتها تجلس على الأرض، تنش التراب بأظفارها الطويلة  
وتغني بصوت عال:

آدي الزمن اللي كان على كيمه

ويليل الصبر في الفسجان وسقاء على كيمه

الممسات تنوفاً لصلاة المحر. أسفل الجدار رأيت صحن  
الألومينيوم من فوقه الرعيف والصراصير والحساس تجري من  
حوله. احنمت في شقوق الجدار ما أن أحست بقدوم تدب إلى  
جوارها. رأيتها وهي تنشي فوق الصحن. وسمعتها وهي تمضج  
الحبر وابتلعت قليلاً من الماء وهي تهمس لنفسها. الجوع كمر!

أسفل الجدار وفي المكان نفسه عثرت على رغيف قديم جاف  
كقرص من الأسمنت. احتطمت من فوق الأرض وعدت أجري  
إلى الحوش. أم أرحم الجمرتان في عظام الجمجمة. رأيت  
ظهرها المحني وهي تجري وتمرح ومن خلفها الشاوشة بالعصا  
لخيران! لا تقتربي من عبر السياسة يا شعاعه يا بنت الشعاعة  
إلهي ريتا ياخذك ويربع السجن منك!

ثم ألقت العصا بصقت على الأرض ومسحت فمها بكفها.  
دخلت الحوش ومن خلفها مسعدتها «دوية» تحمل فوق صدرها  
صعاً طريلاً من الأربعة ومن فوقه صحن كبير من الألومينيوم.

هتعت «دوية» بصوت مرج وهي تتسم كاشفة عن صعبين من  
الأسنان الصغيرة الشديدة البياض في وجه شديد السمرة. ثنين  
وأربعين رعيماً بالتعم والكمال كل واحدة ثلاثة أربعة.  
والصحن ملآن بالبول حتى الحافة كل هذا لأجل حاطر ماما  
بيوة وحاطركم يا ستاب يا سيابيات

احتطمت من فوق صدرها رعيماً وحريت نحو باب الحوش  
رأيت المقلتين السوداوين تدمعان من بعيد في الماء. محتبة وراء

جدار. تطل برأسها ثم تحتمي، وعيناها تلمعان لحظة خاطفة  
وتحتفیان، كجيمين يرقان ثم يطفئان.

رهعت بصوت عال: تعالي... لا تخافي...

سمعت الشاوشة سوية صوني وكنت داخل العنبر مع دوية  
بورهان الأربعة على الرميالات فأقبلت تجري مهرولة وهي تقول:

أرجوك يا دكتورة مموع الكلام مع المسحوبات، سيأتي  
صابط الساحث حالاً وإذا رآها تكلمك فلن يقوت اليوم على  
حبر.

قلت هذه المرأة تكاد تموت من الجوع. انظري إلى عبيها  
بار الجوع مشتتة في عينيها.

وقلت الشاوشة. أتصدقين أنها ستأخذ الرغيف لتأكله؟  
به تلقيه في القمامة، ثم تجلس وتبش الثراب وتأكله إنها امرأة  
مجونة انظري إنها تضحك من بعيد وليس في فمها إلا ثلاث  
أسنان!

قرشت الشاوشة البطاية على أرض الحوش وجلت وقمت  
إلى جوارها أراقب المرأة من خلال قضبان الباب.

رأيتها تجلس على الأرض، تنثر الثراب بأطرافها الطويلة  
وتعني بصوت عال:

آدي الزمن اللي لوع اللي كان على كيفه

وبليل الصبر في السجن وسقاه على كيفه

وصحكت الشاويشة. إلهي ربما يا حدك يا بت يا صباح. والسي  
أنت مكانك السرايه الصفرا وليس السجن.

تربعت إلى جوار الشاويشة وأسندت ظهري إلى الجدار  
وقلت: ولماذا هي في السجن؟ ما جريمتها؟

وقالت سوية: حريمته تسول نعرح من السجر تسول في  
السبة ريب ثم تدخل السجر تسول وتدور في الفاء طول  
النهار والليل نعرح أو تجس نثر التراب وتعني امرأة محبوه.  
عقلها طق. كانت هنا في عسر المتسولات، قبل أن تأتوا. أخليت  
العمر لكم. المتسولات ليس لهن إلا كشك صغير في الفاء لا  
ينسع لهن. يرقدن في الفاء والواحدة منهن تول على نفسها وهي  
حالسة أو راقدة. عيشتهن تصعب على الكافر. إلا هذه  
المرأة المجبونة. اسمعي ماذا تعني، وصوتها كتيب مثل يعق  
اليوم.

أرهفت السمع لألتقط كلمات الأعبه. صوتها مليء بشجن  
عجيب. صوت محجوج يبدأ عالياً ثم يخف، كحال صوت  
تمرق، ثم يرتفع كوتر مشدود، ويشد عدوية ويرق حتى يقطع  
ولا أسمع إلا حشرة أدمر مشروحة متقطعة

آدى الزمن اللي نوع اللي كان على كفه

ويليل الصبر في المنجان وسقاء على كفه

وآدى يست الحلال في السجن مرميه

وابن الهفيه يتحكم على كفه...

أطلقت الشاويشة صيحة عالية: الله يلحك يا صباح. ابن  
لهفيه يتحكم على كفه! آه لو سمعت ضابط المباحث!

كانت فناء من المسقات قد خرجت من العسر، في يدها  
صحف، وتساءلت وهي تجلس إلى جوار الشاويشة: من هو  
ابن الهفيه؟

وأخفت الشاويشة فيها وهي نصحت وقالت. لا أعلم، إسألني  
لدكتورة. دمعت عيناها من الصحك ومسحت عينيها بكفها  
وهي تقول: اللهم اجعله خيراً يا رب. اللهم احمل كلاما  
حقيقاً على قلوبهم...

وتساءلت الفتاة المنقبة: من هم؟

وواصلت الشاويشة وهي تصحك: أرواح الجان يا استي  
هذا السجن مليء بأرواح الجان!

رفعت العناء القاب عن فمها وبصقت في فتحة العباءة وهي  
تقول: اللهم احمنا شرهم!

وبدأت مدخنة السجن تغلف عليا الدخان الكثيف الأسود.  
ولشاويشة لا تزال تصحك وأعاسها تنقطع بصحك مكثوم  
كلشيح، وتمسح عيناها الدامعتين من فرط الضحك بمندبل أبيص  
أخرجته من جيب معطفها الرمادي. مسحت به جبهتها وأعاسها  
وحديها ثم بسطت المندبل تحت عينيها فإذا به قد اسود

كفت عن الضحك وقالت بأسى. نهارك اسود يا صباح مثل  
وجهك ومثل هذا الهباب الأسود الذي تردس بها المدحة كل

يوم. متى تتوب هني يا رب من هذا السجن!

كانت ذوبة قد خرجت من العير ووقفت إلى حوار الشاوشة  
مقدمها الحافيتين وقامتها الطويلة النحيلة داخل جلاب أبيض  
مفتوح صد الصدر، يكشف عن شق عميق بين يديها البافين  
السمراوين...

وهتفت دوبة رافعة يديها إلى السماء. متى تتوب عليا كذا يا  
رب!

رفعت الفتاة المنقة عيها من فوق المصحف وقالت: سيتوب  
الله عليك حين ترتدين الثياب!

وصحكت دوبة وهي تجلس على الأرض. والله يا رب لو  
خرجت إفراح في الجلسة غداً لأرتدي الثياب وأتوب!

ولكرتها الشاوشة في كتفها. والله لو تات كل بيات الدعارة  
فلن تتوب دوبة... إنها بت حرام وأبوها ابن حرام!

اعترضت دوبة: لا يا ماما نسوية، كله إلا أبويا. أبويا كان  
رجلاً طيباً ابن حلال، لكن ابن الحرام هو زوجي إلهي رينا  
ياخله وبأخله أمثاله.

وأخرجت من حيب جلابها سيحارة. نعثت الدخان من أنفها  
وهي شاحصة بعينها نحو السماء. رأسها مرفوع يكشف عن عنق  
طويل أسمر لمع في الضوء كعنق من الأيوس لتمثال في متحف  
لرأس شاب ونجني من حضور الرق.

مباحة السماء المطلّة من فوق الأسوار تعطيلها سحابة رمادية  
بدون الدخان. يبعد منها شعاع شمس، يجتاز الأسلاك ويهبط  
على السور متعثراً فوق التلوات الحجرية، متعرجاً مع الشقوق،  
يستقر على شكل دائرة من اللود الذهبي إلى جوار قدمي وأنا  
حالسة على الأرض، ولرعيص مدارل في حجري وصاح  
المتسولة لا تزال تنبش الثراب وتقي...

مددت قدمي الشعاع فوق سافي ساحن يحرق كشعاع من  
لهب سحبت قدمي رفعت يدي أمام وجهي وبدأت أحركها  
كمروحة. لكن الهواء لا يتحرك لا يدخل أنفي هواء، وإنما  
درات صغيرة سوداء تحرق غشاء الأنف وتتطاير في الجو كرمال  
في صحراء سوداء أو رذاذ ماء في بحر من القطران.

مسحت وجهي بالمنديل الأبيض فأصبح أسود. الصوت  
المبحوح لارال يرن في أذني. والكلمات كالشهب المذبح  
محمولة فوق الهواء الساكن. تسحرك مع درات الدخان الأسود  
ويدخل أذني كسائل مضغوط من العاز السام

والصبر كله حكم واللي شيت أهو بان

من برة مزوق ومن جوه ملان دحان

واصبر يا عين ده كله شيء بأوان

وسمعت صوتاً غريباً إلى جواربي كمصمصة متات الشعاع في  
مأتم صحم. ورأيت الرميالات المسقيات جالسات على الأرض،  
ههورهن إلى الجدار رؤوسهن منكبة فوق صدورهن، والشعاع

تتحرك تلك المصمصة الغريبة.

ورفعت فتاة رأسها المعطى بالقباب الأسود نحو السماء وقالت كل شيء بأوان، ولن يخرج من هنا إلا حين يأتي الأوان ويؤذن الله.

وهتعت الأحرىات في نفس واحد. كله ياذن الله.

ورن صوت فتحة الفتالة من وراء قصب الباب: افتحي يا سوية.

امراء طويلة ترتدي جلاب المسجوبات الأبيض وعلى رأسها صينية. دخلت إلى الحوش وأغلقت الشاويشة الباب. رفعت الصينية من فوق رأسها ووضعتها على الأرض أمام الشاويشة. حركتها تشبه حركة ابنة عمتي بغية وهي ترفع عن رأسها رلعة الماء وتضعها على الأرض دون أن تسقط منها قطرة ماء. عظامها قوية عضلاتها قوية. رأسها مرفوع في كبرياء. كشفت العطاء عن الصينية صحن كبير مملوء بالملوخية حتى الحافة. لم تسقط منه قطرة واحدة. دجاجة محمرة في صحن آخر. بطاطس محمرة وبادسجان محلل وأرز معلل ورغيمان وكوب شاي مملوء حتى الحافة لم تسقط منه قطرة واحدة. وإريق مليء بالماء وصابونة وفوطنة.

شمزت الشاويشة كمي المعظم وغسلت يديها أمسكت الدجاجة وهي تقول. بسم الله الرحمن الرحيم... تعصلوا معي يا ستات.

ردت الرميلات في نفس واحد نالها والشما يا شاويشة

استعرت الشاويشة في الأكل عن يمينها ترمت فتحة الفتالة نهش لدب عن الطعام بالمعوط. دوية نهضت لتسمح العسر ودورة المياه. الرميلات المنقيات جالسات في أماكنهن على الأرض ظهورهن إلى الجدار عيونهن على المصحف. وشفاهن تتحرك بسرعة ودون صوت.

ولم يتسه إليها أحد وهي تقترب من قصاص الباب. لمحت الحمرثيين المشتعلتين كالجممين يبرقان. مددت لها دراعي بالرعيف من بين القصاص احتطفتها بأصابعها الطويلة ذات الأظافر المدية كمخالب الحدأة فتحت ممها كاشعة عن ثلاثة أسن أمامية صغيرة، كعم طفل لم تكتمل أسنانه بعد عساه تلمعان كعيون الأطفال. أطلقت ضحكة كالثهقة واستدارت تجري وهي تعرج... وتغني.



صوت صباح المتؤلة وهي تعني يذكرك بصوت عمي زيب.

كنت تلميذة في المدرسة الثانوية حين ماتت بالكلويرا سنة ١٩٤٨. قبل أن تموت كنت أسمعها تغني وهي جالسة على الأرض الترابية في حوش النار. ظهرها إلى الجدار وفي حجرها حبلها يربص. بعد أن ماتت رأيت جدتي تجلس مكانها وفي حجرها الطفل تعني له، وتعبه ثدياً ضامراً ليس فيه قطرة لس

الحوش الترابي هنا يذكركي بالحوش في دار جدتي. لهجة

السجيمات الربيعة كساء قريتي كمر طحلة. أقدمهن الحادية  
المشقة أيديهن السمراء المعروفة. ذكريات طفولتي صورة  
وحدة ممثلة في العاصي حتى الحاضر دون رسم أو مواصل  
تنتهي الصورة فجأة كأنما تبتز عند وجه أبي أو ابني أو زوجي.  
ثلاثة وحوه لم تعد تلوح لحبالي حتى وأنا نائمة.

كصورة على الشاشة تقرب من بيتي وتكد تكشف من وجه  
وحد منهم أو حتى ظهره ثم تنقطع فجأة. كأنما تمتد لها يد  
الرفيق بالمفصر. يد حديدية كإرادتي، وقراري القاطع كحد  
السكين. قرار واع أصدره عقلي الظاهر والباطن أن أعيش  
السجن وكأنه حياتي مد ولدت وحتى أموت. لا أمل في بعد  
سوى أن أنتج عبي على هذه الجدران الأربعة فأجدها أقل  
سواداً وشقوقها وثقوبها صاقت والتحت وانبلعت الكائنات  
ذات الأرجل المشرشرة. والثقب المملود في المرحاض لم يعد  
مسدوداً والثقوب في الدش امتحت ونزل منها الماء عريراً،  
والثقب في قهوة المدخنة ضاق واتسد.

في الأيام الأولى لم تكن آمالي في المستقبل تتجاوز جدران  
العنبر. . . والمرحاض. وحين نخرج إلى الحوش الترابي  
الصغير تتسع آمالي لتشمل جدران الحوش. وأطل من بين قضبان  
الباب الحديدية على ماء السج الكبير وأحس بآمالي تتسلل إلى  
أفناء الواسع، وتلك الشجرة الضخمة بمروعها المتشعبة وأوراقها  
الحضراء الساعمة ربما تلامسها أصابعي في الغد.

لم يكن عقلي حين يفكر في المستقبل يتجاوز أسوار الحوش أو

أسوار الماء. وكلما فتحت عيني على يوم جديد ورأيت شيئاً من آمل  
المستقبل تتحقق داخل المرحاض أو العنبر يهرمي التناول والمرح.  
وحين تم تركيب الدش وهبط رداد الماء العرير على جسمي لأول مرة  
مد دحولي السج أحدث أعني وأما أغسل شعري بدح قديم أحبه  
مد الطفولة، ورائحة الصابون في أنفي وطعم الماء في فمي لهما  
عدوية لم أحسها منذ الطفولة، وملحس الماء له لذة عارمة فوق  
جسدي، وكأنني لم أستحم منذ الطفولة، وصوتي أيضاً له عدوية وهو  
يرن في أنفي وكأنني لم أغن منذ كنت طفلة.

سمعت الصوت من خارج الباب المكسور نصف المفتوح  
ورأت الثقبين الصغيرين في النقاب الأسود ارتفعت اليد داخل  
النقار الأسود بسرعة وأحمت الثقبين، واليد الأخرى مدت  
الأذن، وسمعتها تقول: أستعصر الله العظيم من كل دس  
عظيم. . . الفناء حرام!

تسعت عيالي في دهشة حتى جنتي والدة أمي، التي ولدت  
من أم تركية وعاشت في عصر الحريم في بيت جدي، ولم أر  
شعرها طويلاً حياتي، ولم أرها تخرج من البيت إلا محمولة داخل  
نحش، كنت أسمعها تغني، وهي جالسة في الصالة المسبحة على  
الثلاثة الناعمة، قدمها داخل الجورب الصوفي ممدودتان فوق  
لسجادة المعجمي المزرقة ورأسها الملفوف بالطرحة البيضاء  
يهر وهي تعني. وكان جدي الرجل العسكري الصارم وابن الشيخ  
الديني المتشدد يمر عليها وهي حاملة ويسمها تعني دون أن  
يقول لها مرة واحدة إن الفناء حرام.



وبدا لي شكلها من خلال رداد الماء وهي واقفة وراء صلعة  
الساب المكسور، برأسها وجسمها الملعوقين بالسواد ويد سوداء  
على أذننها ويد أخرى على عينيها كتمثال حجري من عصور  
الإنقطاع الأولى والعبودية.



حلم كان يدعي وأنا واقفة من وراء الباب الحديدى، أنظر  
من خلال المصيان السجيات السائرات في الماء الواسع، أن  
أفتح هيبى فأجدني واحدة من أسير في ذلك لماء الممتد حتى  
الشجرة الصخمة بفروعها المتشعبة الكثيرة وأوراقها الخضراء ترق  
وتهتز من بعيد

تسمعي الشاويشة فنصرب صدرها بكفها، السمراء المشقة  
وبقول بعيد الشرعك يا دكتورة هؤلاء كلهم من عابري  
الدعارة والمحدثات والشالات والمتولات وكلهم بنات حرام.  
وأقول لها ضاحكة: ريكهن طلبقات يسرن بحرية في الماء  
ونحن ها سجينات!

ونقول الشاويشة: شدة وتزول.. كلها أسبوعين أو ثلاثة  
وتنتهي فترة التكدير.. ثم ماذا في القضاء؟ لا شيء أكثر من  
هذا الحوش. تراب في تراب.  
وقلب هناك شجرة

كانت فتحة القتالة تهش المساب عن صحون الطعام أمام  
الشاويشة فتهدت وقالت: لك حق يا دكتورة.. هذه الشجرة

أدبت إليها كل يوم وأجلس تحتها وكأني حالسة في الحقل أمام  
دارنا في البلد.

لكرتها الشاويشة في كفها ضاحكة. أصلك فلاحه ست فلاح،  
كسر هي دكتورة، لا تعرف الحقل ولا الدار في بلدكم المقرنة.

ضحكتها تشبه ضحكة جدتي الفلاح أم أبي.

نطرت إليها فتحة بعينيها الصغيرتين الآن فقط رأيتهما. بريق  
يحطط الصر. ونظرة ثابتة قوية. الآن فقط أدرك أنها يمكن أن  
تقتل طست من قتل أنها عاجزة عن قتل بعوضة

ونالت. بلدنا المقرنة يا نبوة؟! يا شاويشة يا هقراة!!

تداركت الشاويشة قائدة كلما فعرايين والملاحين كلهم فقراء  
ونفقر ليس عيأ ما عيب إلا العيب

وقالت فتحة ضاحكة: ما عيب إلا قانون العيب! أليس كذلك  
يا دكتورة؟

قلت صدقت والله يا فتحة!

يسمونها فتحة القتالة. في السجن تتشابه أسماء النساء...  
يعرفون بين الواحدة والأخرى بحريمتها، وتضاف إلى اسمها  
كذلك. يقولون فتحة القتالة، أو فتحة دعارة، أو فتحة  
محللات، أو فتحة الحرامية، أو فتحة سياسية إذا  
كانت السجينة تهتمها سياسية.

فتحة القتالة كانت تدهشي أحياناً بحركاتها المشوقة القوية،

أو صوتها الزائق، أو كلامها الساحر، أو ذلك الريق الذي كان يكسو هيبتها فذكرني بزينب ابنة عمتي الفلاحه.

وقلت لها: لي ابنة عمه تشبهك يا فتية.

.. وضحككت: دكتورة مثلك أم فلاحه مثلي؟

وقلت: هي فلاحه لكن لها عقل دكتورة... كانت معي في المدرسة الابتدائية.

وكانت الأولى على الفصل لكن أبوها زوجها لابن عمها الملاح جدني الفلاحه أم أبي أرادت أن تزوجني ابن عمتي الملاح لو تزوجته لأصحت مثلها تماماً فلاحه اشتعل بالعماس في الحقل.

وسهدت فتحية. ما أحلى الشغل بالعماس في الحقل لا أستطيع أن أعيش بغير فأس العماس هي حياتي منذ خرجت من بطن أمي

وقالت الشاويشة صاحكة: أصلك قتالة بنت قتلة! فتحية هذه التي تتسم أمامك يا دكتورة كالملائكة صربت زوجها على رأسه بالعماس ثم قطعت جسمه قطعاً صغيرة جمعتها في شوال وألقت في البحر ليأكله السمك!

وضحككت فتحية. ولماذا لا يأكله السمك؟ على الأقل تكون له فائدة أحيرة في الدنيا يكفر بها فنه قبل أن يلقى وجهه ربه!

ثم نهضت من جلستها على الأرض رابعة ذيل جلسائها كاشفة عن ساقين عضلاتهما ماهرة قوية، وسارت نحو الباب تدب على

لأرض مقدميها الحافيتين وتشعر أكماس جلسائها عن دراعين دويتين افتحي لي الباب يا نبوية لا أكره في الدنيا قدر القعدة هكذا بدون قائلة!

رمت بعينها الصغيرتين العنيت المنقبات وهن جالسات منتصفات بالجدار، محتويات تحت النقاب والعباءات السوداء، أبيهن داخل القمارات ثابة فوق المصاحف في حجرهن.

شوّحت دراعها وهي تحاطهن. مالك يا باتي ملعونات في لكنم الأسود قل الأوان؟!

ردت عليها واحدة وهي ترمق ذراعها وساقها العريه حرام أن تكشف ذراعيك وساقيك بهذا الشكل! واثبت فتحية تحسن ساقها وقالت: ذراعي وساقاي.. حلوة.. لماذا أعطيها؟! .. افتحي يا نبوية، أريد أن أخرج من هنا. عندي أشغالي كثيرة...

كشمت دوة ذراعها وساقها هي الأخرى وقالت وأنا أيضاً يا ماما فتحية ذراعي وساقاي حلوة...

لكرتها الشاويشة في كتفها وهي تناولها المفتاحين الصخمين: قومي افتحي لأملك فتحية. أنت سوداء مثل الجوارى ولا أعرف كيف تمارسين الدعارة وأنت جلدة على عطمة وليس فيك لحم

نهضت دوة وهي تمط عنقها بكرياء وتتمت الدحان من أعماها قائلة أنا لا أمارس يا ماما سوية. أنا عندي شقة وثلاث

سات . . أنا قوادة على سنّ ورمح وأنت عارفة.

فتحت الباب وحررت فتحة القبالة، أعلقت الباب وراءها ثم عادت لتجلس إلى جوار الشاويشة

لكرتها الشاويشة مرة أخرى: أنا لا أعرف حاجة عنك ولا من أي واحدة معك في عسر الدعارة - حدّ الله بيبي ويكر. أنا لا أعرف إلا السئات المحترمات في هنبر السيامة.

ورمقتا الشاويشة بعبها الصغيرتين واحدة وراء الأخرى كأنما تعذبا . . . وهجاء صاحت يا مصيبي أنت ثلاث عشرة فقط . . أين الرابعة عشرة؟!

وجاء صوت الفتاة الصغيرة من داخل العبر تقول: أنا هنا يا شاويشة . . اكس العبر.

لكرت الشاويشة ذوية في كتفها مرة أخرى وقالت: قومي يا ذوية امسحي العبر والدورة واغسلي الملابس.

ألقت ذوية عقب السبجاة من فمها وأطعانه في التراب بقدمها الحافية . . . ونظرت إلينا وهي تقول: مَنْ عندها ملابس نريد غسلها؟

\*

لم أكن أعطيها ملابس لتغسلها بعد الرياضة الصباحية كنت أغسل ملاسي وأشورها على الحبل في الحوش قبل أن تهرب للشمس من فوق السور - تعودت أن أغسل ملاسي بيدي قبل أن

أشوي الغساله الكهربيه مد عامن وفي السجر أجدل لده عربية في غسل ملاسي وأشورها على الحبل قطعة قطعة تحت الشمس

لم يكن عندي مشاكك، والهواء إذا هبّ يطيرها فتسقط على الأرض التراب. ثم ألتقطها وأغسلها مرة أخرى - وحين تهب المدخة تنساق رقائق الذهب فوقها كاللمطع السوداء، فأعود أغسلها من جديد.

طوال حياتي كنت أكره التكرار وأمه لكن في السجر لم أمل غسل ملاسي مرة بعد مرة، ودراعي حتى الكوع في الماء ورعاوي الصابون تضربان الملابس بشدة، وأعصرها بقوة، ثم أشورها على الحبل أفرداها قطعة قطعة حتى آخر المدى لتجف سرعة، وأجلس أمامها شاحصة إليها، فإذا ما سقطت قطعة حررت فأمسكتها قبل أن تلامس الأرض. فإذا لامست الأرض قبل أن أصل إليها كوّرتها بين يدي، وجرّيت داخل العبر لأغسلها في الجردل ثم أعود لأشورها، وأجلس أراقها بيمينين يقطنين أحركهما من أول الحبل إلى آخره، وألتقط بعيني الهباب الأسود العاتر في الجو قبل أن يهبط فوقها - أرى الدرات الدقيقة تتحرك أمام عدسة عيني، وأشدّ عضلات عيني لأثبت رأسي كأسّي أنظر من خلال ميكروسكوب - أحاول أن أثبت عيني فوق الدوائر السوداء العائمة في الضوء، كدوائر الخلايا تحت عيني في معمل كنية الطب - لكنها ليست إلا لحظات وتتحرك عياني بعيداً عن الملابس المشورة على الحبل لتتعد من خلال قصان الباب إلى الغناء الواسع. امرأة قصيرة سجيعة شعرها قصير أكرت، على

وجهاً أثار جروح قديمة، تشر إلى مصيحتها لكن صوت  
اشاويشة الجاد يرن عالياً. امشي يا حرامية يا بنت الحرامية،  
ممنوع الكلام مع السياسيات.

عينا الشاويشة لا يمكن أن يفوتهما شيء. جالسة في الحوش  
معظم الوقت سافها ممدودتان، نحيلتان مشققتان، نذلكهما  
دوبة بكميها الصعيرتين الداعنتين السمراوس. تمص الشاويشة  
هبيها. من يراها يطر أنها مائمة لكنها ترى كل شيء من تحت  
الجمين نصف المعفين

وسمعتها تقول فجأة ماذا تقولين في الرواية يا دكتورة؟

قلت مدعشة: أية رواية؟

عمزت لي بعينها وقالت: الرواية التي تكنيتها هـ عن  
السن

وصحكت: أنا أكتبها في الساكرة، ليس عدي قلم وورق!

وهنت ذوبة. هو أنت دكتورة في الطب أم في الكتابة؟

وردت الشاويشة هي دكتورة في الطب والكتابة، لكن تهمتها  
الوحيدة هي الكتابة. لا هي في الجماعات الدينية ولا هي في  
الأحزاب الشيوعية ولا هي في أي حزب. يقولون هناك إنك  
كتبتي كلاماً ضد السادات صحيح يا دكتورة؟ وهنت ذوبة  
وعبها السود ون تلعب ضد السادات شخصياً<sup>١٩</sup>

وقمت ليس ضده شخصياً، أنا لا أكتب ضد أي أحد  
شخصياً لي آرنى وأفكر في المعروف أن البلد فيها ديموقراطية  
وكل إنسان من حقه أن يكتب رأيه الحر.

وقالت لشاويشة طبعاً، الناس لازم تكتب رأيها وتقول  
بحسب لكن كل الناس تحاف ونكت. والكتابة يعني لها فائدة يا  
دكتورة؟ ما هي الكتابة كلام على الورق وحلاص ولا يوثق إلا  
دحول سجن. لكن على العموم كل شيء نصيب ولنا نصيب أن  
برك وبري رميلاتك. كلكم ماس محترمون لا يمكن يدخل غير  
سياسة إلا الناس المحترمة سواء في سجن النساء أو سجن  
الرجال. رأيت في عاصر الرجال وراء وأكبر من الوراء ومن  
نساء السياسيات رأيت سنات محترمت حتى اليوم نوروني  
و حدة مهن في كل عيد ومعها هدية لي ولأولادي. العشرة في  
سجن لا يمكن يمسها الإنسان الأصيل. عداير السياسة كلها  
ناس عندها أصل لكن العنابر الأخرى حرامية ومتسولات  
ودعارة وتاجرات مخدرات. وكلهم أولاد حرام إلا  
لقتالات. أحسن ناس القتالات الواحدة مهن تأتي من بيتها إلى  
لسجن على طول لا تعرف اللع والدوران. والقتل غير كل  
لجرائم القتل ليس جريمة لحظة غضب وتقوت. القتالة تقتل  
لأجل أولادها وشرها. لكن السرقة والدعارة والمخدرات يترن  
في الشوارع هـ وهناك ويدخل السجن ويخرج عشرين مرة ولا  
يمكن الواحدة مهن تنوب أو تعرف ريبا. ولا يمكن تعترف أنها  
عمدت حاجة. كل واحدة تدخل السجن تقول أنا لم أصعل أي  
دب...

أتابع كلامها وأنا جالسة بالقرب منها فوق الطاية الرصاصية  
بين أصابعي قطعة مدنية من الحجر أرسم بها على التراب رأس

الشايشة من الجانب... كانت قد أخرجت من جيبها منشفاً من  
العظم مربعاً أبيض ناولته لذوية. فكتبت المنديل الأبيض حول  
رأسها، وراحت دوة تمشط لها شعرها القصير الأكرت، وهي  
تواصل كلامها:

ورداً هي لم تعمل أي ذنب لماذا يمسكها البوليس هي بالذات  
من دون خلق الله لازم عملت حاجة لكن فيه ناس تدخل  
السجن وهي مطلومة. ويا ما في السجن مظالم. الناس الملاية  
يدخلون السجن، لأنهم علاة. الواحدة فيهم بريئة وجاهلة ولا  
تعرف حاجة لكن البريئة الجاهلة هي التي تدخل السجن. البريئة  
يحكمون عليها. لكن الواعية لا يمكن تقع، حتى في السياسة.  
واحدة دخلت عندي هنا في غير السياسة من ثلاث سنيين بريئة  
ولا تعرف حاجة في السياسة مجرد خطأ في الاسم حبسوا  
البريئة، والناية الواعية هربت تعرفي أحدوا كم شهر ليصححوا  
الخطأ ونخرج إفراح. ثلاثة شهور والله... وواحدة ثابته ليس لها  
دخل بالسياسة. زوجها رجل سياسي مسكوه وحسوه وحبسوا  
معه رسالة من زوجته كتبت فيها. أنا معك يا حبيبي حتى آخر  
العمر. مسكوه وحسوها. وفي غير القتالات يا ما مظالم.  
لرجل يقتل ويهرب وتدخل أمه السجن أو زوجته أو أخته. الأم  
تعدى ابها وتقول أنا التي قتلت والزوجة تعدى زوجها الرجل  
يهرب من الحبس يمسكوا أمه وزوجته الرجل يشعل زوجته في  
الدعارة أو في المحلات، وهي التي تدخل السجن النساء  
علاية يا دكتورة. يدخلوا السجن من أجل غيرهم. حتى

صباح الشحانة، تدخل السجن لأن صيف كبير للسيدات وصل  
مصر يجري البوليس يلماها هي وأمثالها من الشوارع يكسو  
لشوارع من الريلة ومن المتسولين لأجل خاطر الصيف الكبير  
يقول إن بلدنا نظيفة تدخل صباح السجن أسبوعين وتحرج. ثم  
يدخل وتحرج. حالتها تصعب على الكادر. وغيرها كثير. حتى  
ها في غير السياسة. الواحدة فيهم تدخل وتخرج ويمسكوها كل  
ما يحصل في البلد حاجة. حتى البنت البريئة التي دخلت خطأ  
في الاسم من يوم ما دخلت السجن كتوا اسمها في القوائم  
خطأ وكل ما يحصل إصراب أو مظاهرة يمسكوها مع الشيوعية  
يمسكوها ومع الجماعات الإسلامية يمسكوها. وهي لا شيوعية  
ولا مسلمة أبوها نصراني وأما مسلمة لكن حظها سيء والعياد  
بالله يعني كان لازم يكون اسمها واد إبراهيم فوري يسمع  
يكون اسم واحدة نصرانية أو مسلمة أو شيوعية أو حتى يهودية  
لكن حظها سيء. المسألة كلها حظ ولا يمكن واحدة لها حظ  
تدخل السجن أو لها ظهروا أو لها رجل يحميها أو لها أطياف  
وملوس ولا حق ولا عدل ولا محكمة ولا قاضي الملوس هي  
كل حاجة. وتطلع أكبرها واحدة في الدعارة أو المحدرات براءة  
على طول ولو دخلت السجن تدخل فترة قصيرة وتعيش في  
السجن ملكة..

كانت دوة تحرك المشط العظيم داخل شعر الشايشة الحسن  
تحدث به جعدة رأسها ثم تحرجه، وتلتفت من بين أسنانه لدقيقة  
قلبه سوداء تصعبها على سطح المشط الأبيض ثم تصعب عينيها

نظم بها، محدثة طرقة جميلة، وبقعة صغيرة من الدم  
الأحمر فوق السطح الأبيض.

بين أصابعي لاثرت قطعة الحجر المدببة، أكتب بها على  
التراب حروفاً وكلمات بلا معنى حطبي يتعرج كحطبي وأنا  
طفلة

الشائشة رقدت على جنبها، ودوية إلى جوار رأسها تمشط  
شعرها وتغلبها تبسم في سعادة كلما عثرت بين أسنان المشط  
على قملة حديدية . تهرش رأسها وتواصل كلامها . آه يا  
دكتورة لو رأيت الحاجة بديعة في غير المحدرات حاجة تشرح  
القلب . تعيش ملكة . عندها في العبر كل شيء حتى انثريون  
لملؤن وتكسب بها في لسجن أصعاف ما تكسبه خارج  
السجن . لكن كله من عند الله المكسب من عند الله والحسرة  
من عند الله . ربما إذا أراد يمدد إنسان أعطاء ما فارون . حكمته !  
إنه لا يعطي إلا من يستحق . والحاجة بديعة تستحق كل خير  
قلبه طيب وكرامة تزكي عن مالها وبصلي وتصوم وتعرف ربا  
وفي الأعياد تدبح الذبائح وتورع على العابر وكل السجن يأكل .  
أنا مسكت عليها في غير المحدرات السمة التي ماتت ، ومن  
يومها وهي ترسل إليّ الصيبة لكن كده من عند الله وكل  
شيء نصيب

وجدتني أكتب على التراب بيود قطعة الحجر خطأ في الاسم  
ثلاثة شهور . . . عينا الشائشة وهي راقدة تتابعان حركة يدي فوق  
التراب هزت رأسها قائلة : لو ظهر صابط المباحث الآن في

بماء وراك من بعيد وأنت تكسب ميطر أو معك ورقه وقدماً  
سرس في ماله ولا في خياله إلا الورقة والقلم يطبسي في المكتب  
ويسألني وأقسم له بالله العظيم أن غير السياسة كله ليس به لا  
ورقه ولا قلم لكنه لا يصدق . دائماً يشك . ومن صباح ربنا يلف  
لسجري ليس له شملة ولا مشملة ولو رأى واحدة عرجاء أو  
حتى عماء نظر ناحية غير السياسة يمسكها ويمسها . أو ينادي  
على الصابطة أو الشائشة لتجلع عنها كل ملابسها ملط ! وبعش  
حسمها . ويا ويلها لو لقوا ورقة سيجارة فوقها كشاة بالقلم  
لرصاص أو قلم الحواجب أي قلم والسلام وأي كلام  
مكتوب . كلمتين مثل كيف الحال أي أي كلام فارغ يا داهية  
دقي هي تروح في داهية والشائشة تروح في داهية لأن  
الشائشة هي المسؤولة والشائشة علانة أغلب من المجونة  
لكن المهم أن ورقة واحدة لا يمكن تكون موجودة ولا يمكن  
كلمة واحدة مكتوبة تخرج من غير السياسة أو تدخل . العناصر  
الأخرى ممكن . إلا غير السياسة . كلمة واحدة مكتوبة في غير  
السياسة أخطر من الطبعة . الكتابة أخطر من القتل يا دكتورة  
القتل عندما هما أبسط حاجة . والقتلات أحسن ناس . وكلهم  
علابة . فتحية القتالة كانت فلاحه عبادة تررع بإيدها وتقنع ،  
وروجها رافد في البيت تنزل من تالطة السلطان يأكل ويتفرع  
ويشرب الجورة في يوم رجعت من الغيط لقيته راقدة فوق بيتها  
عمرها تسع سنين ضربته بالعأس على رأسه وأحدث حكم  
بالسجن المؤبد هي معنا هنا من عشر سنين قلها حنون ورقيق  
مثل السمكة ولا يمكن يصدق أنها تقتل باموسة . لكن حظها

سيء. ربا ورقها برجل ابن كلب. لو أن رب ورقها برجل طيب  
كان رماها في دها وأرضها ويستها في حصنها لكن كل شيء  
نصيب

أصاب دوبة كانت في تلك اللحظة تطرد فملة محتشة بين  
أسان المشط رفعت عينيها السوداءين نحو السماء وقالت  
لو كان ربا ورقها برجل محرم لا يشعلني في الدعارة كان رماها  
في شفتي وبني في حصني ولو كان ربا ورق صبح لشحانة  
برجل محرم كان زماها في بنتها وأولادها في حصنها. ولو كان  
ربا ورق سعاد الحراميه بأب محترم لا يكرهه لسرق كان رماها  
ست محترمة في دارها. كل واحدة دخلت السجس ها وراءها  
رجل ابن كلب أب روح أح عم اس عم. أي رجل لكن  
ربا هو الذي يورق، وكل شيء نصيب.

لكرتها الشاويشة في كتفها قائلة لكن ربا لم يقل لأي واحدة  
سرق أو تشتغل دعارة أو تباع مخدرات. ربا يرزق صحيح لكن  
أعطى الإنسان عقلاً. يعرف الصبح من العبط. أنا ربا رزقي بأب  
فقير لم أدخل مدرسة ولا أعرف أمراً ولا أكتب لكن عدي عقل  
يقول لي هذا حرام وهذا حلال ولأجل هذا أنا طلعت شاويشة  
لمادا لم أطلع حرامية أو دعارة مثلك يا ت يا دوبة الواحدة  
فيكم تعمل العاملة وتقول ربا... ربا ليس له فنبأ

وصعت دوبة المشط على الأرض والقملة لا تزال بين أسنانه  
وشوحت يديها قائلة.

أيوه ربا. كل شيء بإرادة ربا. أراد لي الدعارة... بقيت  
دعارة. لو كان رب أراد لي أكون دكتورة كنت بقست  
دكتورة. نظرت إلي ذوية وقالت: ما وأيك يا دكتورة؟

كنت لا أزال أحرك إصبعي فوق التراب بقطعة الحجر  
لمدسة... ووجدني أرسم مربعين داخل المربع الأول كتبت:  
ربا ليس له دب. داخل المربع الثاني كتبت ربا له فنب.

تأملت الشاويشة بعينيها الصميرتين الحروف على الأرض  
وقالت: ماذا كتبت:

وصحكت وأما أقول كتبت أن السادات هو المسؤول  
الأول...

ضربت الشاويشة على صدرها بيدها. يا مصيتي... لو جاء  
الآن صابط المباحث وقرأ ما كتبت... أروح أنا في داهية مدّت  
يدها لسمراء المعروفة ومسحت الكمات فوق الثراب وهي  
يقول وما فائدة الكتابة يا دكتورة؟... كلام في كلام ولا يبولك  
ولا لسجس، والسادات فوق في السماء. ملك ولا الملك فاروق  
في زمانه! ولو طلب لبن العصفور...

ورفعت عينيها نصف المغمضين نحو السماء في هذه اللحظة  
استمضت العصافير فوق الأسلاك الشائكة وهدرت في الجو  
مدعورة وارتنج الأسوار بصوت كالرعد أو الرلزال ثم حجت  
السماء طائرة هليكوبتر حطفت فوق رؤوسا لحظة حاطقة ثم  
حتمت لم أرَ إلا بعضها الرمادي. لمع في الشمس كالظن

الحامل لحيوان مائي صخم أو حشرة خرافية مجنونة أجنحتها في رأسها تدور.

انصرفت الشاويشة واقفة على قدميها، ودقَّت الأرض بقدم حافيه أدخلتها سرعة في الششب، ثم صرّبت كعبها المشقوق في لكعب الآخر رفعت يدها بأصابع مشدودة إلى جنبها تؤدي استحية العسكرية أو لبوليسية المألوفة مد سلاطين الأتراك والمماليك.

وشهقت: السادات!

عاد يهدوه إلى السماء كما كانت وعادت العصافير ووقفت على الأسلاك الشائكة. وعادت الشاويشة وجلست تربط شعرها بالمسدل وهي لا تزال تلهث السادات خارج من استراحته في القاطر. يا مصبني لو كان سمعي! تبقى رحت في داهية يا نبوة يا بنت زكية!

شاحت ذوبة بيديها وكيف يسمعك السادات وهو فوق في السماء؟!

كانت دوبة هي الأخرى قد انصرفت واقفة حين سمعت هدير الطائفة، وزميلات العنبر أيضاً حرحرن إلى الحوش مسرعات يرفعن عيونهن إلى السماء.

قذفت الشاويشة دوبة بطوية صغيرة وهي تقول:

«اسكتي أنت يا ست يا دوبة أنت لا تعرفين شيئاً أنا شاويشة وأعرف أكثر منك. دة النحلة هنا..»

ودقَّت الشاويشة يدها على الأرض.

«دة السلة ها ممكن تسمع في أي مكان في السماء أو لأرض الدنيا تقدمت وكل شيء ممكن. واحدة دكتورة محترمة مثلك يا دكتورة قالت لزوجها كلمة وهي راقدة في السرير في حجرة النوم. في اليوم الثاني كانت هنا في السحن معي رمان ونحو عيال كما نصحك على أمي إذا قالت «الحيضان لها ودان» لكن عشت يا سوية ورأيت بحيث أن الحيضان لها ودان بحق وحقين»

وتحرّكت عيهاها الصغيرتان بعبر رموش فوق الجدران محصها تمنع عيهاً وتفحص عيهاً. وكانت الزميلات المنقذت قد جلسن في أماكن المعتادة في الحوش. يسدن ظهورهن إلى الجدار. وارتفعت العيون الصغيرة تدور حول الجدران من خلال ثقوب صيفة في مساحات كبيرة من السواد. وهنّفن بصوت واحد: الله فوق الجميع!



سألني الشاويشة وهي راقدة على جنبها. هل رأيت السادات شخصياً؟

قلت: نعم.

قالت: كم مرة؟

قلت: مرتان أو ثلاث لا أتذكر.

قالت: وهل تكلمت معه؟



قلت كانت اجتماعات كبيرة، ولم أتكلم معه، ولكي تكلمت في الاجتماع.

أعصت عيبيها كأنه تنعس وهي تقول أي اجتماع.

ولم تمنع عيبيها. لا بد أنها نامت. وتأملت وجهها الأسمر الطويل.

ثم شذت حبسها فجأة وقالت بدعشة. ماذا قلت لسادات؟ وضحكت وأنا أقول لا شيء. . . نامي يا شاربشة وسأحرص لك الباب.

ابتسمت وأغلقت عيبيها مرة أخرى.

تذكرت ذلك اليوم منذ سبعين بعيدة، قبل عام ١٩٧٠ لأن جمال عبد البصر كان لا يزال حياً. وفي أحد الاجتماعات الكبرى للاتحاد الاشتراكي دعيت للحضور ضمن مئات من أعضاء النقابات المهمة. كنت عضواً في مجلس نقابة الأطباء، وجلست في مقعدي مثل الآخرين أنتظر وصول المسؤولين الكبار في الاتحاد الاشتراكي.

كنا حوالي ثلاثمائة أو أكثر من الأطباء والصحافيين والمحامين والمهندسين وغيرهم من مختلف المهن في مصر جلسوا في مقاعدهم أكثر من ساعتين في انتظار ظهور أحد على المنصة الصخمة في القاعة الرئيسية للاتحاد الاشتراكي.

كان أول اجتماع لي مع هؤلاء الكبار من أعوان عبد الباصر. وفلت لرميلي الجالس إلى جوارى. موعد الاجتماع الساعة

الحادية عشرة، والساعة الآن تجاوزت الواحدة ظهراً، لا بد أن شيئاً ما حطيراً حدث ومنع حضورهم. وجاءني أعرب رد يمكن أن أسمعهم. قال بهدوء كمن تعود على هذا الحال. إنهم يتأخرون دائماً هكذا.

قلت بدعشة. غير معقول! هؤلاء الناس لماذا ينتظرون؟

قال بهدوء: يخافون الانصراف.

وقلت متعجبة: لا أستطيع أن أصدق هذا.

وقطع حديثاً انتفاضة وقوف وتصفيق، ورأيت أبور السادات يدخل (كان نائباً لرئيس الجمهورية) ومن بعده كبار رجال الدولة والاتحاد الاشتراكي. وجلسوا إلى المنصة. وبدأ أبور السادات الاجتماع دون أن يذكر كلمة واحدة لتبرير أو تفسير ذلك التأخير. وأدركت صدق الزميل حين قال لي إنهم يتأخرون دائماً هكذا.

وانتهى السادات من كلامه وبدأ الحوار بينه وبين الحاضرين. تكلم بعض رؤساء النقابات ولم يشر أحدهم إلى موضوع التأخير. تكلم آخرون ولم يذكر أحد شيئاً عن ذلك الموضوع. وأدركت صدق الزميل حين قال إنهم يحامون الانصراف لما يال الكلام.

ورفعت يدي وطلبت الكلمة. وبدأت كلامي كالآتي تكلم السيد أبور السادات عن المعركة. وأن اقتصاديات الحرب تستدعي الإذخار في كل شيء والعمل الجاد في جميع المواقع وزيادة الانتاج في كل المجالات، لكي لاحظت اليوم أن أكثر من ثلاثمائة شخص تعطلوا عن أعمالهم أكثر من ساعتين في

انتظار وصولكم إلى هذه القاعة، ويبدو أن هذه هي العادة الممتعة  
في مثل هذه الاجتماعات لأنكم لم تذكروا شيئاً عن سب هذا  
التأخير، وربي أطلب أن نحس بلغة الاقتصاد والأرقام مقدار ما  
ضاع على الدولة أو الدحل القومي من جراء مثل هذا التأخير.

ثم تحدثت عن نقاط أخرى تتعلق بزيغ الشعارات وغياب  
الديموقراطية. كنت أنكمم بهدوء، وأدلل على ملاحظاتي بالأمثلة  
الواقعية التي يعيشها. لا أذكر تماماً ماذا قال السادات. لكنه لم  
يرد على النقاط التي ذكرتها. تجاهل أيضاً موضوع التأخير وقال  
كلاماً عاماً معناه أسي أطلب الكمال أو المثالية. لكن المثالية أو  
الكمال ليست إلا صفات الله سبحانه وتعالى.

ودعشت، ودهش جميع الحاضرين لأنني لم أكن أطلب  
الكمال. ولكي كنت أطلب الحد الأدنى لاحترام الإنسان  
المصري أو الجماهير المصرية التي تكتس في قاعات  
الاجتماعات وتعمل عن الانتاج.

قبل أن ينتهي الاجتماع أحسست بيد توصلع على كتفي،  
ومسؤول كبير من وزارة الداخلية يدعوني لمقابلة مسؤول أكبر في  
الداخلية. وقال لي المسؤول نحن في معركة ولا نريد أي نقد  
الآن.

وقدت لكن المعركة تتطلب النقد الموضوعي من أجل عدم  
تكرار الهرطقة واندح اسمي في القائمة المعضوب عليها



تحت الشاوشة حينها وقالت فحاة:  
وروحة السادات؟ يقولون ها هي السجس بها هي التي  
حوصت زوجها خذك.

قلت: ولماذا تحرصه خذني يا شاوشة؟

وابتسمت الشاوشة في خبث وقالت: ألا تعرفين؟

قلت لا أعرف شيئاً، وكيف أعرف وأنا داخل السجن؟.

دعكت الشاوشة عيها بكها السراء المعروقة.

وقلت: يقولون إنها تعار من أية امرأة أجمل منها، أو أدكى  
منها هي سيدة مصر الأولى، ولا تريد أية امرأة أخرى تتفوق  
عنيها.

قلت: من قال هذا؟

ومفتي بعينيها الصيقتين وابتسمت بمكر وقالت:

يا دكتورة... ألا تعرفين كل هذا؟

قلت: لا أعرف.

قالت: ويقولون إنك كتبت شيئاً ضدّها.

قلت لا أذكر أسي كتبت شيئاً ضدّها شخصياً. لكني صد أن  
تكون روجة الحاكم هي السيدة الأولى هذا تقليد أميركي وأنا  
صد التقليد كما أنه يصح وظيفة الزوجة أو روجة الحاكم فوق  
جميع الوظائف الأخرى هناك ساء مصريات لهنّ جهود أكبر من  
روجة الحاكم، ولهنّ منزلة في فلوب وعقول الشعب المصري  
أكثر منها المعروف أن تكرم المرأة بسبب جهودها وليس لأنها  
روجة رجل له نفوذ وسلطة.

وقالت الشاويشة. كل يوم نقرأ في الجرائد عن نشاطها، أنها تبذل جهوداً كبيرة أيضاً.

قلت لم نسمع عن نشاطها، لا بعد أن تولّى زوجها الحكم، ولا أدري هل يستمر نشاطها بعد أن يذهب عن الحكم؟ ثم ما نوع هذا النشاط؟ وهل معلاً يعبر من وضع المرأة أو يحل مشاكلها وخاصة المرأة الفقيرة التي تشتمل في البيت وحارج البيت؟

شوحت الشاويشة يديها السمراوين وقالت:

الاس العقراء مثلنا مطحونون وليس لنا إلا الله. يقولون إنها في الحملات ترثدي جواهر بآلاف الجسيهات، أكثر من جواهر الملكة فريدة في زمانها. والله يا دكتورة نحن شعب غليان، تمؤد على اللذ. وعلى الضرب بالكرباج

تلفتت حولها وأطبقت شفها... ثم همست بصوت خافت:

يا مصيتي لو كانت الحيطان لها ودان بصحيح...

ثم ضحكت وأحكمت المنديل حول رأسها، وهي تقول: وإذا سمعوني ماذا يفعلون لي؟ لا شيء أكثر مما أنا فيه. ثم مصمتت شفتيها: وهل يسخطون الفرد أكثر مما هو قرد؟! حملقت فني بعينها الدابليش وقالت ولكي أخاف عليك أنت

قلت: لا تحافني يا شاويشة عني.

فالت كيف لا أخاف عني؟ سبوا لك أصراراً كثيرة. عرف ذلك من إسة أحتي طالدة في كليّة الطب، قرأت كنتك كلها

وعرفت أنهم رفصوك من عمدك، ومصوك من الشر حتى مجلة «الصحة» قفلوها. وكنت تواظب على قراءة مجلة «الصحة». وكل كلمة تكتسبها في مجلة نقابة الأطباء أو أي جريدة، وتأتعتك بما تطرعت مع العدائين الفلسطينيين في الأردن بعد الهزيمة وفي يقال، وفي الإسماعيلية لا يمكن يعوتها شيء أو كلمة تكتسبها. ولما عرفت أنك في السجن معي ها أرادت أن تأتي معي لترك أمية حياتها أن تراك. وعدتها أنه بمجرد أن تخرجني إخراج إن شاء الله أن أروك أن وهي في بينك ياد الله معي. يا رب مفرجها عث وعن كل رميلانت يا دكتورة

رفعت يديها إلى فوق، ثم أمسكت رأسها وظلّت محمق في الفراغ طويلاً كأنما تصلي في صمت...

ثم بصرت نحوي وقالت: إسة أحتي تقول لي فائماً إنها ستكون دكتورة مثلك... تريد أن تكون مثلك في كل شيء...

وضحكت وقلت: فيما عدا أن تدخل السجن وأخرجت شمتا الشاويشة الجافين عن ابتسامة وقالت. وماله الجن يا دكتورة! السج شرف في هذا الزمن، شرف والله العظيم! وبعمة من عند الله! نعمة وأي نعمة... نشكرك يا رب!

وقبلت كمها ظهراً ويطأ ثم نادى في ذوبة: يا ست يا دونة! أين أنت يا ست!

\*

أحصرت دوبة جردل الماء وصابونة وقطعة حجر مدّت

الشايوشة سادها في الماء بدأت تدعك لها قدمها المشققين  
 ومسودتين بالتراب والصين. رأسها الصغير يهتز شعرها الطويل  
 الأسود. بين شفتيها سيجارة، وأنها من الجانب مرفوع بكبرياء  
 يبعد الدخان من فتحتي الصغيرتين. على طرف الألف هيبت دبة  
 سوداء. لم تكن دابة دائرة سوداء محجم حة العدس برة فوق  
 اسطح، ما لبثت أن انتشرت فوق الحذئين الناريين كطمح جلدي  
 أسود. مسحت وجهها في كم جلدائها الأبيض فأصبح أسود.  
 بصفت السيجارة فوق الأرض وداس عليها بكسها وهي تقول  
 لعة الله على السجس ومذحة السجس التي نصت عيب كل صاح  
 زنتاً وقطراناً

ملأت الشايوشة كفها بالماء ورشتها على وجهها قائلة الا  
 تقولي رمت وقطران. ليس عندنا زمت ولا قطران سجن القناطر  
 الحيرية جئة لو رأيت السجون الأخرى لحمدت الله وقلت يديك  
 وجه وظهر أنت يا مت يا ذوية لا تحمدي الله أبداً لو رأيت  
 مصائب الناس هانت عليك مصيبتك. أسألي أنا. رأيت أشياء  
 يشيب لها الرأس لا تقولي رمت ولا قطران والمدحة لا  
 تشغل إلا نصف النهار والدخان يطير في الجو ولا يقرص ولا  
 يعض ولا يحرق الجلد ولا يوجع القلب. أنا رأيت أشياء توجع  
 القلب: جرد تحرق، هيون تظلم فيها السيجارة، بطون تسع  
 بمنفع لا تقولي رمت ولا قطران ها نعمة والله العظيم نعمة.  
 لكن ماذا نفع في سي آدم، لا يملأ عيه إلا التراب

لوقت الآن معد منتصف الليل، وأنا جالسة أكتب، فوق قعر  
 لصفيحة مد دخلت السجس وأنا أكتب على ورق التواليت  
 وورق السجائر ورق التواليت ليس مصوغاً تشتريه بالبطاقة من  
 الكائنيتين. والسجائر أيضاً.

سم أكن أدحر في السجس خارج السجس كنت أدحر أحياناً  
 لكن هنا قررت عدم التدخين سمعت عن مساحين تضعهم  
 سيجارة. أو نفس واحد في سيجارة. والدخان أيضاً ينفع  
 النفس وأنا أحتاج ما لمس طويل، فالمعركة أمامي لا ترال  
 طويلة

السجائر كانت عملة التداول بدل النقود كل حزمة تؤدي لها  
 مقابل عدد معين من السجائر. نعطي الشايوشة ومساعدة الشايوشة  
 دوة أو أي واحدة أخرى من عنبر الدعارة. يفحصها طبيب  
 السجس، وإذا كانت حالية من الأمراض الشاسلية يوصلونها إلينا  
 بصعة أيام. ثم يعيرونها بواحدة أخرى لا تستمر الواحدة شهر  
 مع فترة طويلة يحشون عليها من أفكارها، أو تعامدا الإنسان  
 معها. فيصبح ولاؤها لنا أكثر من ولائها لهم.

دوة رأيتها مرة شاردة، وفي عيبيها دموع قلت لي: لن آتي  
 في العبد، أريد، أن أنجس عليكم. رفضت. لا أستطيع أن  
 أخونكم وقد أكلت معكم العيش والملح.

عيبيها سوداوان فيهما لمعة ذكاء، وصراحة، واستقامة،  
 وشرف..

ثم قالت: ولكي لا أستطيع أن أعيش بدون السجائر...  
وبرشام. مدد، أعمل يا دكتورة. إدالم أحد هذه المحنرات  
لا أمام طول الليل... لا بد أن تحلّو حتى أنسى وأنام.

عيناها لا تزالان أمامي مليشان بالدموع في مؤخرة رأسي ألم  
حاد كراس مسمار. الألم في ظهري المقوس فوق قعر الصفيحة  
أصامي تؤسسي. القلم متعب في الكتابة. قلم قصير أقصر من  
أصامي. ولورق حفيف شعاف. إن صعطت عليه بالقلم يقطع  
وإذا لم أصعط لا تظهر الحروف. ولصوء من حولي حافت لا  
أكاد أرى. ونحت قدمي وصعت الصحن الألومبيوم لأرفعهما  
عن الرطوبة.

خمسنة سوداء صعدت فوق الصحن لترحب على ساقبي.  
ضربتها بقدمي.

نهضت الرميلاات المسقات ليصلين المعجر. خبأت أوراقتي  
تحت البلاطة في ركن دورة المياه. حينان نظران إليّ من خلال  
ثقبى النفاث «بدورة» و«هوقية» تفولان عها إنها جاسوسة تعمل  
لحساب المباحث. لكن عينيها فيهما استطلاع طفولي بريء  
اسمها اعتدال كالأطفال اقتربت مني وقالت: ماذا تكتبين؟

قلت: قصة..

لمعت عيناها: قصة حب؟!

صحكت وقلت: نعم.

ابتسمت في سعادة أريد أن أقرأها أما مخطوطة لاس

حائتي من ثلاثة شهور ارتديت القاب من شهر واحد، من  
أجنه... هو يقرأ الفرد. ولكي لا أعرف اقراءه. لم أدخل  
مدرسة. أريد أن أتعلم القراءة والكتابة كل السات ها يقرأ إلا  
أما هل يمكن أن أتعلم القراءة؟

قلت: طبعاً... ما زلت صغيرة... كم همرك يا اعتدال؟  
قالت: ستة عشر عاماً.

ثم قالت في حماس في كم يوم أتعلم القراءة والكتابة؟  
قلت: في ستة عشر يوماً... كل ستة بيوم واحد.  
وصحكت. ضحكاتها كالأطفال طويلة متقطعة كالشبح.  
قالت: هل تعلميني؟!

قلت: ليس عدي مانع.

عانقتني وهي تففز بالفرح والفرح كالعدوى. يتقل بسرعة.  
أحسست أسي الأخرى أصبحت مثلها طفلة يملأ قلبي الفرح  
الآلام في ظهري اختفت. أحسن جسمي قوياً نشيهاً. سرت إلى  
الباب دي الفصيان. نسمة المعجر تلامس وجهي منعشة رطبة.  
السما لا تزال سوداء لكن نور الشفق يرحف ببطء...

وفجأة سمعت صوت الكروان

دق قلبي بعنف. قمزت فوق الفصيان. أصعد عليها بقدمي  
الحافيتين وأمد عصي نحو السماء. أدمن رأسي بين القصيبين  
الحليدين.

لا أستطيع أن أراه لكن صوته يهربي كأنه يديدي صوت

عذب حريق يشق السكون الذي المعروف في الظلمة. تعريد  
كصوت الأم كالنداء. كالكاء كالصحكة الطويلة يطلقها  
طفل أو صرخة وحيدة في الليل أو لشيخ الطويل المتعطل

كل فجر أنتظره وأسمعه وكل عروب أيضاً لا يعزّد الكروان  
إلا في السكون والصلام. لا يحلق إلا في هذه اللحظة الساقطة  
بين الليل والنهار. طائر وحيد في الكون..

أرفع رأسي إلى السماء أريد أن أراه. لم أر في حياتي أي  
كروان لكن لسماء محاطة بالأسوار، والكروان يسمعه الإنسان  
في السجن دون أن يراه. يكفيني أن أسمعه دون أن أراه يكفيني  
أن أرى قطرة ضوء من نور الشفق. وقطرة مدى وأن تظلم  
أصابعي فادرة على الإمساك بالقلم. لا يزال صدي ورق أحرك  
القلم فوقه. لا يهم أن أرى الكلمات لا يهم أي شيء سوى أن  
تولد الكلمات فوق الورق. ويولد العجر وتنفتح الظلمة.

ارتديت حذائي الكاوتش لأبدأ التمرينات الصباحية. حركة  
الجسم تعني الحياة. قوة الجسم تعني قوة العقل وقوة النفس  
وفي السجن يحتاج الإنسان لمجموع قواه.

وسمعت من خلفي صوت أقدام حامية تقفز فوق الأرض  
كانت هي عندل. أنهت صلاة الفجر. وحلعت البقاع  
والبهاء. وبدأت تحرك جسمها بالتمرينات الرياضية

تصبّب العرق غزيراً يغسل الأرق ويعسل التعب ذات كل  
أوجاع الظهر والعتق وصعنت جسمي تحت رداد الدش الغزير

\*

الآن فقط أشعر بانتعاش عجيب. كأنني ولدت الآن وفي هذه  
اللحظة شهيتي متعشة لليوم الجديد، وجوع شديد وعلماً عجولاً  
لكوب من الشاي.

ذلك الصباح جاءت فتحة القنطرة وفي يدها كأس ناوته لي  
وهي تقول اررعني الحوش يا دكتورة أنا ررعت الحوش  
عندما في عسر القناتلات وأصبح مثل الحجة... ررعت مدوخية  
وجرجير وفجل وبقدونس وفول وورد وزهور... حببت  
الأرض بكعبها القوي... ثم قالت:

الأرض عندكم كلها حجر، اصبرني الحجر بيوز العاس  
واخرجيه من الأرض، أرض القناطر حصّة، اصبرني عويط، حتى  
تصلي إلى الأرض السوداء الحلوة.

لمس العاس في يدي له لذة وحركة دراهي صاعدة هابطة.  
أصرب الأرض بكل قوتي. العرق يتصبّب غزيراً. متعة كالشوة  
تعزو جسدي وعقلي منذ الطفولة لم أمسك كأساً. كنت أتناول  
إليه أنا وأخي، كان أكبر مني، وساقاه أطول من ساقي، لكني  
كنت أسيقه وأحد العاس أحب هذه الحركة الغنيمة لكل عضلات  
الجسم. وأحب رائحة بطن الأرض حين أشقها، والبدور أصعبها  
بين الشقوق، الماء يجري في القنطرة الطويلة له رائحة الطمي.  
والحقول الخضراء المعتدلة ولررع لأحضر يلعب تحت  
الشمس..

كل إجازة صيف سافر إلى قرية كمر طحلة. أفر من العرج  
أنا وإحوتي، ونظل طول الليل نلحم بالحقون وركوب الحمير  
ورائحة الحبير واطير وحدتي وعماتي يعمرنا بالقلبات، وسات  
صماتي يحملن الجرار على رؤوسهن ونذهب معهن إلى النيل،  
بملا الجرار ونصطاد السمك.

وكل إجازة صيف كنا نسافر أيضاً إلى بيت جدي في القاهرة.  
فيلا كالقصر تحوطها الحديقة الكبيرة، وكلب صمخ ينح طول  
الوقت وحالتي صوتها عالٍ حاد تصرح كلما رأني أمشي  
بحدائي المشح فوق السجادة المعجمي المزركشه ونسبح بعبوة  
صمراء أكر الأبواب وكل شيء أدوس عليه أو ألمسه

كنت أكره خالتي أخت أمي، وأكره القصر والسجاحيد وأكره  
الأبواب اللامعة وأحب عمتي الفلاحة والحصيرة على الأرض،  
أدوس عليها بحدائي، أرقد عليها وأتمرغ في التراب ولا يصرخ  
أحد. والأبواب بغير أكر نلحم. أمسكها بيدي فلا يمسحها أحد  
بفوطه صفراء. . والحماره أفرز فوقها وأسوقها إلى الحقل. . .  
تسير بي على حافة القاء وتجري دون أن أقع.



يد العاس خشية خشنة متعرجة ومن حولها يدي، تقص عليها  
بكل قوتي. الحجر في الأرض لا ينكسر إلا بعد ضربات قوية  
عيفة. حجر أحمر وأبيض. أرفع العاس عالياً ثم أمط به فوق  
الحجر حتى ينكسر.

سال الدم من يدي ونظت يدي بمسديل أبيض، وواصلت  
بمحت في أعماقي طاقة مخرونة مد الطفولة، ولدة عارمة  
أحسها وأنا مسهمكة، مستغرقة في إحراج الحجر من بطن  
الأرض.

كم ساعة ذلك النهار مرّت وأنا أشتعل بالعاس؟ لا أدري.  
لكن الساعة كانت تمرّ وراء الساعة دون أن أحس. سبت أنني  
في السجن.

ثم أفتت على صوت رأيت «لطيفة» تنظر إلى وجهي المحنق  
ينصب منه العرق، والمسديل الأبيض حول يدي مبّل بالدم  
الأحمر سمعتها تقول كمي هذا أكملني بقية الحوش  
يلك تترف. . .

قلت يمسد الأفعال لا بد أن أكمله اليوم قبل الساعة  
الرابعة. . . قبل أن تغلق الشاويشة علينا باب العتير.

قبل الساعة الرابعة بدقائق كنت قد انتهيت من فحت الحوش  
كله. أصبح كالحقل الصعير المحروث. الحجر الأبيض والأحمر  
جميعه دوة خارج الحوش في كوم كبير ارتفع عالياً، ثم أفتيت  
جسدي السهوك على الأرض صدري يلهث المسديل حول يدي  
ملوث بالتراب والدم رمقتني «لطيفة» طويلاً نعييس مدهولتين  
وقالت: اليوم فقط عرفت المارد الجتار داخلك.

كنت وأنا أسد طهري المسهك إلى الجدار. اليوم فقط أشعر  
بالراحة. . المارد المحبوس خرج.



في الليل عادت الآلام إلى ظهري وعنقي. ومن تحتي أُنحس اللوح الحشوي المملود فوق الشرائط الحديدية الممرقة من فوقه المرتبة الكاوتش الرقيقة المسودة.

أدلت عنقي بيدي وترتفع أصابعي لأهرش رأسي. شيء ما صغير يرحف فوق حلقة الرأس. أحاول أن أمسكه قبل أن يفلت في ثياب الشعر أو يرحف من فتحة الحلاب ليهبط إلى ظهري

في الأيام الأولى لم أكن أعضض عيني. تحررت منذ اليوم الأول من الأبرص والصراخير والعشائر. إلاتك الكائنات الدقيقة التي تلدع فروة الرأس أو ترحف في الليل تحت الملابس الداخلية وتحتفي بين ثياب الجلد. ليالي كثيرة مرت قبل أن أُنحرر منها هي الأخرى. ثم انتصر وجودي على وجودها فأصبحت أمام وكأنما هي غير موجودة.

لكن لم أكن أستعرق في النوم. ظهري فوق السرير لا يصبح أبداً في وضع أفقي مستقيم. وتطل أجزاء من جسمي وأطرافي من بين الشرائط وتكاد تلامس الأرض. النوم على الأرض كان أفضل لولا تلك الكائنات الراحفة أثناء الليل من الحوش إلى العنبر. حيوانات صغيرة وحشرات تدخل من بين القصبان تموء وتصفرو وتصرصر وتقرص وتقلب العلب والصفائح رأساً على عقب.

حين قلت للشاويشة: بي لا أمام إلا فوق سرير خشبي مستقيم، دهست وعدت ثم عدت تهت ومن خلفها ذوبة تحمل اللوح الخشبي. عثرت عليه في محزون بالسجن وقدمته لي هدية.

الملوح الحشوي كان طويلاً ربيعاً يهتز مع أي حركة من جسمي. لا أُنقلب دون أن أصحو لأهص وأعير وضعي فوق الشنوح. وإذا تغلست وأنا عائسة في النوم وحدت نفسي على الأرض. لكن جسمي بعد يصع ليالي أصبح يتقلب كما يشاء دون أن أسقط ودون أن أصحو. أفتح عيني في الصباح وأجدني راقدة كالمصلوبة فوق ذلك الصراط الطويل كواحدة من لاعات السيرك فوق الحبال، أو فقيرة من اليهود ينامون على المسامير. أأمل جسمي بعجائب مقطع الطير لقدرته الخارقة على التكيف والنوم العميق تحت أسوأ الظروف.



الليل في السجن أطول من النهار. لكن النهار أقبح من الليل فالظلمة تحفي الشقوق المسودة، والقمامة في الأركان، وبصمات الأصابع ويقع الدم على المراتب والجدران والقصبان وأعمدة الأسرة ومواسير المياه وأبواب المراحيض والمسابير.

كان عندما ثلاثة صابير صفراء عتيقة، أحدها محللوع. والثاني لا نهط منه قطرة ماء. والثالث يحر الماء منه ليل نهار. وفي الركن ثلاثة مراحيض أحدها مسدود لا يمكن استخدامه. الثاني بدون باب وبدون سيفون. الثالث له سيفون لا يشتعل ونصف باب مكسور لا يغلق، وفي سقعه الدش يختر سوسوماً من الماء طول الوقت. أي واحدة فينا تستخدم المراحيض تحس بالماء يتساقط فوق رأسها من الدش، ومن تحتها تعوض قدمها في مياه المحاري الطافحة من ثقب المراحيض. والصراخير الكبيرة تتطاير حولها



لم تكن «بدور» تذحل المرحاض إلا وبرأها تقفز خارجة قبل أن تكمل مهمتها صارخة: «صرصار»

ما أن سمع صرحتها حتى تجري إليها وفي يد كل ما شبشها شهرته في يدها كالسيف استعداداً لهرّب الصرصار.

وفي يوم سمعنا صرحتها وهي جالسة في الحوش. وظننا أن صرصاراً هجم عليها، وحلما الشبشب وتأهب للمعركة لكا لم ير صرصاراً وإنما رحل. لم تكن مرتدية القاب وأرعها أن يلمح رجل شعرها العاري، وفقرت من الحوش إلى العنبر في خطوة واحدة وأحفت شعرها ووجها تحت القاب.

أصبحنا من بعد كلما سمعنا صرحتها وقبل أن نحلح الشبشب نسأل: «صرصار أم رجل».

انكفأت مرة على عتبة الباب وهي تجري قبل أن يلمح شعرها رجل فانكسرت ستها الأمامية وجرحت شفتها العليا. ولم يوقفها الدم الدرف من فيها عن الجري وإحماء شعرها تحت القاب.

في الأيام الشديدة الحرارة كانت تجلس إلى جوار المقفات في الحوش وكلهن بدون العباءة وبدون القاب. في حجر كل واحدة منهن المصحف، وعيها على الصفحة، وعيها الأخرى على العباءة، وما أن بلوح حبال رجل من بعيد حتى يستفصن ففترات دح الحبر ليرتدين القاب والعباءات والقمارات

في عبر الدعارة المقابل لما تحدث الانتفاضة نفسها ولكن في لاتجاه المصاد، ويقفرون حدرج العر كاشعات عن شعورهن

الطويلة، يعمزن يعوبهن ويصحكن ويطلقن باللبان

في سجن النساء كان الرجل، أي رجل، وإن كان سجيناً عجوراً جاء يجمع القمامة، كائناً هاماً يحدث صجة حظيرة بين المقفات من ناحية، وبين سجينات الدعارة من الناحية الأخرى وكنت أرى الرجل وهو يتنسم مرهواً بأهميته الجديدة حين يلمح الانتفاضة بين النساء والعنات سواء بالاعتاد والاختفاء أو الظهور والاقتراب.

إلا أن الظهور والاقتراب من ناحية بنات الدعارة لم يكن يحدث في حالة الرجال المسؤولين عن الإدارة. ربما لم يكن هؤلاء الرجال في نظره رجلاً. أو لعل الملابس السوليسية كانت تسلب الرجل حقيقته كرجل، أو هي السلطة أو الخوف من السلطة يكتسح أمامه المشاعر الشرية بما فيها المرائز

وكانت هيأة ذوية تمثلان بالعصب والحزني حين ترى زميلاتها من عبر الدعارة يتقافرون متراحمات حول الرجل. وتهتف بصوت حاد: احتشوا يا دعارة!

تلوي واحدة مسهن حصرها وتضع يديها فوق رديها وتشهق صارخة: اسكتي يا تسول يا دعارة عذائهم تجري في السماء وردعاها يتقافزان فاخل البطلون الجيتز الصبقي.

تقدوها ذوية بطوبة وهي تصرخ أنا لا أتسول هنا في عبر المياسة، أنا أحد مصيبي بعرق جيسي، وعبر السيامة ستات محترمات يا حرامية يا دعارة عذ!

تهز المرأة حصرها وردفيها وتصرخ تمسحين عبر السياسة  
سبحارة يا شحاته! أنا دعاة على سر ورمح، ولا واحدة هـ  
تقدر تقول هي حرامية!

صرتها على ردفيها امرأة نجيفة شعرها أكتر، وجهها عليه أكر  
جروح وصاحت والحرامية ما لها؟ أنا أحد نصيبي بعرق جيبي  
ولا أبيع شرفي يا حشاشة يا بائعة المخدرات!

انتصت امرأة سمجة بيضاء وصرحت احرمسي قطع لسلك!  
ما لها المخدرات! أما أبيع حشيش وأشتري حشيش بملوسي  
وشرفي، لكني لا أسرق يا حرامية يا بنت الحرامية!

وبدأ يتبادل السباب وتمسك الواحدة بشعر الأخرى  
وتشاككن بالأذرع والأرجل في عراق لا تعضه إلا الشاويشة  
بالعصا الخيزران.



عينها صيرتان. الجمعان منتهان بعير رموش لكن لهما قدرة  
عربية على الملاحظة. أنفها أيضاً له قدرة على الشم والشعر  
الأسود عند فتحتي الأنف يهتر كشوارب القط أو الأرنب حين  
تقرب من ذلك المكان، حيث دفنا السموات.

بدأت المموعات بالقلم والورق ثم الصحف وانتهت براديو  
ترنزستور بحجم علبة السجائر. كنا ندفعها جميعاً في حفرة في  
بطن الأرض في ساعة التمام، بعد أن تعلق الشاويشة عليها ناب  
العبر نخرج الصحف نقرأها واحدة وراء الأخرى ثم نحرقها في

حرجاص، قبل أن تفتح الشاويشة الباب في الثامنة والصف  
صباحاً.

تدخل إلى العنبر تشتم رائحة الورق المحروق. وترمق بعينها  
صغيرتين الرقائق المفحمة السوداء كالهباب طامية على سطح  
ماء المجاري في الثقب المستدير، ومن حولها الصراخ

ويتقي عيناها يعوننا، لا نقول شيئاً، وهي لا تقول شيئاً.  
ولأمر معروف ولا شيء في السجن مموع المهم أن يعرف  
الإنسان الطريق الصحيح

وأصحا نتابع الأحبار في مصر والدلم في الأيام الأولى لم  
نعرف شيئاً كما يلفظ الأحبار من أهواء السجئات السائرات في  
الماء. وحين ندخل علينا ذوة أو من تنوب عنها، نحمل الأربعة  
كل صباح نسألها الأخبار بل قبل أن نسألها محسن من نظرة  
عينيها ورنة صوتها إذا ما كانت الأخبار تسوء أو تتحسن.  
والشاويشة نوبة أيضاً أو من تنوب عنها، رعم العينين الصغيرتين  
صبغ المغلقتين القادرتين على اظهار عكس ما يظن، استطعن أن  
يكشف أعماقها، وبمك رموزها، ونفس حركة رأسها، نظرة  
عينيها، الطريقة التي تفتح بها الباب كل صباح، يدها وهي تدفع  
الباب الحديدية لتدخل العنبر، رأسها وهي تطل من الباب،  
صوتها حين تقول لنا صباح الخير يا سطات، جلستها في  
لحوش، احتفاؤها من الحوش، عودتها وهي تسرع الحطى  
وحركة المفاتيح الصممين في يدها

حواس السجين كعصب الإصبار عند الأعمى، كعصب الشم واللمس والسمع تولد لها إمكانيات جديدة حارقة للعادة..

وأصبحنا نعرف الوقت الذي سيحدث فيه التفتيش قبل أن يحدث. واللحظة التي سيأتي فيها صابط المباحث قبل أن يأتي. ندرت حواس الكائمة على التباطؤ أي حركة غير عادية في الفناء الواسع وأصبح وجه الشويشة كالكتاب المفتوح نقرأه ما شاء.

في الليل كنا نتجمع حول الراديو الصغير فنقرب رؤوسنا من سم المذيع صوته مسحور الطاريات ضعيفة وفجأة يرن صوت السدادات يرتفع صوت الراديو. يهتز الصوت كأنه شلال. أنفاسه تنقطع. أنفاسنا تنبع هذه الأنفاس. مصيرنا معلق بهذه الأنفاس، وبهذه الكلمات المتدحرجة كالقذائف...

وفجأة انقطعت أنفاسه وانقطع صوته تماماً وقطرت واحدة من المنقيات بفرح قائلة انقطع نمسه من الكلام ومات! قلوبنا تلقى وعيوننا تسرق لكن واحدة أخرى تقول. البطارية هي التي ماتت.. لا بد من شراء بطارية جديدة...

يعود الوجوم. والكآبة شراء بطارية للراديو مشكلة. لا يمكن شرائها من كاتين السجن كالسجائر. لكن الشراء من السوق يحتاج إلى نقود. وليس في أيدينا نقود. قدمت كل واحدة منا شيئاً من عندها ثماً للبطارية. واحدة أعطت حقيبة يدها لجديدة. واحدة قدمت حذاء. أعطيت أنا قطعة من ملاسي. وجاءت بطارية نصف عمر.

كانت خطب السادات طويلة الخطبة الواحدة تستهلك بطرية، وحين ينقطع صوته فجأة نعلم أنه أصيب بسكة قلبية ونبدأ نقرب في التحقق لكننا سرعان ما نكتشف أن البطارية هي التي أصيبت بالسكة.

الراديو كان أهم عبءنا من الصحف بحرك المسامير فسمع داعات العالم أحوار الاعتقالات في مصر تصدر أباء العالم السادات وضع معارصيه في السجون ولارل يتحدث عن الديمقراطية حتى المذيع في صوت أميركا يقول إن الديمقراطية في مصر ليست حقيقية.

العبون من حولي أراها تبتقر: عيان من حلال النقاب ندمان وصوتها يقول نشوة العالم كله معنا صد السادات؟ صوت واحدة تقول أجاباً في كل البلاد، أصبحت لنا أهمية عظيمة!

فرحة السجين بأنه ليس وحده العالم كله يتابع أحده وراء القضبان. العالم كله يعترض ويحتج!

كان الراديو الصغير بحجم كف اليد كالشيء السحري المعجيب. يبعث الحياة والبهجة والتناؤل. ما أن نسمع حيراً في صفنا حتى نصفق بحماس.

لكن الصحف كانت القبط. ولم نكن نحصل إلا على لصحف المصرية الصحف كلها صدنا تردد خطب السادات تنهنا بالفتنة الطائفية والتآمر ضد الوطن.

الصفراء با التهم دون محاكمة وحكموا علينا دون تحقيق ونحن

في السجون، لا يستطيع أن يرد أو ندافع عن أنفسنا



من جريدة الأهرام ١٢ سبتمبر ١٩٨١ قصصت من الصفحة  
لثامنة قطعة ورق تحمل بعض الطور سأحتفظ بهذه القصاصة  
معي إلى أن أخرج إلى التحقيق سأواجه المحقق بما كتبه  
الصاحب عما قل أن بحق معاً. وكانت القصاصة تحمل هذه  
السطور: مجلس الشورى يدقش تقريراً عن خطاب الرئيس  
السادات: أكدت الدجة في مجلس الشورى أن قرار الرئيس  
بالتحفظ على بعض الأشخاص لم تستهدف أبداً المعارضة وإنما  
«ستهدفت المتأمرين ضد مصالح الشعب، بذليل أن أعلى  
الأصوات في المعارضة الذين حملوا على النظام أعف الحملات  
في داخل البلاد وخارجها لم يشملهم قرار التحفظ وهم أحرار  
طلقاً يتمتعون بالحرية والديموقراطية في عهد السادات البطل  
العظيم وفي ظل دولة المؤسسات والقانون.

كيف يلصق بنا مجلس الشورى تهمة التآمر ضد الوطن دون  
تحقق!.

ولمعت القصاصة في المحبأ تحت الأرض. سأخذها معي إلى  
جلسة التحقيق.. إذا كان هناك تحقيق.

كل يوم ننظر التلاء على اسم واحدة مما المخرج إلى  
التحقيق لكن اليوم يمر وراء اليوم، ولا خروج ولا تحقيق وفي  
الليل يمرض الطاية على الأرض بجوار الباب ونجلس. تحاول

كل واحدة منا أن تتخيل أسئلة المحقق لها.

إذا كانت التهمة ملفقة فلا بد أن تكون الأسئلة أيضاً مدققة  
سأحاول أن تولف الأسئلة التي يمكن أن تلمس لأي واحدة منا  
ونولف الإجابة أيضاً

وقالت زميلة: إذا سألي المدعي الاشتراكي لماذا أكل مرتين  
في اليوم بذل ثلاث مرات بماذا أجيب.

ردت زميلة أخرى: إذا سألك هذا السؤال قل لي له ولماذا  
ستوك المدعي الاشتراكي.

وردت زميلة: سمع المدعي الاشتراكي ليقى في البلد شيء  
من الاشتراكية.

وقالت واحدة: لم يبق من الاشتراكية إلا المدعي الاشتراكي.

وقالت واحدة أخرى: سمع المدعي ليدعي علينا زوراً  
وبهتاناً.

وقالت فتاة: حلمت بالأمس أنني جالسة أمام المدعي  
الاشتراكي وقال لي أنت متهمه بقلب نظام الحكم قلت له هو  
الحكم ناقصني، هو مقلوب من غيري.

وقالت أخرى: كل ليلة أحلم بالمدعي الاشتراكي .. وكل  
صباح أكحل عيني استمداً للخروج ومقاتلته .. أصبح هو  
الرجل الوحيد في حياتي

ورثت الصحكات في العسر كل شيء من حولنا يبدو  
مصحكاً. السحر والقصاص الوجوه النوليسية المشدودة

الصور المنشح في الراديو. ماشرات الصحف. صورة الصفحة الأولى كل يوم الغم المعجوق عن آخره الأهداس اللاهنة قصة اليد المدوحة في الهواء الكلمات المحتلطة برداد اللعاب .  
الانتهامات لعجية نصريحات وزارة الداخلية ومجلس الشورى واليابة العامة والمدعي الاشتراكي.

أعيش مسرحية كوميدية؟ فتاة في السادسة عشرة من عمرها لا تعرف شيئاً، متهمة بقلب نظام الحكم!

حين ترن الصحكات في الليل تنقطع صفارة الصراصير لحادة تنصب شواربها الطويلة وهي تجري في الأركان تتوقف لحظة دون حركة كأنها تنصت تصع واحدة يدها على فمها وتكتم الصلح قائلة: لا تصحكوا بصوت عال، صابط الماحث يلف حول العنبر يلصق أذنه بالجدار وينصت عليها.  
وتصحك واحدة. مسكين. يتعب نفسه على العاصي.

وترد واحدة نحن لا نهاجم الدولة. بالمعنى لقد وقعنا كنا في غرام المدعي الاشتراكي وأصبحنا نحلم به كل ليلة، ونكحل له كل صباح.

تهض واحدة نصيح قد يدخل علينا الآن ويفتش العنبر.  
نصرح واحدة. نفتش يا جماعة حينوا الممنوعات

- خشوا الراديو، والوايو... والجرائد...

- وقلم المراحب... وورق التواليت...

- واللي قابلة نظام الحكم تعمله.

صحكاهن وأصواتهن ترن في أذني كتلميذات في المدرسة لدوية عيونهن لمع كعيون رميلاتي في مدرسة حلون الداخلية مدسين بعيدة حين كان يطل برؤوسا من تحت الأعطية بعد أن يذق جرس النوم، ويظفي نور العنبر، تنهدن ويصحن. كل شئ في سرير واحد أو ثلاثة أو أربعة وما أن سمع وقع أقدام صابطة الداخلية في الممر الخارجي حتى تجري كل واحدة إلى سريرها، تدخل رأسها تحت العطاء، وتغمض عينيها، مرهقة الأديس لصوت حدائها «الكريس» حين تدخل على أطراف أصابعها تنجس على أحسادنا، وتفتش على أحلامنا، وترقب حركة عقلنا الباطن ونحن نائمات، ونعدنا واحدة واحدة، وتأكد أن كل واحدة ما قد نامت في سريرها، وأن صدورنا تعلو وتهبط بانتظام تحت العطاء، فإذا ما لاح لها أن الحركة غير منتظمة شدت يدها العطاء لتأكد أن العينين مغمضتين في نوم حقيقي. وإذا ما لمحت رعشة فوق الجفن شدت الست من ذراعها وساقها أمامها إلى غرفة التأديب.

أما إذا كشفت العطاء ورأت بدل العينين الإشتين أربع عيون دفقت جرس الإنذار وصحت كل عتابر الداخلية على المفضيحة أهلة «نظيرة» صبطت جريمة وأمسكت اثنتين بالعينين في سرير واحد!

كنت طفلة في الثانية عشرة ولا أعرف ما هي الجريمة. لكني سمعت من التلميذات الكيرات أن حيالات جسية تملأ رأس أهلة «نظيرة» طول الليل، تسب لها الأرق والتوتر، فهض من سريرها

بعصية ومدور على العتابر ولا تهدأ إلا بعد أن تمسك بتأ أو  
اثنتين، وتلهب أقدامهما العارية بالعصا الخيزران.



لأول مرة وقعت عيالي على صابغة السجى «شكرية» تذكرت  
أيلة «نصيرة» صابغة الداخلية الجسم الطويل الحبل، الظهر  
المحني لرأس الطويل المدبب من الخلف، الشعر القصير  
الخش، بقاضة عضلات الوجه، المصيبة والتوتر، العينان  
المحاطتان تتحركان بسرعة وتدوران حول نفسها كعيون حيوان  
محاصر أربع طويل مفؤس ومدبب كمسقار الحداة شعنان  
رفيعتان شبه متلاشيتين. دقن مثثة مدببة ومفؤسة، فواهاها،  
كتهاها، ظهرها، ردهاها، وساهاها كلها مفؤسة.

لم نكن نرى لها فماً وهي صامتة. مجرد خط عميق مشدود  
تحت الأنف كأنها ناللك. لكن إذا تكلمت انشق وجهها نجاة  
من ثقب واسع مستدير بغير أسنان.

حين كنت طفلة كنت أظن أن أسنانها سقطت من شدة التوتر  
والضغط على فكها طول الوقت كأنها تاكل أسنانها ولسانها.  
وصدقت الرميلات الكبيرات حين قلن إنها أكلت مرة قطعة من  
لسانها ونظرت باستطلاع في فمها دت يوم. لكنها كانت أطول  
مني وفمها أعلى من كتي.

لكن في السجى رأيت أن كنمي أعلى من كتف الصابغة  
شكرية. وأستطيع أن أنظر في فمها. ورأيت أن لها أسناناً

مشتركة صفراء كأمتان ملعني الدخان أو المحذرات.

اشتعلت عليها تميمت أن تفتح لي قلبها وتحكي مأساة  
حداها قلت لها وهي تعشش حفتي يوماً. لماذا اشتعلت صابغة  
في سجن هل تجدين لذة في فتح حقائق العير؟  
زمت شفيتها في غضب...

وقدت لها تأكدي أسى لست صدك وأما أعرف تماماً أنك  
لست عدوتي. لكن عدونا واحد.

كلامي كان يبرعها لكن أكثر ما كان يبرعها هو أن ترابي أقمر  
في لحوش بالحذاء الكاوش وينطلقون الرديصة القصير حتى  
لركش، أرسله إلي زوجي مع ملابس الرياضة في حبة صغيرة  
كانت هي تؤمن أن ركتي المرأة عورة وخاصة في السجن لكنها  
على خلاف «مدور» كانت ترى أن الله هو الذي سيحاسني في  
الآخرة وأنها لا تتعدى على سلطة الله.

ما أفرعها حقيقة أن عدوى الرياضة انتقلت من حلال القصد  
إلى السجيات الأحرىات في الفضاء. ما أن يروسي أقمر في  
الحوش حتى يغمض أمامي صعاً طويلاً ويقفز مثلي. إذا رفعت  
الذراعين إلى أعلى ارتفعت الأذرع. إذا صغقت ويدي فوق رأسي  
صغقت الأيدي فوق الرؤوس. إذا ثبت جذعي ثنين جذوعهن  
دا رفعت رأسي إلى فوق رفعت رؤوسهن. إذا ففرت في الهواء  
فقرن. إذا صررت الأرض بقدمي صررت الأرض بأقدامهن

وإذا هفت: واحد... اثنين...

هتكن معي: واحد... اثنين...

عرفت السجيات موعد رياصتي الساعة التاسعة صباح كل يوم يتجتمعن أمام الدب بجلايهن البيضاء الطويلة وأقدامهن الحافية، واقفات مستعدات. ما أن يبدأ حتى يتنظمن في الصف ويبدأن معي حركة بحركة.

ظهرت الصابطة «شكرية» في السماء على صوت التصفيقة الواحدة لمئات الأيدي في لحظة واحدة. أفزعها الصوت، واندفعت فوق كعبها الريعين من الألومنيوم صائحة كل واحدة تدخل عبرها بسرعة!

لكن واحدة مهر لم تفرح من الصف لم أكن أنهيت رياصتي بعد. وواصلت حركاتي وطارور السجيات يتبعها دون توقف.

دقت الصابطة بقدمها على الأرض بعضب... اقتربت مني وقالت لي من خلال القصبان هذا تحريض على التمرد داخل السجن!

قلت: لائحة السجن لا تمنع الرياضة البدنية!

ولم أتوقف وطارور السجيات لم يتوقف أيضاً. وفي صباح كل يوم في الساعة التاسعة نبدأ أراهن واقفات منتظرات... باسمات... مشدودات الأجسام متأهبات...

وفي يوم تأخرت قليلاً عن الساعة التاسعة، فبدأ بأصواتهن نادبي يا دكتورة... يا دكتورة... الساعة تسعة...

أجري إليهن ألتهت كأنما على موعد. وأبدأ التمرينات. أحرك

در عني وسافقي بدلت الإيقاع المستظم الذي يشبه الرقص ومامي أرى صماً طويلاً من الأذرع واسيقان، تتحرك في الهواء، وتصرب الأرض بالإيقاع المستظم نفسه.

كأنما أجادهن وجددي شيء واحد كأنما ليس سوا القصبان والفواصل الحديدية. كأنما نحن جسد واحد

وأحسن خففات قلبي تحت صدوعي وعرفني يسيل على وجهي ويدخل فمي. ملمسه على لساني له لذة حادة لاسعة وفي رأسي لايرد صدى الصوت والكلمات هذا تحريض على التمرد داخل السجن! وأحسن حلايا عملي تمتع على حقيقة كأنما أدركها لأول مرة أي حركة جماعية متظمة وإن كانت مجرد الرياضة البدنية أو الرقص لها يقع في العقل والجسد يشبه إيقاع الثورة أو التمرد

كأنما اكتشفت الصابطة «شكرية» الحركة الكامنة في خلايا عقلي قبل أن أكتشفها أنا. وكانت أبلة «نظيرة» ضابطة الداخلية مثلها تماماً تحت طلائم عقلي الناطق وأنا نائمة ونرى أحلامي من أن أراها وتتهم حركة جسمي قل أن يلزكها عقلي



إلا أنه ليس إلا الحلم كدلوهم. وسرعان ما تتفرق الأجسام لمشدودة أو ترتخي، أو تجري مدعورة إذا ما لاحت العصا ذات النور المديب وأجد نفسي واقفة وحدي وراء القصبان أحرق في الفراغ. وفي قدمي حذاء الكاوتش. فد أواصل الحركة وحدي لكنها تبدو لي بلا معنى. وأستدير لأدخل إلى العنبر. لكني ألمح

بالعأس وأسرع إليه بأمل جديد أرفعه بكل مؤني إلى أعلى ثم أهبط به لأضرب الأرض.

تكشف الأرض عن بطنها الحسبة السوداء. أساويها بكسي أحسن نضجها. دافئة تحت يدي كذراعي وسافي رنحتها كرنائحتي رائحة لذيذ والمرق ينساقط من الجسم أشر الدور من حولي ثم أعطيها بالرماد كما أعطي جسمي وأجري لأملأ لجردل وأسقيها حتى ترتوي.

سمعتني «موقية» وأدأطلب من «فتحية القتالة» بدور عب وبرتقال شهقت وقالت هل سقى ها حتى تطرح الأرض عباً ويرتقلاً؟

دهشت للسؤال. ربما سبت أنسي في السجن. أو لعلي وأنا أزرع لم أكر في الحصاد كثيراً ما أكتب دون أن أشعر انكنازة في حد ذاته لها لذة والزراعة لها لذة. العمل في حد ذاته له لذة. وقلت: نبهي أو لا نبهي... المهم هو أن أزرع.

قلت: الزراعة بلا محصول ليست لها لذة، وليس لها معنى! قلت: الزراعة عندي هدف في حد ذاتها، ولها لذة... ثم ماذا تقصدين بالمحصول.

قالت: هل نسقى ها حتى نأكل العنب والبرتقال. قلت: إذا بقياً بأكنه، وإذا لم نبق بأكنه من يأتون ها بعدنا. مطت شفيتها واستدارت ودخلت العنبر.

لكن شفيتها الممطوحتين ظلت أمام عيني. أرفع ذراعي بالعأس

موق رأسني عالياً، وعياني مرفوعتان إلى السماء، ثم أهبط به لأكسر الأرض. طلت يدي مرفوعة في الهواء لحظة، وعياني على السماء، ولاح لي وأنا أهبط بالعأس أنسي لا أكسر الأرض وربما أكسر الرمن. أريد أن أفشل الرمن لأنحصر من العنب. عبه الانتظار عبه الشرق. عبه إرهاف الأديس كل يوم وكل ساعة وكل لحظة لذلك الصوت الذي يادي اسمي

كنت أطس أنسي لا أنتظر أنسي ولدت هنا وسأموت هه. وأنسي مشعولة طول الوقت بأشياء أخرى. ما أن تفتح الشاويشة ياب لعبر حتى أجري إلى الحوش أنشر ملايسي التي عنتها وأشر لمرنة تحت الشمس، والبطلين ألب الحوش حمسين مرة ثم أبدأ التمرينات الرياضية بعد الرياضة تأتي الزراعة. ثم الجلسات الجماعية... المساقشات - المحاضرات - تحليل آخر الأبناء. الإعداد لجلسات التحقيق. متابعة أحداث الشاويشة مع ذوبة وفتحية القتالة وفي الليل درس القراءة والكتابة لاعتدال... ثم الجلوس على قعر الصفيحة والكتابة...

استمعل الكتابة بنهم وشوق. وأنسى أنني في السجن وأنسي أنسي أنتظر لكن ما أن أحرّك رأسني ناحية السادة العلوية دت القصص حتى أدرك أنني لم أنس. وأد في أعماقي انتظر طويل انتظر مخيف كانتظار الموت أخميه عن نفسي وعن عقلي الوعي وغير الواعي انتظر لا أعترف به ولا أريد أن أعترف به.

ليس هو انتظر التحقيق أو الجلسة أمام المدعي الاشتراكي



وإنما الخروج النهائي... الأبدى... الإخراج

إنتظار الإخراج شيء قلته منذ البداية . منذ أول لحظة  
حدث فيها السجن لا شيء يقتل الإنسان سوى الانتظارا

لا يموت الإنسان في السجن من الجوع أو من الحر أو البرد  
أو لضرب أو لأمراض أو الحشرات. لكنه قد يموت من  
الانتظار الانتظار يحول الرمن إلى اللارمن، والشيء إلى  
اللاشيء، والمعنى إلى اللامعنى.

فتحت عيني في أول صباح لي في السجن ووجدني لا أنتظر  
شيئاً لا الخروج للتحقيق ولا الإخراج ولا زيارات الأهل نسبت  
أن لي أهلاً أو لي بيتاً أو لي حياة أخرى خارج هذا المكان.

أعظم صفات الإنسان أنه ينسى.

وهل كنت أحيًا في السجن دون أن أنسى؟...

هنا طفلي حين يمتحهما في الصباح فلا يجدني ولا يعرف أين  
أما ذلك الصباح هل فتح عينيه؟ منذ متى؟ لا أدري... ربما قرن  
من الرمان... فالرمن في السجن غير الزمن، والساعة الواحدة  
تتبدل أمامنا بغير نهاية كالدهر.



أحملك في الظلام، لم يكن الفجر شتقش بعد. متكورة حول  
نفسي كحبيب في بطن أمه أتلمس الدفء من الجدران التي  
تحولني هي أمًا مت وعدت إلى الرحم الأصلي أم أنني لم أولد  
بعد؟

الصمت والعذمة تلتصقان حولي كعاءة سوداء. كثافة مشجعة  
يصمط على أذني في صمير مفضل لا نهائي أخرج رأسي من بين  
القصبان أقرب أول نقطة ضوء أول فطرة بدى. ظمأ شديد  
يذهب حلقتي ماذا تعشيت بالأمس؟ لا أذكر. لا أذكر شيئاً. حتى  
ملامح طفلي نسيها.

الصوت العذب الحريس يشق السكون. الباي المبعرد في  
الظلمة بناء كصوت الأم كالدهاء. كالكاء. كالصحكة الطويلة  
يعنفها طفل أو صرخة وحيدة في الليل

كل حجر أنتظره وأسمعه. أرفع رأسي إلى قطعة السماء من بين  
القصبان. لا أستطيع أن أرى الكروان يكفي أن أسمعه دون أن  
أراه يكفي أني أسمع رأسي أستطيع أن أحرك ذراعي وسائلي  
وأفتر على أرض العسر وأن قلبي يحقق. وأن العرق ينصب.  
رأسي أصعب جسمي تحت الدش فيهبط الماء العزير... وأنني  
أجفف شعري... وأشعل الواور لأصع الشاي



كما نخسء الواور داخل حلة كرتون تحت أحد الأسرة  
العكسورة. ومن حوله نضع علب السكر والشاي، والفول،  
والعسل، والعسل الأسود إلى جوار كل ذلك نضع ملابسا  
داخل علب الكرتون، أو في حفاض، أو في أكياس من الورق.

في الأيام الأولى كانت القطط تدخل في الليل من خلال  
القصبان وتقلب علب العسل الأسود على الحلاس، وعلب

السكر على الشاي على لعدس ثم قدما احتياجاً لإدارة السجى، فركوا سلكاً على الباب، لم يعد يسمح بدخول القطط والحيوانات مححم القطط لكن الكائنات الأصغر حجماً والحشرات والزواحف كانت تدخل.

كنت أشعل الوابور بصعوبة وجميع الرميلا في العنبر يجدن صعوبة في تشغيله فهو من السرع دي الشريط، والجاز لا بد أن يملأ الوابور إلى ارتفاع معين والشريط لا بد أن يكون بارداً بطول معين إذا شددنا طرف الشريط العلوي بصعة مديمترات هتت النار في وجهها، لتحرق أطراف شعورها. وإذا شددنا طرف الشريط السفلي بصعة مديمترات لم يشتعل الوابور على الإطلاق، أو اشتعل الجار داخل الوابور وملأ العنبر بالدخان وسجري متعدات عن الوابور حشية أد يتفجر فينا ونحاول أد نطفه. لكن عملية الإطفاء كانت أشد صعوبة من إشعاله ولا بد أن تقب أربعة أو خمسة منا حول الوابور ومنصح فيه بنفس واحد حتى يطفىء محلطاً وراءه سحباً من الدخان الكثيف الأسود ورائحة خفيفة من الجاز المحروق.

كل مرة شعل فيها الوابور أتساءل ماذا تفعل لو أن حريقاً شت في العنبر. بعد الساعة الرابعة مساء كانت الشاويشة تعلق هينا النابى الحديدى. وتمضي إلى بيتها. إدارة السجى تمضي إلى ستها لا يقى بالسجى إلا حارسة الليل. يسمونها «سهارة الليل».

كل ليلة نسمع النداء يتردد من أحد العابرين:

يا سهارة الليل! يا سهارة ليل! نداء قد يستمر طول الليل. كالصرخة الممتدة الطويلة، كالأبى الدائم. كالاستجداء. أو لاسترحام كالنداء اليائس في سماء مظلمة مصمتة صامتة لا ترد. وأكها بعير آدان كصفارة السجدة للإتقذ أو الأسعاف لكن الألساء نائمون والحراس نائمون ولا أحديسمع صوت المرأة المستعينة إلا بعض نساء حولها، ينادين في نفس واحد يا سهارة الليل واحدة يثموت!

ونموت هذه الواحدة دون أد يستعنها أحد يعطين جثمانها دلبطانية وهر يبكى بصوت حامت... ثم يمين وفي الصباح تخرج نساء العابرين من حلقها يولولن ويصرخن ويلطمن الحدود نائمات عليها وعلى أنفسهن.

بعد السواح إليسا من خلال القصبان ونحن جالسات على الأرض في الحوش نقي العول أو العدس، وظهورنا إلى الجدار. نلتقي الميون. هيون مرهقة شاحنة قنفة. كميون حيوانات حية، ستظر يوم الذبح أو يوم الموت. تمسك واحدة من المتقات رأسها الملقوف بالنسواد بيديها داخل الققار الأسود وتطرق إلى الأرض هامة: ارحمها يا رب!

ترد المتقات في نفس واحد: يا رب!

تمسك واحدة رأسها بيديها وتجهش بالكاء.

يضيء وحده واحدة من المتقات بانتسامة معاجنة وتقول: الإيمان بالله يا جماعة، لا شيء إلا بإرادة الله.

وتقول واحدة أخرى: استراحت من حذاب الدنيا وقد رحمها الله، وها هي تخرج إفراجاً!

تضحك واحدة. تخرج إفرح بدون تصريح من السادات! تهتف واحدة تصريح الله فوق تصريح السادات! والله أكبر! ويهتفن في نفس واحدة: الله أكبر!

وفي الليل يتكرر النداء في سهارة الليل! ربما هي واحدة أخرى مريضة تموت. أو أم تصح مولوداً، ويحتضن النداء بالصراخ والنبكاء ثم يسود الصمت في النهاية. نهاية الليل، وقبل أن ترحف حياض الفجر... يقطع السكون صوت الكروان. كالنداء الطويل. أو الشقة الطويلة المتقطعة. وينقب الكروان صوت الآذان... واحدة تؤذن لصلاة الفجر، ثم تهض جميع المنقبات للصلاة. يتوغلن من الجردل أو الصفيحة إذا كان الماء مقطوعاً. يرتدين المباءات والفصارات ثم يقفن صموقاً وراء الإمامة... وتبدأ الصلاة الجماعية والنداء والابتهال والتسبح... يلصقن جباههن بالأرض ويهتفن بصوت واحدة: الله أكبر...

•

في السجن تسود ثلاثة ألوان: الأبيض والأسود والرمادي ثلاثة ألوان توحي بالمرض والاحتضار والموت والمرضى في السجن أسوأ من الموت. إنه نوع من الموت البطيء الطويل... أو الموت مئات المرات بدلاً من مرة واحدة.

بعد التحفة الأولى التي رأيت فيها طبيب السجن وعبادته قررت ألا أمرض.

هل يمرض الإنسان بإرادته؟ نعم، وأحياناً لا، إلا أن الإنسان قد يمرض بل قد يموت بإرادته. ولعكس أيضاً صحيح. قد لا يمرض الإنسان وقد لا يموت بإرادته.

في صباح اليوم التالي لدخولي السجن أحدوني إلى المحضر لضفي في العيادة إجراء ضروري في السجن لكل المسجونين الجدد أو الإبريد الجديدة المحضر انطلي للملب والصدر ولسن والأطراف. الطول والوزن. علامات ممبرة في الوجه أو لرأس أو الجسم. وملتقط صورة للمسجونة وهي واقفة ظهرها إلى الجدار على صدرها لوحة نحاسية تحمل رقمها وبصمات يدها.

توضع الصورة مع البصمات مع أوصاف الرأس والجسم ولطول ولوزن في دوسيه بالعيادة الطبية ونسخ أخرى في دوسيه آخر بإدارة السجن، ووزارة الداخلية أحدثي الضابطة والشاوشة إلى العيادة الطبية في ذلك المبنى المتسع الذي يسمونه المستشفى في الطريق إلى غرفة الطبيب مررت بعبر الدرن، وعبر الجرب، وعبر الأمراض المعدية الأخرى. الوجوه السحلة الشاحبة والأجساد الناعلة، معدودة على الأرض. الصفاق لعدمهم، والرائحة العفنة، والأريطة البهيماء السوداء بالتراب والصدئ والدم.

وأمام باب العيادة طوابير المسجونيات الجدد، واقفات ينتظرن  
المحصن لطبي أجساد هزيله بالجلابيب البيضاء متراسة في  
صفوف متلاصقة متهاككة وجوه صفراء عيون رثعة .  
أنفاس متقطعة.

تذكرت السنين البعيدة في مستشفى قصر العيني، والمستشفيات  
المجانية في وزارة الصحة الطوابير هي الطوابير الوحده هي  
الوحده الشحوب هو الشحوب . . بل والشتائم نفسها تنطلق من  
أفواه الطبيب والحكيمة والمرمحين.

إلا أنهم هناك كانوا أحسن حالاً من هنا هناك بعد الانتظار  
لطويل يعودون إلى بيوتهم وفي أيديهم زجاجة من الدواء مزيج  
من الراوند والصبودا أو أي مريح آخر . . . أسود أو أبيض . . . لا  
يشفي مرضهم، وقد يصيبهم بمرض آخر لكنهم في النهاية  
يعودون إلى بيوتهم وأهلهم.

لكن هنا، لا عودة إلى الست أو الأهل هنا الانتظار الطويل  
ليل نهار، وصيف شتاء، بتغير عودة، وبغير بيت، وبغير أهل.  
هنا الشتائم فقط، ولا نهاية للشتائم إلا الركلات بالقدم،  
وزنازين التأديب . .

هنا المرض ولا شفاء ولا دواء إلا أقراص بغير اسم وبغير لون  
تنصها الممرضة بأصابعها المسودة في قطعة ورق من ورق التواليت  
أو الجراند القديمة، أو لا تلمها على الإطلاق، وتلقي بها في يد  
المسجونة أو في حجرها . .

ومع ذلك كان الحروج إلى المستشفى حلاً جميلاً لا يتحقق  
لم تخس المستشفى نعد عن عشرين أكثر من أربعين متراً لكعب  
أربعون متراً في ماء السجن الواسع وكان مصحواً أن يحرج إلى  
لهاء أو تسيير فيه متراً واحداً.

وحينما تمرص واحدة من الرمحلات فإنها تلجج الشاويشة  
وتذهب الشاويشة لتلجج الضابطه وتذهب الضابطه لتلجج المأمور  
ويلجج المأمور ضابط المباحث.

إذا رأى ضابط المباحث أن الأمر يستدعي فحص الطبيب  
أمدر أمراً إلى طبيب السجن بالتوجه إلى عبر الياسيات وقد  
يحصر الطبيب فوراً، أو بعد الانتهاء من عمله بحسب الظروف

أول مرة دخل العنبر لم أعرف أنه طبيب أو أنه كان زميلاً لي  
في الكلية. ملامحه بدت غريبة كأنما أراها لأول مرة تشبه  
ملاح رجل البوليس وملامحه أيضاً بوليسية أول مرة أرى طبيباً  
يرتدي الملابس البوليسية.

هل تعبر الملابس من ملاح الإنسان؟ أو لعلها الوظيفة أو  
لحياة داخل السجن مع رجال البوليس شكّل ملاح الشخصية،  
وتجمل لزملاء المهنة الواحدة ملاح متشابهة.

لكه ما أن بدأ يسكنم ويمشي أمامي في العنبر حتى تذكرته.  
كان زميلاً لي في كلية الطب منذ خمسة وعشرين عاماً تقريباً. له  
صوت مؤبر، أحمر، متوسط الحشونة بهي شفة في آخر كل  
جملة وحين يمشي يحرك ذراعاً واحدة إلى الأمام وتصل الذراع

اثناثة مننصقة بجسمه. طويل نحيل أبيه، وبظارة بضاء،  
وحقية كنهه مستنحه دائماً، يضعها فوق ركبتيه وهو جالس في  
المدرج، رأسه منكس، فوق الكشكول، والقلم في يده يتحرك  
بسرعة، أسرع من حركة شعني الأستاذ، فإذا ما فاتته كلمة مما  
يقوله الأستاذ رفع رأسه من فوق الورقة، عيانه جاحظتان  
حائرتان، وشفتاه تهذلان، وينمت حوله كعريق يطلب الإنقاذ

ولم يكن يعير مكانه. يحجزه قبل موعد المحاضرة بحقية  
كنهه المقعد لأول في الصف الأول أقصى اليمين بجوار الممر  
القريب من الباب. وما أن تنتهي المحاضرة حتى يقف من مقعده  
إلى الممر، ومن الممر إلى الباب ليجري في فاء الكلية ويدخل  
إلى المشرحة أو المعمل أو المدرج الآخر ليحجز لنفسه المقعد  
الأول في الصف الأول بجوار الباب.

لم تكن حقيته تعارفه أنداء. إما على ركبته في المدرج إذا كان  
إلى جواره زميل وإذا كانت إلى جواره زميلة وضع الحقية بينه  
وبينها وفي المشرحة أو المعمل تستقر الحقية بين ساقيه، أو  
على الأرض بين قدميه

وكان يحفظ المحاضرات عن ظهر قلب كأنها القرآن. وإذا  
سأله أي زميل عن موعد محاضرة رد قائلاً: إن شاء الله ستكون  
يوم كذا الساعة كذا بإذن الله. وفي كل عبارة يطلقها يبدأها بعبارة  
إن شاء الله ويسببها بعبارة بإذن الله. وفي يوم سأله أحد الرملاء.  
كم الساعة يا صابر؟ فرد عليه قائلاً: إن شاء الله الساعة عشرة.  
ومد ذلك اليوم أطلق عليه الرملاء اسم «صابر إن شاء الله»

ثم صطوه يوماً متلساً بجريمة الجلوس في المقاعد الخلفية  
بالمدرج، ولأول مرة لا يروى إلى جواره حقيته وإنما رميلة من  
الرميلات، جالسة إلى جواره دون أي مسافة أو فصل وبدأت  
الكلبة تتحدث عن قصة حبه العريفة، وتلك الرميلة التي جعلته  
يتحنى عن مقعده في الصف الأول، بل عن ديه المسيحي أيضاً  
أعلن إسلامه وتزوجها

قلت بدهشة وذلك الفرح حين أنني بزميل من رملاء الدراسة  
أنت صابر برسوم؟ ورأيت ملامحه تنقلص كملامح رجل التوليس  
وقال بكبرياء وغطرمة: أنا الدكتور صابر برسوم!

ذلك اليوم كانت إحدى المنقبات مريضة، وأصررت على أن  
يمحصها دون أن تحلج العباءة أو الثياب حاول أن يقمها بأنه لا  
يستطيع أن يمحصها إلا إذا كشفت عن صدرها وغطها. لكنها  
رفضت بإصرار، فالتفت نحوي وقال: حاولي أن تقمعيها يا نوال.

وقلت: إسمي الدكتور نوال وليس نوال!

كنت أشفق عليه وهو طالب أما الآن فأنا أرثي لحاله.  
سمعت عنه من المسجونات قصصاً كثيرة، ومن الشاويشة أيضاً  
كيف يصح طب السحس أداة بوليسية للفهر والإيلام والتشويه؟  
حين يستخدم الطب والجراحة للانتقام أو للعقوبة! حين يقبل  
المال من أجل مسح إجازة مرضية أو عدم منحها! حين يكون  
طبيب السحس أشد حظورة من الحلال! فالجلاد يصرب ويعذب  
بحسب، لكن الطبيب يمكن أن يتر النراع أو الصدق يمكن أن

يستأصل العين يمكن أن يشوه العقل بأقراص مائة يمكن أن  
يفعل أي شيء في الموجود أو المسجونة دون أن يكتشفه أحد

سمعا عنه حكايات كثيرة من هذا النوع كما نراه وهو يسير  
في هذه السجن يعامل بات الدعاية بكلمات دبية. انعمت كل  
الرميلات في المسير على طرده لو دخل إلينا، وقالت الرميلات  
للمأمور: معنا طيبة في المسير، لماذا لا تعطوها الأدوات اللازمة  
بدلاً من أن يأتي إلينا مثل هذا الطبيب؟

وقلت للمأمور أنا مستعدة أن أمارس عملي كطبيبة وسط  
رميلاتي في المسير، ووسط السجيات الأخريات في العمار  
الأخرى، خاصة في الليل حين ينام الطبيب. لكن إدارة السجن  
رفضت. فأنا في السجن مسجونة ولست طيبة والمسجون داخل  
السجن يفقد مهنته صمم ما يفقد. يفقد إنسانيته وأدميته وحرية  
واسمه فما بال مهنته!

وفي يوم أصبت إثنان من الرميلات بالجرب عرفت المرض  
على الفور وحدثت لهما العلاج والعزل عن بقية الرميلات حتى لا  
ينتشر المرض. وجاء إليا طبيب شاب لم يره من قبل وأيد  
التشخيص وكتب لهما علاج الجرب لكن العزل لم يحدث  
وبدأت جميع الرميلات يهرشن.

ولم يعرف ما الذي حدث سمعا إشاعات عجيبة تقول إن  
بعض المسؤولين في السجن وجهوا اللوم إلى الطبيب الشاب  
كيف يمكن له أن المرض هو الجرب! كان المفروض أن يعني

تشخيص أو يكذب عليا ويقول إنه مجرد هرش جلدي عادي،  
أو لدعت ناموس أو ق، أو أي شيء إلا الجرب! ماد يحدث  
حين تسرب الأخبار إلى الخارج ويعرف الجميع أن السجن موبوء  
بجرب والأمراض المعدية؟! التقارير الطبية التي يكتتبها الدكتور  
صابر برسوم تقول إن السجن نظيف وليس به أي أمراض أو  
أوبئة.

وأحتمى الطبيب الشاب. وسمعا أنه نقل من السجن إلى مكان  
آخر وجاءنا الدكتور صابر برسوم عاضباً يهر إلى أصابع  
مرميتين المريصتين وقال بصوت حائق من قال إن هذا جرب!؟  
هذا ليس جرباً... هذا مجرد التهاب جلدي عادي... .

واقترعت منه... ونظرت في عينيه الجاحظتين... ثبتت عيني  
في عيبيه وقلت أنا طبيبة وأعرف أن هذا جرب وليس إلا  
الجرب. وقد أيد تشخيصي طبيب شاب احتفى ولم يعرف ماذا  
حدث له إذا كنت أنت تحاف من وزارة الداخلية أو من إدارة  
السجن فمحر لا تحاف ونحن لن نسكت على الوضع. إن  
صحتنا مهددة، وأنت طبيب السجن... المفروض أن ترعى  
صحتنا لا أن نهددنا. إن تصرمك هذا يتعارض مع القسم الذي  
أقسمته على نفسك أمام نقابة الأطباء أنت تخرق قانون نقابة  
الأطباء وقانون مهنة الطب وقانون الإنسانية... .

وصاحب واحدة من المسمات أنت لست طبيباً أنت جنّاد!  
وهتنت أخرى ألا تعرف ماذا تقول عك المسجونات؟ ألا

كانوا يسمونه صابر برسوم سيجارة! ولم نعلم أول الأمر ماذا يعني هذا الاسم لكن الشاويشة نبوية شرحت لنا قائلة: يمكن أن يكتب أي تقرير طبي! ليس عنه ذمة أو صمير! ربما يكتب شره! مقاس رشوة صغيرة أو «سيجارة» يوقع على إجازة مرضية!

وأصبح صابر برسوم يخشى الاقتراب من حبيبنا. وإذا بدت إحدى الرميات أنها مريضة أرسل إليها طبيباً آخر. وفي يوم رأينا يدخل العبير فطردها جميعاً في نفس واحد. رأيت وهو يجري خارج العبير يلود بذراع المعرصة. وقدم صابر برسوم شكوى صديداً لإدارة السجن. وتكلمت جميع الرميات صده. وسألني صابط المباحث عن رأيي فقلت: نحن لا نشق فيه والأفضل أن ترسلوا إليها طبيباً آخر أو لا ترسلوا أطباء على الإطلاق.

ولم نعد نرى صابر برسوم. قالته صديقة بعد أن خرجت من السجن فأطرق برأسه واختفى. تذكرته حين كان طالباً بالكلية. يدوس على أقدام الطلبة والطالبات وهو يجري ليحجز المقعد الأول في الصف الأول بجوار الباب.... رأسه يتكوى فوق الكشكول، والفلم في يده يتحرك بسرعة، أسرع من حركة شعتي الأستاذ، فإذا ما فاته كلمة مما يقوله الأستاذ رفع رأسه من فوق الورقة. عيبه جاحظتان حائرتان، وشعته تهدلان، ويتلفت حوله كخريف يطلب الإنقاذ.



أجلس على أرض الحوش الترابي أصابعي حول قطعة من الغوب لها بوز مدب. أكتب بها على الأرض حروف اسمي. أتأمل شكل الحروف. أتأمل نفسي من أبا. السجينة رقم ١٥٣٦. جردوسي من كل شيء حتى اسمي. لكنني أفضل نفسي أفضل أن أكون «السجينة» داخل هذا السجن عن أن أكون «طبيبة سجن». عن أن أكون الدكتور صابر برسوم أو أي دكتور آخر.

بعد دخلت كلية الطب وأبا أشعر بالاعتراش وسط هؤلاء الرحاح ذوي العيون الجاحظة والحفائض المتتمعة والجفون المتورمة ولعيون الحمراء، يحفظون المحاضرات طول الليل عن ظهر قلب، ويدوسون على أقدام غيرهم ليحجزوا الصفوف الأولى، يلهثون جرياً من المنزح إلى المشرحة، ويمسكون المشرط في يده، وفي اليد الأخرى يمسكون «ساندويتش». يحتصرون وقت الطعام ووقت النوم ولا هم لهم إلا الحفاظ وليس أمامهم إلا شيخ الامتحان وما أن ينتهي الامتحان حتى تنسرب المعلومات المحفوظة من الذاكرة. ويصبحون أطباء في الجامعة وفي وزارة الصحة وفي وزارة الداخلية وفي السجون. وفي العادات الخاصة يسيطرون إلى جيب المريض قبل أن يشخصوا المرض. يضعون الجيب فوق الجيب في درج المكتب داخل العيادة... ثم يموتون ناسكئة القلبية... ولا أحد يذكرهم. لا يتركون وراءهم شيئاً ثميناً... ويرث عنهم أولادهم أو زوجاتهم بعض العمارات أو بعض

الدكاكين... أو مساحات كبيرة من الأرض والطين لكن لا أحد يذكرهم... حتى أولادهم أو زوجاتهم. يشملون بالميراث الكبير أو بمشروع الزواج الجديد.

مد أصبحت طيبة وأنا أشعر بالاعتراب وسط هذا النوع من الأطباء كاصحاب الدكاكين يبيعون الصحة والعلاج لمرضى لا يمكنهم ثمن الطعام. يرشق الواحد منهم السيجار الأسود الصحم بين شفتيه ويتكلم من طرف أمه كإله مع أن تشخيصه في بعض الأحيان خطأ قد يموت المريض وقد يسقط بحسب الحالة.. وسواء مات أو عاش فليس لا بد أن يدفع مقدماً أو مؤجراً

أي مهنة هذه؟ وهل يمكن أن تكون هذه المهنة هي مهنتي؟ هل يمكن أن أصب الجنيه فوق الجنيه في درج مكنتي داخل العدة، ثم أموت بالسكنة انقليه، ولا أخلف ورائي شيئاً ثميناً؟ هل أعيش وأموت ولا أترك لأولادي والناس من بعدي إلا رقعة كبيرة من الطين يتنازعون ملكيتها؟!

مد الطفولة وأنا أريد أن أعيش ثم أموت وأخلف ورائي شيئاً ثميناً ما هو؟!

سؤال أقله في رأسي أصامي نحل التراب. ملمس التراب فوق يدي يدركني بعمولي. هي قرينة... كنت أحب اللعب في لتر ب. أصبت الماء على الأرض وأحوّل التراب إلى عجينة طرية. أحوّل العجينة إلى رأس إنسان. أصب فيها بصبغي ثقيين

يشبهان عيني جدي أنظر داخل العيسن وأضحك مع الأطفال دون الرأس في التراب وسقيها بالماء. ثم نعود إليها في الصباح فإذا يعود أخضر يخرج من كل عين.

عيب جدني كانتا بلون الرور ورثت لون عيسها من أبيها المروي. روح من هرة إلى كمر طحلة، وروحها لعسي فلاح اسمه «حش»، اسم أبيه الذي روح من الحبشة إلى مصر وهو في بطن أمه.

كانت طويلة فارعة الفامة لها شمعة وارتعاعة رأس نس من كبره. ربي بدائي لم يكن يعجبها رجل ولا امرأة في لكمر. ولا حتى روحها كان ضعيفاً مريضاً يول الدم مع البول ومات وهو شاب. لم تبك عليه. ربطت رأسها بمنديل أسود وأقسمت ألا يكون أسفاً فلاحاً. باعت خلخالها الفضي، مهر زوجها، وربطت بطنها بالحزام، حومت نفسها من الأكل ووضعت الفرش فوق الفرش وتجمع في بدنها تذكرة القطار ومصاريف المدرسة وأرسلت أسفاً الوحيد إلى القاهرة ليتعلم بناتها الست بقين معها في الكفر، وتزوجن رجالاً فلاحين فقراء يردهون بأيديهم، ويولون الدم مع البول.

وحين يعود أسفاً في الإجارة الصيفية ومعه شهادة الجاح والتفوق تسأله. كم ثريك في الفصل؟ ويقول لها: الثاني تهتف وهي تصرخ بكف يدها ولماذا لا تكون الأول؟ هل الأول أفضل منك؟ ألم تلتد بطن مثل بطني هذه؟!



تحكي لي جدتي وهي تحب بطها بكها وتصحك فائلة:

هي مرة واحدة، ومن بعدها أصبح أبوك الأول دائماً

رفعت أصابعي من فوق التراب، وبطرت إلى أعلى. رأس  
تشبه رأس جدتي مربوطة بحبل أسود. لكن الملامح مختلفة.  
والصوت مختلف. الزمن أيضاً مختلف.

يحتب عليّ الرمس فلا أعرف هل أما الطعنة التي تمت في  
لثراب أم المرأة المحسوسة داخل السجن طموتني وشابي  
وحمل مع مراحل عمري كأنما انتحمت في رمل واحد أو كأنما  
ليس هناك زمن.

أتأمل أصابعي. أسطها أمامي في الفضاء. تشبه أصابعي وأما  
طفلة. والتراب يشبه التراب الذي كنت ألعب فيه. الراحة  
نفسها. واللون والملبس فوق يدي والماء أصبه فيصح التراب  
عجبة من الطين أملاً كفي بهاء القاة الصغيرة أو التربة

في يوم خلعت ملابسني وبزلت إلى التربة لأصبح مع  
الأطمان ثم بدأت مثلهم أرف الدم مع البول.

رأت أمي البول الأحمر فصاحت في ذعر: مرض الالتهارسيا!!  
صحكت جذني فائلة: لا «هارسا» ولا حاجة البول الأحمر  
دليل الصحة ولعافية! كل الفلاحين بولهم أحمر!

ذهبت إلى الطبيب، وأعطاني إثني عشرة حبة في الوريد.  
احتفى للون الأحمر وعاد إلى البول لونه القديم الأصفر الباهت

رفعت رأسي من فوق التراب، رأيت وجه جمال عبد  
ناصر. بشرته سمراء يوربة. عينا ناعلتان لامعتان  
جالس على المقعد الكبيرة في المؤتمر الوطني للقوى الشعبية سنة  
١٩٦٢، وعن يمينه وعن يساره وجوه صارمة مشدودة كأنما  
بالأسلاك... ورن صوت في الجو يأل. من هو العلاج؟

ساد الوجوم. طال التفكير والتأمل والتحليل. هرسوا  
رؤوسهم. أحضروا المراجع والفواميس. نصب العرق من  
وجوههم كأنهم في اسحان صمت ثم تساقوا في الإجابة  
كالتلايد. يتكلمون في صوت واحد يقاطعون بعضهم بعضاً  
يهاجمون بعضهم بعضاً. يتهمون بعضهم بعضاً بعدم معرفة الإجابة  
الصحيحة، أو عدم فهم السؤال.

ما هو السؤال؟

ويتكرر السؤال. من هو العلاج؟ وتعود المصاراة من جديد  
يتسابقون للوصول إلى التعريف الصحيح أو التعريف المطلوب.  
يتحطون يتدافعون بالأيدي والأدع. ينوس بعضهم على أقدام  
البعض ليصلوا إلى المقاعد الأمامية. يرفعون أصواتهم بكل  
حدة ويضغظون على محارج الألفاظ. يصعرون الشطارات  
يفحصون الكتب والمراجع ويطوفون بالمكتبات ودر الكتب في  
باب الخلق. يتساقون في تشكيل لجان البحث والمراصة.  
يجلسون ويدخون ويضعون سائناً فوق ساق ويساءلون. ما  
المطلوب؟

ويتكرر السؤال: من هو العلاج؟... وتبدأ المسابقة وتعود  
الدائرة المفرغة لتدور!

كبت جالسة في القاعة المسيحية أرقبهم بعضهم خلع البدلة  
وارتدى جلاباب الفلاحين... أصابعهم باعثة لا تشبه أصابع من  
يمسكون المؤوس... شفافهم متوردة تهتز بيها أبواق فاحرة من  
السجائر... وكلماتهم العربية تتحللها أحياناً مصطلحات  
أجنبية..

وجاء دوري للكلام. وجهوا إليّ السؤال من هو الفلاح؟  
قلت: الفلاح هو الذي يولده أحمر.

دبّ الصمت والوجوم. تمكرت الوجوه لحظة ثم تحركت  
الرؤوس واستداروا نحوي كبت أجلس في الصفوف الخلفية...  
شاة صعيبة محبولة بلا مصب ولا لقب ولا عانة ولا شاة

رمقوا حدائي القديم، وكعبه المتآكل. أحركوا أني لا أملك  
سيارة. ولا أجرة التاكسي. ولا ثمن حذاء جديد...

على قصاصة ورق، وبالقلم «البركر» استقرت ثلاث كلمات  
إلى جوار اسمي الثلاثي: نجرز غير مطلوب!

ومد ذلك الحين أصبح الاسم في القائمة السوداء، ودخل في  
ملف أصفر بوزارة الداخلية.



رفعت الشاوشة عينيها الصغيرتين. رأيت فوقهما سحابة  
بيضاء، شامخة كالدموع جالسة في الحوش الرباعي فوق البطانية  
كعادتها. لكنها صامتة على غير العادة. وجهها أشد شحوباً

ودولاً من كل يوم. وجبر دحلت فتحة الفتاة بالصبيبة لم تمد  
يدها إلى الطعام.

صاحت فتحة: مالك يا شاوشة؟

كأنما كانت تنتظر السؤال، صهرت الدموع الحية. مسحها  
بكم معطفها الرمادي الأجرب ثم قالت:

طون الليل ساهرة إلى جوار اني المريض. جاء الدكتور وقال  
لا بد من عملية جراحية لاستئصال «الكليّة» اليمين. طلب حمين  
جيبها قبل العملية وخمسين بعدها.

ردت فتحة: حمين خمسين وماله. العلوس في قاهية!

وقالت ذوبه: العالي يرخص من أجل الولد!

ردت الشاوشة العلوس موجودة والحمد لله، لكن المشكلة  
ليست العلوس... المشكلة العملية... أما خائفة من  
لعملية... العملية صعبة.

وانفتحت نحوي الشاوشة وقالت: ما رأيك يا دكتورة؟

قلت العملية ليست صعبة. لكن هل فحص الدكتور الكليّة  
الأخرى؟

راد وجهها شحوباً كأنما أحتفى منه الدم وقالت بصوت حائر  
الكليّة الشابة ليست سليمة هذه هي المصيبة. ومسحت  
دموعها بكفها... وقالت الدكتور قال بنا تأخرنا في العلاج  
لكن الولد كان كويس طول عمره بونه أحمر. لم أكن أعرف أنه

الدم أنطين أنه سيحوت يا دكتور. أليس هناك أي أمل.

قلت: الأمل دائماً موجود، لأن أي جزء صغير من الكلية يمكن أن يشتغل ويعوض الأجزاء الأخرى.

قالت: ربما يطمئنتك يا دكتور. أنا طول الليل والنهار أفكر. إنه سي أمني البكري الوحيد، وكان يساعدي منذ موت أبيه في الجري وراء رزق إخواته.

قالت فتحة: انركي أمرك إلى الله ولا تفكري يا نبوية، الفكر يقتل القلب...

تهتدت ذوبة: الواحدة ما لازم تنسى أن لها قلباً.

قالت فتحة: لكن «الصنا» غالي!

شوت ذوبة بيديها الغالي يرحم في السجن!

صاحت فتحة في غضب اسكتني يا بت يا ذوبة اسكتني! العالي يفصل غالي والرخيص يفضل رخيص. والام ضاها غالي أغلى من حياتها أنا قتلت من أجل بتي هيه. أنا دخلت السجن مؤيد من أجل عيونها. رميت نفسي في الهلاك من أجل خاطرها. أنا أعيش لها، وأنام وأصحو بأمل أن أخرج وأراها وأصمها في صدري. لولا هي أنا كنت مت من أول يوم دخلت فيه السجن!

وقالت ذوبة وماذا استعدادات هي؟ أبوها قتل وأنت أمها دخلت السجن، وهي بقيت وحدها بدون أحد يرحاها!

أطرفت فتحة رأسها إلى الأرض وظلت صامته واحدة... عيناها شارقتان حزيتان... ثم همست بصوت خافت كأنما تكلم بنفسها: صحيح... ماذا استعدادات هي. لا شيء... خسرت أمها وأباها في يوم واحد. لكبي لم أكن أفكر فيها حين قتلته كنت أفكر... كنت أفكر في ماذا؟ لا أعرف! ربما لم أكن أفكر؟ توقف عقلي من الصدمة حين رأيته فوقها!

كانت «فوقية» قد خرجت من المبر إلى الحوش وجلست إلى جوار فتحة، فقالت بصوتها القوي ضاغطة على محارج الأعاط وكأنها تنقي خطئة أو تصرح بحقيقة علمية لا يتسرب إليها شك إنها صدمة نفسية لا شك، ومسبها طبيعة المرأة العاطمية وغيرة الروجة على زوجها حين تراه في هذا الموقف؟ كنت تعاريس على روجك لا شت! وصاحت فتحة القتالة: أنا لست مثلكم يا نساء البسدر، ولم أعرف هذه الغيرة على زوجي. أنا التي سحنت له عن روجة أخرى لتند له ولنداً، ولتساعدني في أعمال الحقل والنار! لو رأيته مع أي امرأة ما كنت قتلته لكن مع ابنتي! ابنتي حبة هيني، كندي، قلبي، لكن زوجي...! الزوج مهما كان راجل غريب.

هتفت واحدة من المحجبات في دهشة: زوجك رجل غريب عك؟!

شوت فتحة القتالة بيدها فائلة طبعاً غريب! لا من لحمي ولا من دمي!

لكن ابنتي من لحمي ومن دمي.

وضحكك دوية في سعادة والسبي كلامك صحيح يا ماما  
فتحية! أنا طول عمري أحسن أن زوجي رجل عريب عبي...  
لولا ورقة الرواح! لكن ماذا فعل؟ ربما أراد لنا الرواح وورث  
أراد لنا السجن...

وردت فتحية القتالة: كله بإرادة ربنا حتى القتل!

هتعت واحدة من المحجبات استمع الله العظيم . ربنا لم  
يقُل لك أن تقتلي... استغفري ربنا وقولي قوبة يا ربنا وانلمي  
على جريمتك!

شوقت فتحية يديها بعصب: ادم؟! أبداً لا يمكن أدم!  
والله لو رأيته أمامي الآن لقتلته مرة أخرى!

وضحك الشاويشة: أصلها قتالة بنت قتالة!

وقالت «فوقية» بصوت يشبه الوهاظ: لو لم تقتلي لكنت الآن  
خارج السجن مع ابنتك الصغيرة التي تحتاج إلى رعايتك  
وتربيتك أليس الأفضل أن تربي ابنتك بدل دخول السجن؟!

راحت فتحية واقفة وصاحت وأت يا ست فوقية أليس  
الأفضل أن تربي أطفالك بدل دخول السجن؟! على الأقل أنا  
دخلت السجن من أجل ابنتي وأنت لماذا دخلت السجن؟!

وصعد الدم إلى وجه «فوقية» وقالت بعصب: أنت دخلت  
السجن لسبب خاص بك. لسبب أناني، فردي، ولكي دخلت  
السجن من أجل الوطن والفقراء من الشعب!

وقالت ذوبة: وأولادك من يريهم ويرعاهم؟!

وصاحت فوقية رب يرعاهم! رب موجود! ثم تداركت.  
ربا موجود لكن الأطفال مشككة لأي أم تريد أن تحدم الوطن  
بها تتعرق بين واجبها نحو أطفالها وواجبها نحو وطنها وفي  
رأيي أن الواجب الوطني قبل أي واجب آخر وصاحت «بدور»  
من داخل العنبر: لو حب الديسي نحو الله والرسول قبل أي  
واجب آخر! الله قبل الوطن!

وهتعت فتحية القتالة. انتحي لي الباب يا نبوية، أنا عدي  
شعل أنا امرأة فلاحه ولا أعرف في هذا الكلام أنا قتلت  
ومعترفة أنني قتلت... قتلت زوجي لأجل نفسي... لأجل أن  
أمد نفسي من العيشة مع رجل طالم ظلمي طول عمري خدمته  
خدمة العبد للسيد. ولا همزه قال لي كلمة حلوة. حياتي معه  
كانت سوداء من أول يوم لآخر يوم... وكل يوم أفكر أبي أفتنه،  
لعابة ما رأيته مع بنتي هنية... الإنسان لا يمكن يقتل بسهولة أو  
في يوم وليلة أنا عشت طول عمري معه أفكر في قتله! انتحي  
لي الباب يا نبوية أنا عدي شعل!

قدفت لها الشاويشة بالمفتاحين وهي تقول قتالة بنت  
قتالة... كل من دخل السجن حرم الندم إلا أنت يا فتحية!  
وضحك فتحية وهي تتنفس المفتاحين في حجرها ولماذا أدم؟  
حياتي في السجن أفضل من حياتي مع ذلك الرجل! ماله  
السجن؟! السجن للجدة! ولأجدع النسوان!

وأطلقت ضحكة عالية رثاة وهي تفتح الباب وتطلق إلى فناء  
السجن الواسع.

خطواتها ثابتة قوية. شمعنها وارتفاعها رأسها وهي تمشي تلقى الأرض بكبرياء ملامحها وحركاتها اني تشبه ابنة عمتي طبيعية ويدائيه كالأرض. صلة كالأرض صوتها واضح قوي، صريع فاطم كالسكين. عينهاا تلمعان. ضحكها تجعل في الحوش الترابي..

أنظر إلى أصابعها، السمراء القوية ويخيل إلي أنها تشبه أصابعي. وقلبي يحمق كأنما بالقوة نفسها التي يحمق بها قلبها. وعياني تلمعان بالريق نفسه ويدي وهي تمسك القلم كأنما تشبه يدي حين أمسكت العأس وضربت.

كأنما كت أصرب بالقلم رأساً أسود فاسداً. أراد أن ينصب حريتي وحياتي أن يشوه نفسي الحقيقية. أن يفرض علي أن أبيع عقلي، وأقول نعم حين أريد أن أقول لا.



أصابعي ترسم فوق التراب، حروفاً ودوائر متداخلة. يدي ترتعش بالعصب. دقات قلبي تسرع لو لم تعرف أصابعي القلم ربما عرفت العأس. القدم أثمن شيء في حياتي. كلماتي فوق الورق أثمن من حياتي. أثنى من أولادي أثنى من زوجي. أثنى من حريتي.

أفصل مكاني في السجن عن أن أكتب شيئاً لا ينفع من عقلي. الكلمة الصادقة تتطلب شجاعة مثل شجاعه القتل وربما أكثر أصابعي تنفش الحروف على التراب أتأمل الكلمات التي

تدور في رأسي ما بدا لي يقباً منذ لحظة أراء الآن محاطاً بضباب الشك لا أعرف حتى الآن لماذا أنا داخل السجن. لم أر محققاً ولا وكيل نيابة ولا محام. سمعت الشاويشة تقول إنها سمعت أنهم يقولون إني دخلت السجن بسبب كتاباتي... جرمي إذن تدخل ضمن جرائم الرأي.

هل الرأي الحر جريمة؟! إذن فليكن السجن هو ملاذي الوحيد ومصيري الأخير... .

لكن هل يستحق الرأي الحر عناء السجن؟ التعب والجوع والمرض والحياة القاسية في ذلك المبر كالتقير؟ أبي وأمي وأهلي ومعارفي كلهم تصوروا أنني سأكون أنغ طيبة وأعظم أديبة... . أبي حدثت للسجاح والوصول إلى القمة وكان يمكن أن أكون كذلك. أن أحصل على أكبر منصب وأكبر لقب، وأعيش في قصر، وأملك بيتاً، وأنروح أميراً، أو حاكماً كبيراً!

لكني منذ الطفولة أكره الحكام والسلطة، منذ رأيت أبي تنور على أبي، حين رفع صوته عليها، ومنذ سمعت أبي يلعن الملك والحكومة والإنجليز.

كنت طفلة وتصوّرت أنني لا أرى ثورتها، وظن أبي أنني لا أهتم ما يقول، أو أنني سأنساه حين أكبر. لكنني لم أنس!



علمتني أمي الكتابه وأنا طفلة. أمسكت يدي في يديها وكنت الحرف وراء الحرف. حروف اسمي مرسومة أمامي على

أرض الحوش الترابي كحطبي وأنا طفلة اسمي ثم اسم أبي ثم اسم جدي ولد أبي، الاسم الثلاثي الرسمي، كتبه لأول مرة في حياتي على كراسة المدرسة. كنت طفلة، وبدأ لي الاسم عربياً وخاصة اسم جدي والد أبي. هذا الرجل العريب الذي مات قبل أن أولد لماذا يكون اسمه جزءاً من اسمي؟!

شطبت على اسمه ناقلم وكتبت اسم أمي إلى جوار اسمي. ثم اسم أمي ثم اسم אחتي وأخي. . . جاءت المدرسة وشطبت كل الأسماء من جوار اسمي لم تترك إلا اسم أبي واسم ذلك الرجل العريب الذي لم أراه في حياتي

من الطعونة وأنا أكره اسم جدي الملتصق باسمي دائماً لكن أمي كنت أحبها وأحب اسمها «زيب»، وما أن تستدير المدرسة وتعطي ظهرها حتى أشطت اسم جدي وأكتب اسم أمي.

حركت أصابعي فوق التراب ومسحت الاسم. في حقي لعاب مر. لم أكل شيئاً منذ الأمس رأيت الصرصار معدوداً في الصحن أشعر بظماً وجوع شديدين في حيالي شيء يلوح في الضوء. صحن نظيف وقطعة من اللحم المشوي وطماطم حمراء. . إلى جواره كوب من الماء المثلج الرقراق!

أحرك لسابي الجاف في حلقي وانتزع العلفم. أحرك رأسي ناحية باب العسر ألمح سريري اللوح الحشوي معلق بين عمودي السرير كيف أمام طول الليل على هذا اللوح درن أن أغم ١٩

في مؤخرة رأسي شيء أبيض كالصناب. ملأه بيضاء نظيفة مشدودة فوق سريري في غرفة يومي. . وجه روجي. . وجه ابتي. . . وجه ابني. . .

وبسرعة انقطع الضوء واحتضت الصورة قلبي ثقيل، يتراكم فيه سعدت المر معدتي حالية حاوية أحسها تحت يدي كالدمل. يدي تكاد تنفذ إلى عظام ظهري، وألم عميق كالجرح القديم يمس تحت كمي.

ولأن أنشكك من كل شيء ما جدوى الكتابة؟ حروف ميتة فوق الورق. ولمن أكتب؟ ومن يقرأ؟ هل ارتفع صوت واحد حين دخلت السجن؟!

رنت ضحكة ساخرة، وصوت خشن ساحر يأتي من بعيد: بحر في بلاد متحلقة يحكمها فرد واحد كالآله الواحد إذا أطلعتة وصلت القمة وإذا عصيته دفت في بطن الأرض!

تعرفت على صوته أحد رملاني الأبناء. وصل إلى القمة وجلس عليها.

قلت له يوماً، «كيف تقول لي رأياً وتكتب رأياً آخر. . . صحك بسخرية وقال. «أنصديق ما يقال عن الديموقراطية؟»

قلت له أصدق أو لا أصدق، فأنا أكتب رأياً ولا نهمني النتائج.

قال أنا تهمني النتائج، إني لا أريد أن أفقد موقعي، وأريد

أن أربي أولادي وأفق عليهم في أحسن المدارس

صوته مازال في أدي. ومعه صوت آخر صوت حائلي، لم  
تعلم، ستمها، روحها الرجل من ذوي الأملاك صوتها حاد يرد  
في أدي مثل ما كان يرد وأنا طفلة المرأة حياتها البيت والروح  
والأولاد، لماذا نكابرين؟ هل أنت رجل؟! أصوات أخرى كثيرة  
ترن في أدي، كأنما تأتي من قاع الدنيا وجدي بارد ثقيل كأنه  
جثة مدفونة في بطن الأرض. عينا عائمات فوقهما سحابة.  
الظلمة من حولي كثيفة. لا أكاد أرى. لكنني أسمع من البعيد  
ضوءاً حافئاً. نوراً يسمع كالبريق الحاطف. عيني تلمعان  
كالنجمين، وصوتاً يشبه صوت أمي. بل إنه صوت أمي، وعيناها  
تظفران في عيني لو لم يروجي أبي لأكملت تعليمي! كنت أحب  
القراءة والكتابة، كنت أريد أن أفعل شيئاً هاماً في حياتي وليس  
مجرد ولادة الأطفال كالقطط!

عيناها تلمعان كالشملة. جسمها خفيف نشيط. ترن ضحكاتها  
المرحة في البيت، طريفة متقطعة كشهقة طفل، عذبة كموت  
الكروان. تمرّد في الصبح حين تصحو، وفي المساء قبل أن  
نام. تزوجت أبي وهي في السابعة عشرة، وأنجبتني أنا وأחותي  
التسعة على مدى ثلاثين عاماً، ثم ماتت وهي في الخامسة  
والأربعين ماتت وهي تمسك يدي في يدها وعيناها في عيني  
تملاهما دمه... كدمه طفل!

•

ألم كالمسكين في المثلث الصغير تحت القلب، فوق المعدة  
ألم مرمس قديم منذ أمسكت أمي يدي واتمت عيناها في دمه  
ثم ماتت دون أن تمسحني اسمها. منحتني الحياة والثورة منذ  
الطفولة لكن رجلاً غريباً تزوج جدتي ومات قبل أن أولد وصع  
اسمه على كياني.

أردت أن اقرأ وتكتب وتعبر العالم لكن نهارها كان يصعب في  
المطبخ تطعم تسعة أطفال وأباهم، ثم تام لتصحو حاملاً في  
الطفل العاشر.

فمرت من سور الشرفة لقتله في بطنها، ومات محمداً في  
جوفها طعم المرارة، وألماً في صدرها، في الثدي الأيمن.  
وصمت إصبعها فوق الألم وقالت لي. هنا الألم ينخس  
كالإبرة!

نحمت يدي فوق ثديها. أصاب الشلل يدي لحظة. اتسمت  
هناها بدمه الطفل وهنت: ماذا وجدت؟!!

حلقي جاف. عينا فتعتان من حينها.

قلت: لا شيء! مجرد كيس دهني!

وصدقتني على الفور كانت تصدقني دائماً هودتي الصدق  
من الطمعة ولأول مرة أكذب عليها وعلى أبي. وعلى كل  
إحوتي وأخواتي

كتمت السر في أعماقي. في طبقات قلبي العميقة...  
بؤرتي الليل والنهار... يمزق أحشائي كسكين...

ولكن ليظل السكين في قلبي أنا... ولن أشده من قلبي  
وأعمره في قلبها... أو قلوبهم...

أراها تصحك ضحكاتها المرحّة كضحكة طفل. وفي الصباح  
تعي... لا تعرف أن الموت قابع في صدرها... يأكل خلايا  
نديها... يستمل من خلايا الندي إلى خلايا الرئة بسرعة دوران  
الدم من صدرها إلى قلبها.

ولم يكر في الطب علاج فشل الطب وفشل العلم وعجز  
أساندة الطب حتى عن تخفيف الألم...

لا بد أن تموت مغموسة في الألم....

لكن ما أن يعتني الألم لحظة حتى يشرق وجهها وتنبسم  
كطفل تظن بسداجة طفل أن الألم ذهب إلى غير عودة، وأنها  
ستهض من الفراش وتسير إلى الحمام... وتعي كل صباح...

لحظة واحدة أو انسامة واحدة تصيء وجهها بالأمل. ثم  
يعود الألم يأكل جسدها الليل والنهار... تصك يدي في يدها  
وتصغط، أو تمسك يد أبي، أو يد أخت من أخواني أو أخت من  
إخواني، أو تمسك عمود السرير وتضعط... تنبعث بصوت مكتوم،  
تتحمل الألم في انتظار لحظة الأمل....

لم تعرف أنه لموت وأنه لا حياة لها ولا أمل... لم أشأ أن  
أحرمها من بارقة الأمل من الانسامة الواحدة تصيء وجهها  
في لحظة حطمة.

ولم أشأ أن أحرم أبي ولا أخوتي ولا اخواتي، من نعمه  
الأمل، وتوقع الشفاء.

حملت الحقيقة كالجل ثقيلة كالجل أحمرها وحدي أرى  
عبوبهم المليئة بالأمل فأهزب بعيداً... وحين لا يراي أحد  
مهم أحني عيني وأبكي دون صوت حتى لا يسمع شيجي أحد

طلت تن بصوتها الضعيف الحائر الموت أرحم من هد  
الألم عيناها واستعان تشتت بعيني... تستجدون بي الأيام  
والليالي والشهور، عشرين شهراً

ملأت الحقنة بالمحلول بكمية أكبر من كل مرة قرأت الإبرة  
من ذراعها. عيناها في عيني أصمعي ترتجف... حرّكت عيني  
بعيداً عن عينيها... وخرست الإبرة في الوريد... صمطت  
السائل في دمه....

وحطرت لي فكرة جديدة ربما هناك أمل! من يدري؟ ربما  
تشفي! ربما أحضاً كل هؤلاء الأطباء... ثقتي بالطب والأطباء  
قيلة. ثقتي بأبي أكثر... ربما تنصير إرادتها على المرض وتشفي!

ومجأة تجعدت أصابعي شئت يدي. وسقطت الحقنة على  
الأرض قل أن يدخل السائل كله في جسدها.

حرّكت رأسي ناحيتها لم أر عينيها لم أسمع صوتها لا  
شيء فيها يتحرك! تهويت إلى حوارها أهمس في أذنها ممها!  
ضللت أهمس وهي لا ترد... تلمعت حولي في دعر حشيت أن  
أترك الغرفة. حشيت أن يدخل أبي أو أحد أخواني ربما يرون



الجريمة في عيني! صريات قلبي مسموعة، وصوتي وأنا أناديها  
مرب، استعطفني أن تصحو، ألا تموت، أن تنقذي..

دخل أبي الغرفة... دخل اخوتي وأخواتي.

وصاحوا في ذعر: ماذا حدث؟!!

قل أن أعترف لهم بالجريمة فتحت أمي عينيها فجأة، كما  
كانت تمتحنهما حين تسمع صوت ندائي وأنا طفلة، بل قل أن  
تسمع صوتي وتذكر أنني أناديها.. ومن أعماق نوم تصحو،  
وتنهض من فراشها إلى سريري، تطمش علي أو تعطيني.  
عاشت بعد ذلك اليوم ثلاثين يوماً. خيل إلي أنها عاشتها  
لمجرد أن تحميني.. أن تنفي التهمة.. لتؤكد لي أنها ماتت  
وحدها، وترفع عن قلبي عبئاً أو تلمأً قد يقتلي.



رفعت عسي من فوق التراب. عينا صابط المباحث نرمفانني  
في رية. ماذا نكتئبن؟ حملك في الأرض طويلاً. لم يههم شيئاً.  
حروف ودوائر متداخلة...

ظل واقفاً أمامي طويلاً يفحص بعيني أرض الحوش الترابي.  
رأى الأعواد الحصراء الرفيعة تثبت من يطن الأرض. وفي الركن  
البعيد بجوار الجدار العالي لمح القامس.

صاح بلهجر: من أين جاء هذا القامس؟

وأصدر الأوامر على الفور للشاويشة، واحضى القامس في لمح  
الصر.

قلت له الزراعة ليست مسموعة... كل المسحوبات يزرع!  
ذل: العاس متنوع.. جميع الأدوات العادة مسموعة!

طل واقفاً على عتبة الباب بين العنبر والحوش. كنت جالسة  
على الأرض. داخل العسر جلست الرميلات، بعضهم على  
الأرض، وبعضهم على الأسرة... الجميع ينظرون إليه بعيون  
صائتة غاضبة متحدية. يياض العين تشوبه صمرة التسمم ثاني  
أكسيد الكربون ودخان الجاز المحروق. روايا العين حمراء  
التهبت بالأرق والقلق والذباب. السماء جافة والبشرة شاحبة  
نمدها خطوط حمراء وررقاء بسبب الهرش الجلدي المستمر.  
الملابس صفرة بالتراب وياقة الجلابيب مرسحة.

ظل واقفاً يحملك فيا بعينين لا مراعها من خلف الطارة. وجه  
أبيض وبشرة صافية مشربة بحمرة الدم، والنصارة. شرب اللبن  
وعصير العاكة قبل أن يأتي، وأخذ حماماً دافئاً. ياقته حول عنقه  
بيضاء نظيفة بغير عرق وبغير تراب. عضلاته مستريحة مشرخية.  
نام ملء جفونه حتى الصباح فوق سرير ناعم. صرخت واحدة من  
الرميلات هذا العبر لا يمكن أن تعيش فيه إلا الحيوانات!

قالت أخرى: لا... الحيوانات نرمص أن تعيش هنا  
تعضب، تتور... وترفض!

ابشتم ضابط المباحث... وقال بصوت هادي: متأسف يا  
جماعة إن كنت أسباب لكن أي إزهاج... لكنني لست الذي  
أصدر القرار بحكم هنا... لست إلا موطناً يتقد الأوامر.

تذكرت صوت رميلي، الأديب الكبير. لست، لا موظفاً...  
الأديب موظف. المفكر موظف. الفيلسوف موظف.  
لذلك ليس عبدنا أدباء أو مفكرون أو فلاسفة ما العرق بين صابط  
المباحث الموظف والأديب الموظف. كلاهما يتعد الأوامر!  
كلاهما لا يريد أن يفقد رتبته لشهري، أو رطبته

مددت عني ورفعت رأسي. عبي نحو السماء. هفلي حر  
يتنلق إلى أعلى... أذكر كما أشاء... وأكتب بأصابعي على  
لأرض ما أشاء. لا أحد يهددي بالعصا من وظيفتي...  
لأسي بلا وظيفة. ولا أحد يهدني بالسجن... لأسي داخل  
السجن ذاته... ولا أحد يمكن أن يهدني بالموت... لأن  
الحياة التي نعيشها هي كالموت سواء بسواء

امتلاً صلدي بالهواء وقلبي بالدم، وسمعت بأدبي صريرات  
قلبي قرية حرة... أفضل مكاني هنا فوق الأرض والتراب عن  
مكان ضابط المباحث على العتبة العالية مفيداً بأعمال  
الوظيفة... وعن مكان رميلي الأديب الكبير الجالس على قمة  
الأديب وفي صدره قلب مدعور، وفي جيبه راب مهما كبر فهو  
صنيل إلى جانب قندان رأيه الحرا

ضابط المباحث مارال واقفاً على العتبة بين الحوش والعسر.  
العيون حمراء غاصبة تنطلع إليه وهو يردد: لست إلا مسدداً  
للاوامر، وأنا في انتظار الأوامر الجديدة لتأتي إلي من فوق.

هتفت اعتدال: من فوق من أين؟!

ابنسم وقال: من عند ربنا...

صاحت: لا... ليس من عند ربنا... ربنا لا يحسن الناس  
لأبرياء.

قال: ومن قال إنك بريئة؟

هتفت: أنا لا أعرف أي شيء. لا أعرف حتى القراءة  
والكتابة...

قال: ولماذا تعطين وجهك بالثقب؟

قالت: لأن الله أمرني بذلك في كتابه الكريم.

قال: وكيف عرفت ذلك؟ هل قرأت كتاب الله؟

سكنت لحظة ثم قالت: أنا لا أقرأ ولكني سمعت الراديو عند  
أسييران. وسمعت الشيخ يقول إن الله أمر النساء بتغطية  
وجوههن!

كانت اعتدال قد حكمت قصتها من قبل. لم تصدقها «بدور»،  
«أفريقية» أيضاً تشككت في أمرها.

كست جالسة أمامها، أقرب عينيها وهي تحكي. عينا طفلة في  
السادسة عشرة، وصوت طفلة...

... لا أعرف القراءة ولا الكتابة لأسي لم أدخل مدرسة في  
حياتي. أبي طلق أمي وأما طعنة لا أذكر شكل أبي. أسمع صه  
من الناس قالوا لي إنه تزوج عشر مرات. كان أكبر من أمي  
بأربعين سنة. طلق أمي وتزوج فتاة أصغر مني. أمي عنده  
ثلاثون سنة، تزوجت وسافرت مع زوجها إلى الصعيد. نبت

وحدي في افاهرة أعيش مع حدي أم أمي. عندها خمسون سنة  
لكها عيب ولا تحرج من الدار. منذ شهرين لم أكن أرتدي  
الثياب. كنت أخرج إلى الشارع بجلاب عادي وشعري عار.  
وفي يوم وأنا جالسة عند الجيران أصبت إلى الراديو سمعت شيئاً  
يقول إن المرأة المسلمة يجب أن ترتدي الحجاب والا فسوف  
يكون عقابها الدرمي الآخرة. وأكد ابن خالتي كلام الشيخ وقال  
لي القاب يا اعتدال بحميك من الدر... وارتديت القاب.  
وفي يوم الجمعة خرجت أروور خالتي. بيما أنا صائرة أمام أحد  
الجرامع رأيت أربعة رجال معهم بندق أحاطوا بي وقالوا لي:  
أدخلي إلى السيارة! قلت لهم إلى أين تأخذونني؟. ورأيت  
معهم ضابط بوليس سألي: إلى أين كنت داهية؟ قلت له: كنت  
داهية إلى حالتي. قال لي: ستأخذك إلى خالك!.. وركبت  
السيارة وجازوا بي إلى هنا...

وصاحت «بنور» في تشكك وهل صدفته حين قال لك إنهم  
سيأخذونك إلى خالك!؟

وعتقت اعتدال والله العظيم صدفته! والله العظيم أنا. أما  
أقول الحق! لماذا لا تصدقيني!

لم تكن «بنور» تصدقها، ولا «فوقية» أيضاً. كانت حينها  
السوداوان تمتلئان بالدموع وتقرب مني قائلة: هل تصدقيني؟!

أنظر في حينها وأقول: نعم.

ظلت بجلاب واحد طوال فترة السجن لا أحد من أهلها

سأعها أو أرسل إليها ملابس. تمسك قصاص الناب الحديدية  
وتبكي وحدها وهي جالسة.

وفي ليلة صحوت من النوم على صوت أنين حامت كانت  
نائمة ودموعها على وجهها وجه طقعة كعلامح استي وهي  
نائمة. وشعرها الطويل يتهدل على حافة السرير، والعطاء سقط  
من فوقها

تهصت من سريري وعطيتها فتحت عينيها وهمت. والله  
العظيم أنا لا أكذب!

رمت يدي على رأسها رقلت لها: كلما صدقت... لا تبكي  
وحاولي أن تنامي. أشرت بإصبعها الرفيع ناحية «بنور» وقالت:  
لماذا تشك في؟ رأيت وجه «بنور» وهي نائمة في سريرها. على  
حسبها ذلك الخط الرأسي العميق. تكشيرة تلازمها دائماً حتى  
وهي نائمة. وفي السرير المقابل رأيت «فوقية» نائمة أيضاً. رعى  
حسبها تقطية اتخذت شكل الخط الأفقي العميق

دائماً هذه التقطية في الليل والنهار. تزداد في الصباح،  
حين يفتح عيوننا على اليوم الحديد. تتبادل الابتسامات،  
ونحية الصباح المألوفة صباح الخير... إلا «بنور» و«فوقية».  
دائماً التكشيرة. دائماً الشقاء المرمومة المعطوبة. وإذا ما رمت  
صحكة مرحة في العير اتسعت التكشيرة، وزادت التقطية

عرها أن «الصحك» عند «بنور» عيب، وحرام. أما «فوقية»  
فهي ترم شعيتها في جدية مصطنعة وتضغط على محارج الألفاظ

وأقول لها الصحك مثل الألعاب الرياضية مثل الرقص يقوي عضلات القلب ولصدر وينشط خلايا العقل. الصحك له مركز في الجزء الأيمن من المخ إذا مرصت خلايا هذا المركز أو تكاسبت عجز الإنسان عن الصحك الصحك هو دليل التفكير وبشاط العقل الصحك يساعد على تدفق «الأدرينالين» في الدم. وسرعة دوران الدم في خلايا المخ والقلب الصحك لا يعي الاستهتار، كما أن التكشيرة لا تعي الجدية

لكن «موقبة» كاتب عاجزة عن الصحك و «بدور» كانت رافضة أن تصحك وإذا صحكتم رغم أنها استعادت بالله من الشيطان الرحيم وأحبت قمها بكمها قائلة. اللهم أجعله خيراً يا رب!

رغم التشابه بينهما كما كالمقطيع المتافرين. يتجاذبان ويتنافران ويتافسان على زعامة العنبر

يحتلغان في رؤيتهما للحياة وحركة التاريخ. «بدور» ترى أن الله محرك كل شيء. وترى «موقبة» أن الاقتصاد هو الله.

وصرخت «بدور»: كاهرة! ملحدة! لا تركعين ركعة واحدة لله! ويدب التراجع بينهما والتناحر لكن سرعان ما يتجاذبان تغترب الواحدة من الأخرى في الملامح والصمات، والرغبة في السيطرة، والهروب من المسؤوليات. . . تسعى الاثنان لسيطرة على العنبر، وتهرب الاثنان من المسؤولية والعمل

كانتا تعصلان بين السيطرة والمسؤولية. «بدور» ترى أن الله هو المسيطر على كل شيء والمهيمن على كل ما في الحياة من خير وشر، لكن الله غير مسؤول إلا عن الخير، والشيطان هو المسؤول عن الشر والظلم في العالم.

و «موقبة» كانت ترى أن الزعيم غير مسؤول عن الأفعال الصغيرة مثل غسل الصحون بعد الأكل لا بد أن يكون هناك الخدم حتى يأكل الزعيم ويستريح بعد الأكل ثم يحض في الجماهير كانت تقّس الزعامة كإله والإله لا يحطى. وهو مسؤول عن النصر فحسب، أما الهزيمة فنرجع إلى عدم الوعي لدى الجماهير!

كانت كل واحدة فيما تعمل صحتها بعد الأكل وتضع سريرها بعد النوم إلا «موقبة» و «بدور» تنتظران حتى تأتي «دوبة» لتقوم عنهما بالعمل. وإذا لم تأت «دوبة» ظل لصحن ملقى في الحوض قلداً إلى أن تعسله واحدة أخرى وطل السرير مكوشاً يعطيه الدباب والتراب إلى أن تنفض إحدى المسجوبات

لم يكن عندما ماء ساحر، ويضطر للاستحمام بالماء البارد تحت الدش إلا «بدور» و «موقبة» لا بد لهما من ماء لساحر. ولا بد أن تحمل «دوبة» الجردل على رأسها وتأتي بالماء الساحر من الماسورة تحت المدحفة وإذا لم يوجد الماء الساحر أسوعاً أو أكثر يقيتا بدون استحمام.

وملاسهما أيضاً نظل بدون عسل حتى تأتي دوبة

وما أن تظهر دويبه حتى تهتف بها «بدور» قائلة. أين الماء  
الساحر؟ منذ أسبوع وأنا أطلب ماء ساحراً لأستحم. هل أبقى  
أسبوعين بدون استحمام في هذا الجو الهبّ؟ أما «هوقية»  
فتناولها كوماً من الملابس المتسخة وتقول بلهجة من تعود أن  
يعطي أوامر للخدم «هسلي ملاسي سرعة واشريها في الحوش  
في الشمس لتجف قبل أن تعلق لشاويشة الباب»



دات يوم صرخت «بدور»: إنها جاسوسة! . .

ردت عليها واحدة من الممقات كيف عرفت أنها جاسوسة.  
هل عندك دليل؟!

قلت «بدور» وهي تحرك السبحة في يدها: دليلي هو الله.

قالت: هل «الله» هو الذي قال لك إنها جاسوسة!!

قالت «بدور» نعم ردت لكن الله قال لي إنها ليست  
جاسوسة.

ردت بدور بعصب لكن «الله» لا يحاطب إلا ذوي القلب  
لنقي

وصرخت المرأة المنقبة: قلبي أنقى من قلبك!

وصاحت «بدور»: أسكتي يا فرماوية!

وردت المرأة المنقبة. أنا فرماوية يا خومينية! يا هلوية!

وأخذنا نتبادلان الشهم المحجبة التي لم نسمعها أمماً

ولأسماء التي لم تطرق آذاناً سمعت واحدة منهما تقول

للأخرى يا سماوية! ظلت أنها تتهمها بوضع السم في الطعام،

بكن انصح لي فيما بعد أن السموي اسم أحد القيادات الدينية  
مثل المراموي . .

وقالت «هوقية». المباحث تضع دائماً في كل عسر جاسوسة  
ننقل إليهم الأحبار.

قلت ولماذا تكون اعتدال هي الجاسوسة وليس واحدة أخرى  
غيرها؟

وقالت زميلة أخرى إنها فتاة صغيرة مكينة فقيرة وليس لها  
أحد.

ردت «هوقية» هذا هو النوع الذي يستخدمونه دائماً، يختارون  
واحدة فقيرة ليغرونها بالمال إن الفقر يضعف مقاومة الإنسان  
أمام إغراء المال.

قلت: ليس دائماً. والعكس أيضاً صحيح، فإشراء قد يجعل  
الإنسان أكثر رغبة في المال لا يمكن أن تتهمها دون دليل.

وقالت إحدى الرميلات هذا ظلم مثل العلم الواقع علينا.  
نحن هنا في السجن حكموا علينا بالتأمر على الوطن ولعنة  
الطائفة دون أي دليل. فهل نعمل معها ما نرفسه ونلعه كل يوم؟  
وكيف يكون فقرها هو المبرر الوحيد لشكوكك فيها أنت التي  
تدافعين عن الفقراء؟!

وقلت إحدى الممقات اعتدال فتاة مؤمنة ترتدي النقاب  
وليست جاسوسة وصاحت بدور ليس كل من ارتدت النقاب  
تكون مؤمنة.

وبدا العراك من جديد... والانتهاكات.. والتشنجات  
لهيستيرية...  
ولم يكن من مكان أهرب إليه... لا ليل ولا نهار..



كان السجر في حيالي هو الوحدة، هو الصمت الرنانة  
المفردة... يعيش فيها الإنسان وحده يكتم نفسه يذوق الجدار  
ليسمع دقة جواره على الجدار.

لكي لم أكن أستمتع بالوحدة أو الصمت إلا بعد منتصف الليل  
وقبل أذان المعجر لم أكن أستطيع أن أعلق بأنا مبني وبين  
الأحريات حتى وأما في دورة المياه

إذ توقفت «بدور» عن الشجار مع رميلاتها بدأت في تلاوة  
القرآن بصوت عال وإذا نامت «بدور» استنقظت «فوقية» وبدأت  
تناقش وتحطط. وإذا نامت «فوقية» نهضت «بدور» لتؤذن للصلاة  
وقيام الليل...

في ليلة امتد الشجار بين «بدور» ورميلة لها حتى الفجر. لم  
يته إلا بإغماء «بدور» بعد اصابتها بتشنجات عصبية عيفة مرقت  
شعرها، ومرقت وجهها بأطرافها وهي تصرخ إلى أن فقدت  
الوعي.

في الصباح ما أن فتحت الشاويشة باب العبر حتى هتعت بها  
أريد أن أسفل إلى رسالة مسعرة لا أريد أن أبقي في هذا  
العبر.

تكرر إدارة السجر وفصت طلبتي وأدركت أن التعذيب في  
السجر لا يكون بالوحدة والصمت ولكن التعذيب بالصجيج  
والأصوات أشد.

وطلت الرنانة المسعرة تلوح لي كحلهم بعيد المال  
مد الطفولة وأنا أعشق الوحدة. لم تكن لي غرفة أعنفها على  
مسي عدد الأشخاص في كل مراحل عمري كان يزيد عن  
الحرف في البيت لكي كنت أشرع لمسي مكباً أحده فيه  
لأكتب

ارتطت القنطرة على الكتابة بالحلوة الكاملة مع مبني وأعجز  
عن الكتابة حين أعجز عن إعطاء مبني لوحدة عطاء كاملاً

بعد منتصف الليل، وحين يهدأ الجو، ولا أسمع إلا صوت  
الأنفاس النائمة المعتظمة أنهض من سريري، وأسير على أطراف  
أصابعي إلى الركن المجاور لدورة المياه، أقلب الصفحة الفارغة  
وأجلس على قعرها أصح الصحن الألومنيوم فوق ركعتي وأسد  
عليه ورقة التواليت الطويلة كالشريط، وأبدأ الكتابة.



في السجر تظهر حقيقة الإنسان يقف عارياً أمام نفسه وأمام  
عبره تسقط الأقنعة. والشعارات... في السجر يكشف  
المعدن الحقيقي لشخصية، خاصة في الأزمات

فتشت الصابطة رميلة لما تعتيشاً جسدياً فعثرت على ورقة  
صغيرة لم تكن إلا رسالة قصيرة من الرمييلة إلى أمريتها، تسألهم

عن صحتهم، وتعلمتهم على صحتها..

لكن إدارة السجن هاجت وثارَت لا بد أن في عبر السيامة  
قلماً وورقاً!

وهجمت علينا فرقة التفتيش، تفتح الحفائب وتقلب المراتب،  
وتترع الحجاب والقباب والعباءات .

وصرخت زميلة من المنقبات حين كشفوا شعرها أمام الرجال  
من إدارة السجن قائلة: يا كفرة!

أخذوه إلى ريانة التأديب سمعنا صرايحها من بعيد وعرفنا  
أنهم ضربوها هددنا جميعاً بالإضراب عن الطعام حتى تعود  
الزميلة إلينا .. وكسوع من الاحتجاج على صريها إلا «بدور»  
و «فوقية».

قالت «بدور» الإضراب نوع من الاحتجاج وأنا لا أشترك في  
أي احتجاج ضد السلطة .. أما لا أحاطب الطاغوت. لا  
أخطب إلا الله .. ولا أشكو لأحد. الشكوى لعير الله مدلة!

وقالت «فوقية»: سوف يقابلون الإضراب بمزيد من القهر  
لنا... وربما يضربونا جميعاً في رماين التأديب ويضربونا...

لكن الرميلاات رفضن مطلق «بدور»، ومنطق «فوقية». قانون  
السجن لا يسمح بالضرب ولا التعذيب الجسدي. لا بد أن نملن عن  
رفضنا وعن احتجاجنا لو سكتا هذه المرة فسوف يشجعهم  
سكوتنا على تكرار الإهانة، وتكرار الضرب .. لنستخدم أي  
سلاح في أيدينا . وإن كان مجرد الامتناع عن الطعام.

عجربا عن وقاع «بدور» قالت بحسم لا فائدة من أي  
احتجاج إنهم طواغيت: سوف يسحقهم الله إذا شاء.

لكن «فوقية» كانت أكثر وضوحاً وحين حاصرتها الرميلاات  
بالأسئلة، وكيف لا تخضع لرأي الأغلبية وهي التي كانت ترفع  
شعار العمل الجماعي والتضحية من أجل الآخرين. قالت  
بصوت صميف لم يكن هو صوتها في أي وقت آخر: أنا مريضة  
ولا أحتمل الإضراب! ورددت في سريرها تنثر وتشكو ألماً في  
صدرها إلا أن باب العسر فتح فجأة . ورأيت الشاويشة  
ومن حلقها الرميلاة تدخل إلينا قفروا جميعاً نعانقها مرحلات  
بمردتها إلينا..

قفزت «فوقية» من سريرها أيضاً وعانقتها...  
وفي قفرتها نسيت أنها كانت مريضة.



قبل العجز صحت على صوت «بدور» يقول.  
إنهضي للصلاة... الصلاة خير من النوم...

قلت بصوت حائر لست نائمة، أنا مريضة، صبروني ها...  
على رأسي. رجال وساء يحملون العصي العليظة لم أر  
وجوههم. لكنني سمعت أصواتهم شدوا الذئب من فوق  
رأسي.. تهذل شعري أمامهم.. حسأت شعري بيدي وذراعي.  
ليضربوني حتى الموت لكن شعري لن يراه الرجال! شدوني من  
شعري على الأرض حوَّطوا عنقي بأيديهم وكدت أحسق داسوا  
بأفهامهم على مطارتي . لا أرى بدون مظارة. عندي صداد

شديد. ومرص في كل جسمي. في رأسي وعفني وعمودي  
النفري..

عاد صوت «بدور» يقول: انهضي وتوصني لتصلي لا تقولي  
بك مريضة الصلاة تنفث من المرص. الله هو الذي يهني. لا  
تكتبي أي شكوى لأي أحد. الله موجود. إذا كنت بريئة ف سوف  
يسمرك الله. لا تقولي إنك لم تعلمي أي ذنب لا بد أنك فعلت  
ذنباً في حياتك ونسيت. لا يمكنك أن يعرضك الله للألم أو  
المذاب أو السجن أو يصرب دون ذنب. الإنسان مذنب دائماً  
ولا بد أن تطلبي المعفرة من الله. فالتوبة واجبة سواء عملت ذنباً  
أم لم تعمدي دماً. مادام الله قد طلب منا أن نستغفره فلا بد  
أن عملنا ذنباً. الإنسان آثم بالطبيعة وإلا لما كاد هناك توبة أو  
معفرة. قلتي أستعمر الله ثلاث مرات، وقومي لتصلي لا بد أن  
تقومي الليل للصلاة ولا يكفي الصلوات الخمس. إذا وجدت  
الماء مقطوعاً تيممي. اللين يسر وليس عسراً. والوصوء بالماء  
ليس ضرورياً. فالماء لا يهم. ولكن المهم أن تذكر الله بالليل  
والنهار. وقيام الليل خير وأغنى من النوم. وأنت ذهبت إلى ربة  
التأديب لأنك لا تقومين الليل ولا تحفظين القرآن. قلت لك أكثر  
من مرة لا بد أن تحفظي من القرآن سورتين كل أسبوع. هذا  
واجب مقدس. من لا تفعله لا بد أن تصرب على قدميها خمسين  
ضربة. من يدري لعل الله أراد لك الصرب بيد آخرين لتكفري عن  
ذلك. لا يكفي أن تعطي وجهك بالنقاب. لا بد أن تطهري قلبك  
من وسوسة الشيطان. المرأة أقرب إلى الشيطان من الرجل، وعن  
طريق حواء استطاع إبليس أن يصل إلى آدم. المرأة حدثت من

صنع أعوج ولا تستقيم إلا بالصرب الموجع. واجبيها لسمع  
وطاعة دون اعتراض ولو بطرفة عين، أو بتكشيرة عصب  
التكشيرة توجب الصرب عشرين ضربة على القدمين.

ورأيت الفتاة تهضم من سريرها. تمشي وظهرها محني  
راحية دورة المياه. تتحسس الطريق بيديها وقد فقدت بطرة  
نصرها. ارتدت العباءة والنقاب. ووقعت حلف «بدور»  
تصلي وتستغفر الله على ذنوبها.

الشاويشة سوية كانت تدهشي أحياناً بمواقف شجاعة تقف  
فيها إلى جانب الحق ولا تحشى سطوة إدارة السجن. لم تكن  
كثيرها من الشاويشات الأخريات تقبل أي رشوة. ولم تكن تقبل  
أن تصرب مسجونة وإن أمرها المسؤول بذلك.

قالت مرة واحدة سمعت الأمر وصريت مسجونة في رتبة  
التأديب ثم عدت إلى بيتي وقلبي فيه وجع. ومرصت في البيت  
أسوعاً. ومن بعدها لم أصرب أي مسجونة. حتى ولو  
هددوني بالرفد لا أصرب أبداً. وأنا أتناجر مع أبي حين  
يصرب قطعاً أو كلباً فما بال الإنسان؟

كانت «بدور» جالسة إلى جوارها تسمع كلامها فقلت لها:  
«قلبك طيب يا شاويشة سوية وسوف يجاريك الله حيراً.  
طلب الله ما الرفق بالحيوان والإنسان وجميع مخلوقات الله»  
قلت: إلا مخلوق واحد المرأة!



وهذه الشاوشة: لماذا المرأة؟

كنت لأبها خلقت من ضلع أروح ولا تستقيم إلا بالصربا  
وصحكت، وصحكت الشاوشة والزميلات... إلا  
«يدور» ظهرت التكشيرة بسرعة على جبهتها على شكل خط  
رأسي عميق. وقالت: المرأة ناقصة عقل ودين!..

قالت لها الشاوشة: وأنت! أأنت امرأة؟

صاحت: لا!



## الجزء الثالث

### اختراق الحصار

بدأت حيوط المحر تمرق عباءة الليل المطلمة. أقعد وراء  
الباب الحديديّ أدمن أنفي بين القصص العظيمة السوداء. أتشم  
سحمة هواء.. أتذكر منظر الأسد المحسوس في حديقة الحيوان  
يدس رأسه الكبير بين الأعمدة الحديدية. ثم يدور ويدور حول  
القضبان دون توقف... .

وأتذكر منظر «الدب» داخل القمص الحديدي، ومنظر «التمر»،  
وكل الحيوانات الأخرى...

أنظر إلى أصابعي وأنا أمسك القضبان الحديدية. أطايري بمت  
وطأت كالمخالب لم أقصها منذ دخلت السجن المخصص من  
«الممنوعات»، لأنه من الأدوات الحادة

أتأمل أصابعي في دهشة! لم تكن لي هذه الأطافر في يوم من  
الأيام! هل هي أطايري أم مخلب حيوان.

شعري أيضاً طال ولا ميس عتي وكنتفي من الخلف. شعر  
مكوش عري كشر الأسد

اتحسس وجهي بأصبعي أنمي أيضاً أحسه تحت يدي  
ممدوداً بين القصاص وكأنه طال كزلومة الفيل!

نسست شكل وجهي لم أر وجهي في المرأة منذ دخلت  
السجن المرأة من المموعات، لأنها من الأدوات الحادة!

اتحسس درعي وصاقي البشرة سمراء عليها خطوط ررقاء  
وحمرات على شكل أطامر هل أهرش بالليل وأنا نائمة؟ هل  
انتقلت إليّ عدوى مرض الجرب؟

أمد أنفي خارج القفص أهرب به بعيداً عن رائحة الجواز  
المحروق، وعصوية القمامة في الأركان، ورطوبة الأرض  
الإسمنت واللأط.

أطل واقفة وراء القضبان..

أشعر بالتعب من طول الوقوف... أنمي جسمي وأجلس على  
الأرض الصلبة... أسند جسمي إلى القضبان.. أطل جالسة  
جامدة كالجدار. الزمن أيضاً كالجدار.

أشعر بالتعب من الجلوس أورد جسمي وأقف أنمشي في  
العسر... جميع زميلات نائمات... المعز لم يؤذن بعد...  
«بدور» لا تزال نائمة... ملامحها مستسلمة للحزن... الأجسام

كلها مرتحة والوجوه شاحبة دالة... استسلام كامل للنوم  
الحزين الطويل

قلي ثقيل... إلى متى يمتد بنا الزمن في هذا القبر؟!

الزمن لا يتحرك، كهذا السقف الأجرب فوق رأسي، تتدلى  
منه لمة كهربية، مشتعلة ليل نهار، كالعين الحمراء المجاحطة،  
يلتف حول عبقها حل أسود، التصق به الدباب السائم أو  
الميت

مد متى وأنا في هذا القفص الحديدي؟! متى كانت الديلة  
الأولى؟ مد الأحد ٦ مستمر، واليوم ماذا يكون؟ لا أعرف اليوم  
ولا التاريخ ولا الساعة في السجن يفقد الإنسان الإحساس  
بالتاريخ والزمن.

أنا هنا منذ زمن بعيد منذ قرن. منذ ألف عام منذ  
ولدت ومنذ عرفت شيئاً اسمه الزمن.

مد كسروا الباب بالقوة وحملوني في السيارة في تلك الرحلة  
المجهولة في الظلام..

مد ذلك اليوم وأنا هنا، ولا أحد يقول لي لماذا لا أحد  
يوجه لي اتهاماً لا أحد يجيب على الأسئلة سوى نحن في  
انتظار التعليمات من فوق. نحن في انتظار أوامر جديدة.

وما هي الأوامر العديدة؟ فرار التحفظ! ماذا يعني فرار  
«تحفظ»! يعني الحبس داخل البرانة وراء القصاص غير تحقيق،

قلت: أنا مصحمة!

ضحكت إرادتك كبرادتي. حين أصمم على شيء... يا إلهي.

\*

قضيت ليلة كاملة أكتب رساله إلى أسرتي... إلى زوجي، وابنتي، وابتي. رسالة طويلة أفرغت فيها عقلي...

\*

مصت الأيام والليالي دون أن يصلني أي رد. تلتقي عيالي بمسح فتحة القتالة ولا أقول شيئاً عينا الشاويشة ترقبان وأدماها مرهقتان في عيبيها نظرة ريبة وشك... وفتحة تتعادي النظر بحوي. لماذا تحشى النظر في عيبي؟! هل وصعت ثقتي في غير محلها؟! هل سلّمت فتحة رسالتي إلى الشاويشة أو إلى إدارة السجن؟! السجن!

ليس من طبعتي أن أنشكك. الإنسان عدي بريء حتى تثبت لإدانته. وحين كنت أطر في عيبي فتحة أحسن أنها صادقة، وأنها إنسانة، وأن لديها شهامة!

هل كانت أحاسيسي كادبة؟! في جميع مراحل عمري كنت أثق في أحاسيسي لا أفترق بين العقل والإحساس. الإحساس لسليم هو العقل السليم. أحياناً يعطى العقل لا يعرف إلا لأرقام والمنطق المحدود لمألوف والموروث لكن الإحساس

بغير رسائل من الأهل ولا زيارات، ولا صحف، ولا راديو، ولا حروح إلى ماء السجن حسن مطلق كامل بغير حقوق إنسانية ولا قانونية... حسن مطلق لا أحد يعلم متى ينتهي إلا رجل واحد، هو لدي أصدر قرار التحفظ وهو الوحيد القادر على إلغائه أو تغييره.

لأول مرة يتجسّد أمامي معنى «الحكم العردي» أو حكم الفرد الواحد لأول مرة يتجسّد أمامي شكل الديكتاتورية

كنت أرفضها فكرة وأسلوباً ونظاماً... لكنني أصبحت الآن أرفضها بكل كيامي. أرفضها بكل رغبتني في الحياة والحرية... أرفضها بجسمي وعقلي...

لكن كيف يتحد الرقص عملاً إيجابياً؟ كيف أخترق الحصار المضروب حول عقلي وجسدي؟! لا أستطيع أن أخرج جسدي من بين القضبان الحديدية...

لكنني أستطيع أن أخرج عقلي...

وبدأت فكرة الاختراق تتولي عيني همست في أذن فتحة القتالة فتحة، أريد أن أبعث برسالة إلى أسرتي... هل هذا ممكن؟! ممكن!

همست فتحة. كل شيء ممكن.

هفت بدشة: داخل السجن؟

ضحكت داخل السجن مثل حمارح السجن... كل شيء ممكن... المهم التصميم..

لسليم هو لعقل الأعمق هو الحسن الإنساني ولشعور والنصر  
والبصرة وتراكم المعرفة والتجربة.

لكن الشك يريدني عقلي يوماً بعد يوم ربما رسمت لفتحة  
ملاح من عندي! ربما هي جاسوسة!

صعد الدم إلى وجهي شعرت بدعر مفاجيء فقدت الثقة في  
حكمي على الناس والأشياء!...

أحس أني أسقط وأهيار قلبي يدق حديقي جاف  
أصابني ترنجان... انسمت «فوقية» في انتصار وهمست في  
أذني قلت لك إنها جاسوسة! كل من يدخل إليها ها  
جواسيس... لا تثقي في أي واحدة!...

الجدران والفصان الحديدية تطبق علي من كل الجوانب.  
أحسك بالشك والجار المحروق... لا أرى وجوه بشر ولكن  
مساحات من السواد وثقوب تطل منها عيون حمراء كعيون  
الشياطين.

وجه محبة أصبح يشبه وجه إبليس قاتلة ست ماثلة كما  
تقول الشاويشة. وصحت لي السم في كلامها المعسول.

تقلبت فوق اللوح الحشوي لا يغمص لي جسم أدركت أن  
استعذب داخل السحر لا يكون بالقصاص، ولا الجدران، ولا  
الحشرات اللادعة، ولا الجوع ولا العطش ولا الإهانة ولا  
النصر.

لسجر هو الشك ولشك هو العذاب الأكيد الشك  
هو الذي يقتل العقل والجسد. ليس الشك في الآخرين...  
ولكن الشك في النفس السؤال المحيّر المدمر للعقل هل  
كنت على صواب أم كنت على خطأ!؟

هل صدقت «فوقية» في شكوكها وهل أخطأت أم الحكم!؟  
فتحت عيني في الصباح على صوت المفتاح يدور في الباب  
ثلاث دورات لم أنهض من سريري. ولم أمارس الرياضة  
يومية، ولم أستحم تحت الدش ولم أشرب الشاي ظلمت  
مسدودة فوق لسير. في حلفي مرارة وفي قلبي عضة  
هتعت الزميلات في دهشة عربية!؟ هل أنت مريضة!؟

قالت واحدة: إذا مرضت الطيبة فهذه النهاية!  
صاحت أخرى: كنا مرضا إلا أنت. وقد جاء دورك!  
لم تصدق واحدة منهن أنني مريضة بالفعل. لكن ما أن نظرن  
إلى وجهي حتى دب الصمت. لم أعرب ماذا كان شكل وجهي.

وسمعت صوتاً حنوناً يقول: هل تبلى الطيبة!؟  
صوت آخر أكثر حناناً. هل أصنع لك شاياً؟

حتى «بدور» و«فوقية»، رأيتهما إلى جواربي... ولأول مرة  
أرى ابتسامة رقيقة على وجه «بدور» كانتسامة الأم لطفها  
وسمعتها تقول: سأعطيك بطانية من هندي، لا بد أنك أخذت  
برداً....

و «موقية» أيضاً، تلاشي الخط العميق في جبهتها، وقالت  
بربه قذت لك حافظي على صحتك! هذا الدش المارد كل يوم  
هو الذي أمرضك!

والشاويشة نوية، وضعت يدها المعروفة على رأسي وقالت.  
جسدناك والله... سأقرأ لك سورة ياسين!

ورأيت وجه فتحة، فأغمضت عيني. لا أريد أن أراها. لكنها  
اقتربت مني وهمست في أذني: هندي لك رسالة!  
وقفرت من السرير!

\*

سبقني بخطواتها الواسعة السريعة إلى دورة المياه. رجعت  
جلبابها الأبيض ومدت يدها لتعك حزاماً حول مطها...

قمر قلبي من تحت ضلوعي وأنا أرى الورقة المطوية بين  
أصابعها... هانقتها وكذت أخفها بلراعي.

همست: اقربها بسرعة ثم أحرقها في المرحاض.

\*

وقفت في المرحاض الضيق المحروق بالرائحة العمة، وقفت  
بين قدمي الثقب الطامع بمياه المجاري والصراخير، وحنيني  
الجدار الأسود ذي الشقوق، وأمامي نصف الباب المكسور،  
وقفت لا أشم الرائحة ولا أرى الجدار الأسود، ولا أعرف أين  
أنا وقمت أفتح الورقة المطوية... أصابعي ترتعش... قلبي

بحرق بآلاف الأحاسيس... عيشاي رائعتان لا تريد  
الحروف... لا أرتدي نظارة القراءة. والحروف تهتز أمام  
عيني كأن يني وبينها ماء...

مسحت عيني بكم جلبابي. أدركت أنها الدموع...  
وبدأت الحروف تبدو واضحة... تعرفت على خط روجي،  
وحط ابنتي، وحط ابني. أنفاسي تسرع كأسى أشفق.  
وصدري يحرق بالدم، وضربات قلبي كدقات الطول... أقرب  
سورقة وأشمها... رائحة ابني، وابنتي، وزوجي... رائحة  
بني... رائحة كتيبي وأوراني وسريري... رائحة كل حياتي التي  
حلتها من ذاكرتي ليلة دخولي السجن.

زوجتي الحية... ماما العزيزة... حبيتي ماما...

وتوقفت قليلاً ألتقط أنفاسي، وأمسح دموعي ثم قرأت الرسالة  
في نفس واحد حفظتها عن ظهر قلب، لأرددها بيبي وببي  
نفسى... لأحفر كل حرف وكل كلمة في ذاكرتي قل أن  
أحرقها.

أشعلت هود ثقاب... قرئته من طرفها... عيشاي تدعان  
السطور وهي تخترق كلمة كلمة، حرفاً حرفاً... حتى  
نهايتها... طافت كاليفج السوداء فوق الثقب لعفن في بطن  
الأرض...

في الليل أغمضت عيني وتصورتها أمامي، وبدأت أسمع  
الصوت الدافئ يقول: عدنا نحن الثلاثة إلى البيت في تلك الليلة

فوجدنا الباب مكسوراً، وأنت غير موجوده. اسندنا بالفرع ماذا حدث لك. خرجنا إلى الشارع تبحث عنك. قابلنا أحد الجيران قال لنا إن عدداً من رجال البوليس المسلحين كسروا الباب وأحدوك في السيارة لا أحد يعرف إلى أين بحثت عنك في أقسام البوليس، ولمباحث. لا أحد يعرف شيئاً أحد المحررين قال لنا: ابحثوا في سجن طرة دعنا لم نجدك هناك قرأنا في الصحف أن المسؤول هو مكتب المدعي الاشتراكي، في وزارة العدل، في لاطو علي دعنا إليه في اليوم التالي رأينا طابوراً طويلاً من الآباء والأمهات والأرواح وغيرهم من الأهالي.

طابور طويل واقف أمام أحد الأبواب. وقفنا معهم حول النهار. ثم صعدنا سلماً خلف المبنى الضخم، يشبه سلم المخدم في العمارات الكبيرة. دخلنا من باب يقود إلى طرقة طويلة يجلس فيها سائح أو فزاش وراء مكتب صغير. أمامه عدد من الامتعارات. رفع رأسه وقال: ما المطلوب؟ قلنا له المطلوب أن نعرف أين أنت؟ قلت الامتعارات ثم شد من ييها امتعارة وقال املاؤا هذا الطلب واتركوه هنا على المكتب، ثم عودوا بعد يومين أو ثلاثة لتأخذوا رقم الطلب! صرح أحد الآباء كان يبحث عن ابنه وقال لا فائدة من هذه الطلبات! سأذهب وأبحث بنفسي غادرنا المبنى آخر النهار. وبدأنا البحث. ظللنا نبحث عنك ثمانية أيام كاملة ثم سمعنا أنك في سجن النساء بالفناطر. جئنا إلى السجن وتركنا لك مع المسؤولين حفيّة بها ملابس لك وحذاء كدوتش. الرياضة داخل السجن ضرورية لا زلنا لا

نصدق ما حدث. كانت صدمة عيجه لنا مدد عنك انهالت علينا لبرقات والتفجوات من جميع أنحاء العالم. هناك حملة عالمية كسرة في صفك، ومظاهرات من النساء أمام السفارات، المصرية بالإمرح عنك، واتحادات الكتاب والصحافيين والأدباء، وكل من قرأ رواياتك وكتبك هناك حملة في صفك وفي صف كل لمعتقبيس والناس هنا أيضاً يسألون عنك كل يوم. . . ولجبران والأصدقاء، والأقارب. موقفك قوي للمعابة تأت كاتبة مستقلة وروائية معروفة ومناصرة من أجل حقوق المرأة وحرية الإنسان.

بدأ المدعي الاشتراكي التحقيقات وكُنّا عنك أحد المحامين الممتازين لا يعرف المحامي حتى اليوم ما هي التهمة الموجهة لك، ولا يعرف اليوم أو الموعد الذي ستخرجين فيه للتحقيق أدم المدعي الاشتراكي لكنه يذهب كل يوم إلى مكتب المدعي الاشتراكي حتى يكون في انتظارك إذا حضرت في أي وقت أساسي المحقق عن علاقتك بالعنة الطائفية فهذا هو السبب لرسمي الذي نشر في الصحف لتبرير الاعتقال. تقابل المحامي كل يوم وسوف ترسل لك ناعاً ملخصاً لرايه. يقول لك المحامي صمسي وسيكون معك أثناء التحقيق. يتوقع أن التحقيق لن يتعرض لكنك ولكن ربما يتعرض إلى المقالات التي كتبتها في صحف المعارضة سوف نبحث عن هذه المقالات بين أوراقك، ورسول إنيك صوراً منها لتعبيدي قراءتها قبل التحقيق كما نود أن تكون المحاكمة علنية ليسمع الناس رأيك، لكن المحاكمات لا

تشر على الناس حامطي على صحتك كلنا بحير وفكر فيك  
كل يوم. تحبك ومنتظر عودتك إلينا!



ارتديت الحذاء الكاوتش وبدأت التمرينات الرياضية. تحولت  
الحركات الربضية العيقة إلى أشه ما يكون بالرقص نظرت  
الشاويشة في عيني وقالت بدهشة.

يا إلهي! كنت مريضة منذ ساعة! ظلت لك الطبيب!

قلت بدهشة طبيب! أي طبيب يعالجني وأنا نمسي طيبة؟!

قالت: طبيب السجن!

قلت: وهل أنا في السجن؟!

صاحت: سبحان الله! أين أنت؟

قلت: أنا في السماء يا شاويشة!

وسمعت في الجو تغريد العصافير.



إذا كانت الأصوات الحرة الملتاعة عن حرية الرأي والكلمة  
قد ارتفعت في كل مكان من العالم تطالب بالإفراج هي وعن كل  
من دخل السجن بذوب محاكمة وبدون تهمة وبدون جريمة، فلماذا  
لم يرتفع صوت واحد من داخل مصر؟!

ألهذا الحد كتمت الأمواه، واستقر الرعب في العصور  
والفوس؟

أرسلت من السجن رسالة إلى نقابة لأطباء المصرية بصفتي  
عضواً بها، وأرسلت رسالة إلى اتحاد الكتاب أهلهم بإرسال  
مذبذب للوقوف على الحالة التي يعيش بها فاحل السجن،  
وخطابية بالإفراج عما أو على الأقل تقديمها لمحاكمة عدية  
عادلة!

لكن لا أحد أرسل إلي أي رد صمت كامل . وتجاهل  
نام لوجدنا فاحل السجن.

حتى زملائي وأصدقائي الكتاب والأدباء، لم يشر أحدهم  
كلمة واحدة دفاعاً عن حرية الرأي والكلمة! انكمشوا داخل  
سوتهم، لاجئين إلى الصمت والسكود، أو السمو إلى  
لحارج أو الاشتراك مع الآخرين في العرف على  
الأوتار التي يطرب لها ذوو النفوذ.



رأيتها تنظر إلي بعينها السوداء . . تبعتها بسرعة إلى دورة  
المياه رفعت جلبابها الأصص وناولتي مطروفاً أبيض صغيراً  
قلت وهي تلهث لا تسي . أحرقني كل شيء بعد القراءة!

فتحت المظروف. بعض أوراق مطبوعة وورقة صغيرة عليها  
هذه الكلمات سحت عن مقالاتك التي نشرت في صحف  
المحارصة والتي يمكن أن تتعرض لها التحقيق. نرسل إليك هذه  
المقالات. أحدها بعنوان الأحراب يشككها الشعب بشر في  
حربلة الشعب! في ٩ يونيو سنة ١٩٨١ والمقال الثاني بعنوان

حول مشكلة حرية الصحافة، نشر في جريدة «الشعب» في ٢٧  
 يناير ١٩٨١، والثالث بعنوان الحكم يؤلمون والشعب يلبس  
 انطراطير، نشر في جريدة «الأهالي» في ١٢ إبريل ١٩٧٨. يرى  
 المحامي أن التحقيق قد يتعرض لها أو لأي مقال آخر منذ ١٩٧٠.  
 سحبت عن المقالات الأخرى برسل إليك أيضاً صورة من نص  
 استقانتك التي قدمتها لوزير الصحة في ١٦ يناير ١٩٨١، وقد  
 يسألك عنها المحقق يطلب منك المحامي دراسة هذه الأوراق،  
 كما بغير ولا ينفصا إلا وجودك معنا. نحبك!

•

## الجزء الرابع

### الخروج للتحقيق

سمعت اسمي يرنّ في الجو وصوت يقول أنت مطلوبة  
 الآن أمام المدعي الاشتراكي للتحقيق  
 وكأما تلقيت نبأ الإفراج. وقمرت الصديقات ورميلات  
 الحنن من حولي، مهتات، معانقات.  
 همت واحدة: بدأ التحقيق وسحرح كلما فراج  
 صاحت ثانية: بدأ الحق يظهر  
 وثالثة الله أكبر  
 ورابعة: ادعبي والله معك  
 وتلقيت التهاني والقلبات قلبي بحقق أدور في العسر ومن  
 حولي الرميلات. . المماجاة والفرح وبارقة الأمل . .  
 قالت الصابطة ارتدي ملابس الحروح بسرعة فالصباط  
 يتظرونك في مكتب العامور.

قلت: لماذا لم تليعيني بمدة كافية لاستعد؟



قالت الصابطة إذا تأخرت يصرفون وتصيب عليك جلسة التحقيق!

وبدأت كل واحدة من الزميلات تجري لتحضر لي شيئاً واحدة أحضرت لي المشط. وأخرى العتاب. واحدة أخذت تمشط لي شعري. . . وساعدتني زميلة في ارتداء القناع الأبيض الذي خرجت به ليلة القصر. ناولتني زميلة أخرى نصف رصيف داخله قطعة جبن وقالت لا تنهني إلى المحقق وبطك خاوي صوتها مثل صوت أمي حين كانت تاولني «السادويتش» وتقول لي بالتهجة نفسها لا تنهني إلى الامتحان وبطك خاوي!

دقات قلبي سريعة. تشبه دقات قلبي وأما تلميدة صغيرة في المدرسة داهية إلى الامتحان. حللت ليلة الأمس أسى كنت جالسة بين التلاميذ وأمامي أسئلة لامتحان. لم أعرف الإجابة على أي سؤال. حلم كان يتكرر في جميع مراحل حياتي، حتى في السجن.

ناولتني إحدى الزميلات كوباً من الشاي. . . حدثني جاف. . . بدأت أرشف الشاي.

صاحت الصابطة: الضباط ينتظرون!

قلت بهدوء سأذهب بعد أن أشرب الشاي! كان يجب أن ترسلوا إليّ بلاعاً مد الأمس. . . أي تحقيق هذا الذي يتم بشكل سرّي ويشكر فجائي أيضاً! ١٩

شربت كوب الشاي حتى نهايته ثم خرجت مع الصابطة إلى مكتب المأمور. رأيت جمهرة من الرجال المسلحين يتقدمهم

صباط. تذكرت اليوم الذي قبضوا عليّ فيه. وقلت بدهشة. هل أنا بكل هذه الخطورة؟

رأيت باب الحى مفتوحاً على مصراعيه، تقف أمامه سيارات «بوليس» تشبه السيارات التي وقفت أمام بيتي يوم ٦ سبتمبر. موكب المهيب نفسه. يتقدمه رجل على موتورسيكل يفصح الطريق. وصفارة إنذار بوليسية. . . وحشد من الجيود لمسلحين. . . قفزوا في السيارات الخلفية. . .

طلب مني الصابط أن أجلس بينه وبين السائق. رمعت المشهد يتكرر، والكلمات تتكرر:

قال: هذه هي الأوامر.

قلت: لن أجلس إلا بجوار النافذة!

بدأ عليه الإصرار، وبدأ عليّ إصرار أشد. . . انتصر إصراري على إصراره. وجلست بجوار النافذة. . . انتصار صغير بسيط. . . لكه هام. . . فأنا أمارس إرادتي رغم كل شيء!

خرجت السيارة من السرداب الصيقي إلى سرداب طوبس في نهاية السرداب عمود غليظ يسد الطريق. توقفت السيارة عند العمود. برز من جانب الطريق رجل تحيل عيناه تلمعاً وتتحركان بسرعة كعيني قاطع طريق.

لمح الموتوسيكل والسيارات فأسرع يجري بظهر محجّ وشدّ للعمود بحبل أو سلسلة فارفع العمود. خرج الموكب البوليسي ثم سقط العمود وأغلق الطريق خلفنا

رفعت رأسي نحو الطريق . الشمس الساطعة تملأ الشارع  
والكوكب . صوؤها قوي مهر يؤلم العيس . الفضاطر تنألق من  
بعيد . . . وصمحة البيل تلمع تحت الشمس . ملأت أمي رائحة  
النيل وهواء نقي منعش له رائحة الزرع !

أحدث شيئاً عجباً . . هل كنت مينة وصحوت ؟ هل كنت  
مدفونة ثم خرجت إلى سطح الأرض ؟! مطر الناس في الشارع  
عجيب ، وحركتهم مدعشة . عيناى تسمان كأنما أراهم لأول  
مرة في حياتي . امرأة تقف أمام بائع حصر وتشي أمام سلة  
من انطماطم الحمراء ! حمرة الطماطم راهية عجيبة ! لون  
الحصروات في السلال أحضر مدعشاً . . الناس يدخلون  
ويخرجون من الدكاكين على نحو عجيب . السيارات تجري فوق  
أسفلت الشارع . امرأة تقود سيارة وتصطف على الوق  
بقوة . صوت الوق برن في أذني مدعشاً . الأبواق كلها  
تصدح بالحناء عذبة . رجل يجلس على مقهى ويقرأ الجورنال  
علاية دون أن يخفيه . صوت الراديو ينبعث من المقهى عالياً  
تسمعه كل الأذان . أشياء عجيبة أسمعها وأراها كأنما لأول  
مرة . منذ متى لم أر الشارع ؟ عددت الأيام على أصابعي . .  
وجدتها اثنين وعشرين يوماً ، بدت لي كما لو كانت اثنين وعشرين  
عاماً أو قرناً .

الناس على جانبي الطريق يتطعنون إلى الموكب الوليبي  
عيون فيها دهشة خوف أو عصب مكتوم . وجوه شاحبة نحيلة  
طهور مقووسة . . سيقان معوجة تمشي ببطء . شيء كاليأس في

حركة الأذرع ، وحزن كالموات في العيون .

أشرق وجهه بانتمامة مباحته ، وارتفعت يداى تلوحان بمنديل  
مؤحت يدي . صاح الصابط بذعر . أرجوك . لا تكلمي الناس !  
قلت : أنا لا أكلم الناس .

سار الموكب في الطريق الطويل من يميني البيل وعن يساري  
الحقول . طريق محفور في دأكرتي . وجه السائق أسمر شاحب  
كوجوه أفاربي الملاحين في كمر طحلة . يقع سوداء ويصاء على  
الوجه واليدين . اليذاى سمرأوان مشققتان تقبضان على عجلة  
القيادة كأنها فأس .

الصابط يخلع قبعته الوليبيّة ويضعها على ركبتيه . ينظر إلى  
الأمام نحو الطريق . يسقط رأسه فوق صدره ، ويسقط جماء فوق  
عبيه ويرفع الصوت المتكلم كالشخير .

وصلت السيارة إلى ميدان التحرير . انحرفت لتدخل إلى ميدان  
اللاطوعلي . داس السائق على الفرامل ، وفتح الصابط عينيه فجأة  
كأنما في دعر ثلقت حوله ورأى المنى الصخم كتب عليه . وزارة  
العدل ! مسح فمه ووضع القبعة على رأسه وشد عضلات جسمه  
ووجهه . عدل ياقة ستروته وأحكم أزرارها . . هبطاً من السيارة .  
وهبط المسلحون أيضاً .

لم يدخل معي إلى المنى إلا الصابط وشرطي واحد . بقي  
الأخرون في السيارات . سرت بين الصابط وبين الشرطي . رأسي  
مرفوع وفمتي طويلة أطول من قامتهما . رجل عن يميني ورجل

عن يساري كاديوران. رأيت هابوراً من الموظفين واقفين أمام باب المصعد ينتظرون اتسعت عيونهم وهم يحتملون نحونا. . . . .  
واتسمت لهم في ثقة اهتزت عيونهم بدعري ثم حركوا رؤوسهم إلى الساحة الأخرى بإطراف مكررة متصلة، إلا رأس واحد العيان ثابتان في عيني اتسم مشجعاً ثم رمق الصابغ بنظرة غاضبة متحدية.

اتجه الصابغ إلى مصعد آخر محصص للوزير وكبار الزوّار. رفع عامل المصعد يده بالتحية وأصبح للصابغ الطريق دخلت وراء الصابغ إلى المصعد ومن ورائي دخل الحارس ابوليسي.

صعد الصابغ على در رقم (٧). وارتفع المصعد. . . . . ثم توقف خرج الصابغ وخرجت وراءه، ومن ورائي الحارس.

سار الصابغ في معمر طويل على جانبيه عدد من المكاتب والأبواب المغلقة يجلس أمامها عدد من السعاة والفراشين

توقف الصابغ وتحدث مع أحد السعاة. . . . . ثم هاد أذنيه نحو المصعد وهو يقول: ليس هذا البور.

لم يكن المصعد موجوداً نظر الصابغ في ساعته قلقاً. . . . . ثم قال وهو يجري لصعد على السلم جريئاً وراءه أنا والحارس

في الدور التاسع أشاروا عليه بالمرور إلى الدور الخامس نزلنا وراءه جريئاً. . . . . وهو يلهث ونحن نلهث، في الدور

الخامس قال له أحد السعاة: اصعد إلى الدور الثامن

واطلق الصابغ يجري نحو السلم. . . . . وتوقفت وهنفت بغضب: غير معقولة! لن أتحرك.

وقال الصابغ باستجداء: معلش يا دكتور. . . . . لم يحدد لي أحد مكان التحقيق بالصيغ والمبنى كبير.

قلت بدهشة. ألا يعرف أحد مكان مكتب المدعي الاشتراكي؟!

قال: إنه ليس مكتباً واحداً. . . . . إنها مكاتب كثيرة موزعة على عدة أدوار. . . . .

صعدنا إلى الدور الثامن. يشبه الأدوار السابقة. المعمر الطويل على جانبيه الأبواب المغلقة. أمام كل باب جلس بعض السعاة والفراشين. بعضهم نائم بعضهم يأكل. . . . . فتاة تجري في المعمر ومن حلقها طفل على وجه الطفل دباب، وحيط من المحاط يسيل من أنفه.

توقف الصابغ أمام باب مفتوح قبل نهاية المعمر. رأيت غرفة كبيرة مليئة بالصباغ ورجال البوليس بجوار الباب دكة طويلة يجلس عليها جمود مسلحون. حملقت العيون كلها نحوي. . . . . ثم سقطت الجمون فوق العيون فيما يشبه العاص أو العيوبة.

تبادل الصابغ مع رئيس الضباط بصع كلمات ثم قادني إلى غرفة أخرى في نهاية المعمر.

أسير بخطوات بطيئة أتشكك في يقظتي. ربما أحلم أو ربما أصرح على مسرحية، أو فصل في رواية كافكا، ولما حكمه استيعة على الجدران تشير إلى أن اليوم ٢٨ سبتمبر ١٩٨١. الغرفة مزدحمة بالرجال والشباب. بعضهم طويل اللحية والشارب يرتدي انجلبات. بعضهم حديق الرأس والوجه يرتدي بدلة. بعضهم يجلس حر اليدين إلى جواره الحارس. بعضهم يجلس وقد ربطت يده مع يد الحارس بسلسلة حديدية.

حمنت العيون حين دخلت. أطرقت بعض الرؤوس من ذوي اللحية والجلدات خاصص الصر. عيون أخرى تعرفت على وجهي وهتف أحدهم أهلاً يا دكتورة. أهذه أول مرة تخرجين للتحقيق؟

قلت: نعم. وأنت؟

قال هذه هي المرة الثالثة لي. ويستغرق التحقيق في كل مرة خمس ساعات.

يسألني المدعي الاشتراكي عن كلمات قلتها منذ عشرين عاماً! وضحت المحاصرون من ذوي البدل. واهترأت الرؤوس من ذوي اللحية وقد كست وجوههم ابتسامة خفيفة تم عن المشاركة.

وقلت: إذن أتوقع أن يسألني عن طفولتي.

وقال ضاحكاً كل شيء وارد! أي شيء ممكن في هذا المهد! رأيت صابطاً يدخل إلى الغرفة ويدعوني للخروج معه إلى الممر. خرج ورأني حارساً.

قال لي الضابط وهو يشير إلى كرسي في الممر: يمكنك الانتظار هنا حتى يأتي دورك في التحقيق.

رفعت الجلوس، وقلت للضابط في غضب:

- هذا ممر وليس غرفة للانتظار!

- لا توجد غرفة خالية.

- إذن سأعود لأجلس في الغرفة التي كنت فيها.

- إنها للرجال.

- ولماذا لا تخصصوا غرفة للنساء إذا كان لا بد من الفصل بين الجنسين؟!

- لا توجد غرفة كافية.

- لن أجلس في الممر!

- ليس عندما مكان آخر.

واندفعت بعض من خلعتي الحارس إلى غرفة الصباط وانجهدت مباشرة إلى رئيسهم الجالس إلى مكتب ضخم وقلت له:

لن أجلس إلا في غرفة كما يجلس الآخرون، ولا يهمني أن أجلس وحدي أو مع هيري من الرجال، لكنني لن أجلس أبداً في الممر!

بحثوا عن غرفة فلم يجدوا، واضطروا إزاء إصراري أن أعود وأجلس في غرفة الانتظار.

رحب بعودتي الرجال بحرارة الرمال والمشاركة في محبة واحدة وشمرت أنهم جميعاً رملاء لي، يجمعنا مصير واحد. حتى هؤلاء الشباب من ذوي اللحية الطويلة والجلابيب الذين عضوا النصر، أحسست أنهم ينظرون إليّ كرميل مسجون معهم. ثم دخلت فتاة صغيرة في الثالثة عشرة تقريباً ترتدي جلباناً ربيعاً طويلاً وشبشب بلاستيك في قدميها المشققتين، تحمل صينية عليها أكواب صغيرة من الشاي.

مررت من توزيع الشاي على الحاضرين ثم سألتني

- هل أضرت لك كوباً من الشاي؟

سألتها من أين؟

قالت: من البوفيه

- أي بوفيه؟

- بوفيه الوزارة.

عاد إلى ذاكرتي «بوفيه» وزارة الصحة حيث كنت أعمل بعض السنين. كان البوفيه داخل دورة المياه، والذباب يستقل من المرحاض إلى الأكواب ويتولى عمل الشاي والقهوة أحد السعاة أو الفرائشين. لا يغسل الأكواب والمناجير، ويسأل الإبريق من صبور المرحاض.

وقلت: لا. شكراً

وهتف أحد الرملاء. لا يمكن! لا بد أن نشرب شيئا قبل التحقيق! أسفري لها كوباً من الشاي!

قلت: ليس معي نقود.

قال: كلنا لسا معنا نقود، وكده تحت الحجاب.

وقالت الفتاة: المحامون يدفعون لي. أليس لك محام؟

قلت: لي محام، ولكنني لا أعرف هل جاء أم لا.

قلت: أعطني اسمه وأبأسأل عنه كل المحامين يستهزئون تحت، في الدور الأسفل.

أعطيتها الاسم فخرجت مسرعة

وسمعت الرميل إلى جوار ي يقول: إذا لم يحضر المحامي فلا تغلقني. إنه تحقيق شكلي لمجرد إثبات أن هاك قاسوياً. لأن القانون في إجازة يا دكتور!

وتتمت شاب له لحية سوداء وعينان سوداوان ضيقتان:

حي على الصلاة...

وبهض الشباب حتى هؤلاء المربوطة أيديهم في أيدي الحراس بالسلسلة الحديدية. هتف الحراس السلاسل بمناجيع صغيرة ونهض الجميع للصلاة حلموا الشاشيب وقفوا صفاً واحداً وراء الإمام أكتافهم متلاصقة وأقدامهم متلاصة رفع الإمام يديه لتلامس أديه وهتف الله أكبر.

رفعوا أيديهم إلى أعلى لتلامس آذانهم مرددين الهتاف بصوت واحد. الله أكبر.

ورد في الممر صوت مادياً على اسم من الأسماء. بهض أحد الزملاء ومن خلفه حارسه، وهتف به الآخرون:

ميساكك العددي اليوم عن الحرب العالمية الثانية

وردة ضاحكاً: اطمثوا! معي أربعة محامين!

وربت الصلحكات .. ثم توقفوا فجأة عن الضحك. كست  
عيونهم سحابة حزن مفاجيء، كأنما تذكروا أنهم سجناء، وأنهم  
بعد التحقيق سيعودون إلى السجن، أو لأنهم أدركوا أن الضحك  
لا يصح والصلوة قائمة. وكان شباب الجماعات الإسلامية  
مازالوا يركعون ويسجدون ويهضون ثم يركعون ثانية وهم يمتعون  
بآيات القرآن.

ودب صمت يوحي بالحزن والرهبة.

إلى حوارى سمعت صوتاً كالشخير. رايت شابين جالسين لم  
يهضا للصلوة. بينهما شه كبير كأنهما توأمان. الوجه طويل  
شاحب تآثرت عليه البقع. العيان زانفتان تظران إلى المراع. يد  
أحدهما مربوطة مع يد الآخر بالقد الحديدي.

وأدركت أن أحدهما مسجون والآخر حارسه. لكن الشبه  
بينهما عريب والحركة متشابهة، اهتزازة الرأس قليلاً ثم سقوطه  
فوق الصدر، وإعماضة العينين المرهقتين الدابتين. ثم تدك  
الانقباضة كالبقعة المفاحة، والجمان يفتحان في وقت واحد،  
وتتسع عيونهما لحظة في دهشة أو ذعر. ثم تسقط الجفون فوق  
العيون، ويعود الصوت المتكلم كالشخير.

في ركن المرفة بحوار الدعة، رأيت رجلاً جالساً في صمت  
يقرأ في الإنجيل يرتدي عباءة سوداء تشبه ملابس القس. من

حوله ثلاثة رجال يهرون رؤوسهم ويحركون شعاهم.

لدت المرفة أمام عيني كخشبة المسرح، يدور عليه مشهد من  
مسرحيات العث أو اللامعقول.

جاء ملتصقة بالأرض أكتف مرفوعة إلى أعلى رؤوس منكسة  
فوق الصدر. تمنحة من القرآن والإنجيل. جلايب واسعة  
ضمخاضة. بدل عصرية أنيقة وجوه بلا لحية ولا شارب  
ورؤوس حلقة. وجوه معطاة بالشعر الكثيف كالعانة. وبنا كأنما  
لا شيء يجمع هؤلاء الناس إلا وجودهم الآن فوق خشبة هذا  
المسرح.

ثم دخل رجل طويل عريض يرتدي بدلة كامده أنيقة. الوجه  
عحوز يطل عني مند زمي بعيد موغل في القدم. هيئة ومثبه فوق  
الخشبة توحي أنه صاحب جاء وسلطة لولا ذلك الحارس من  
خلفه الذي أوحى أنه أحد المسجونين.

وهب الرجال وقوفاً.

- أهلاً يا باشا.

- أتفضل يا باشا.

- هذا المقعد يا باشا مريح .. تحصل هنا ..

وحلس إلى حوارى. سلامحه رأيتها مند سنتين بعيدة في  
الصحف. في الصفحة الأولى كت طعنة، أبي يقرأ الجريدة،  
وأنا أنظر إلى الصور. صورة النحاس باشا وصورة مؤاد سراج  
الذين باشا النحاس وجهه نحيل طويل عين أصغر من عين.

العين الصعري تنظر محوي، والعين الكبرى تنظر ناحية سراج الدين وجه سراج الدين كبير مستدير منيء باللحم. عيائه واسعتان شاخصتان للأمام.

كنت أسمع أبي يقول: سراج الدين يشبه الملك لكن الحاس من الشعب.

وترة أبي. كان الحاس من الفقراء لكنه تزوج ريس الوكيل.

ارتبط في ذهني منذ الطفولة اسم الملك بسراج الدين بريس الوكيل بالحاس. وحين سقط الملك في ٢٣ يوليو ١٩٥٢ سقط معه الجميع. وسقط لقب باشا أيضاً.

في كل حياتي لم أسطر كلمة «باشا» أو «بيه» أو «أفندي». عودت أن أخطب الناس بلقب «أستاذ» أو «دكتور».

وسمعت من يقول: هل سلّمت على الباشا؟

وصافحته وأنا أقول: أهلاً بالأستاذ فؤاد سراج الدين.

وانسعت العيون مذهشة، وانفتحت ناحيتي بكل جسمه ورأيت وجهه لأول مرة. ليس هو الوجه الذي كنت أراه في الصحف. ملاحه لا تشبه الملك فاروق عيائه رغم الشبوخة فيهما حيوية وقطة وانتاء.

قال لي كيف الحال عندكم في سجن النساء؟ أنا مبر على الأرض أم على سرير؟

قلت: أمام على لوح خشبي فوق سرير، وأنتم في سجن الرجال أنتماء على الأرض؟

قال: كنت على الأرض عدة أيام، ولم أكن أبص إلا بملأفة ثلاثة من الرملاء. ثم جاءني طبيب السجن وطلعت منه سرير واحد السرير. طلعت من الطبيب أن يفحصه ويقول لي هل هذا سرير أم لا. وجاء الطبيب، وبعد الفحص انصح له أنه ليس إلا دكة خشبية.

وصحك الجميع.

وقال أحد الرجال: هرقا مؤاد باشا في السجن، وصرب لنا بمثل في الصلابة والتحمل... براه جالساً في الزرارة شامخاً كالأميد لا يتوجع...

وقال سراج الدين لحسن خطي كان معي في المراقبة حيرة شديداً مصر ورجائها. وامتد الحديث فترة من الوقت، ثم دعي سراج الدين للتحقيق، ودعي آخرون بعده. ودخلت فتاة البوفيه تحمل أكواب الشاي.

وقالت لي: لم يحضر محاميك حتى الآن.

وقال أحد الرملاء إذا لم يحضر المحامي يعكك تأجيل التحقيق حتى يحضر معك.

هذا أفضل لك إلا إذا كنت تعزب شيئاً عن القنود.

فدت. معلوماني في القنود قليلة... وأد لا أثق في هذا للتحقيق أيضاً...

فان. كلما مثلك. هذا التحقيق سياسي وليس قانونياً. سوف سأنتك المدعي عن حياتك السياسية منذ تولي السدات الحكم

وربما قل ذلك، والله أعلم... أهذه أول مرة تدخلين فيها السجن؟

قلت: أول مرة، وأنت. هل هي أول مرة؟

وقال: لا. أنا دخلت السجن أيام الملك، وأيام عبد الناصر وهذه هي المرة الثالثة.

قلت أنت سياسي قديم.

قال منذ كنت بالمدرسة الثانوية، ومظاهرات سنة ١٩٤٦. كنت أخرج مع التلاميذ إلى الشوارع نهتف ضد الملك والإنجليز... ربما لا تذكرين هذه المظاهرات.

قلت: أذكرها جيداً... كنت بالمدرسة الثانوية..

عادت إليّ صور قديمة. عبر الداخلية في مدرسة حلوان. دق جرس النوم. أظلم نور الكهرباء. نجست علينا ضابطة الداخلية وتأكدت من ربما. ما أن ابتعد صوت وقع حداثها في الممر حتى قعنا من الأسرة، وسهرنا حتى الصباح مسح على ستراتنا تحت ضوء القمر هذه الحروف «الجللاء بالدماء» وفي الصباح تجتمعنا في الفناء، كسرنا باب المدرسة، وخرجنا إلى الشارع نهتف في محطة قطار حلوان استولينا على عربة قطار، حملتنا إلى باب اللوق، ومن هناك سرنا على الأقدام مع مظاهرات الطلبة حتى ميدان عابدين. وفي قصر عابدين دخلت مع مجموعة من الطلبة ولطانات. كانت أول مرة في حياتي أدخل مثل هذا القصر. كل ما أذكره أن حداثي المغطى بالتراب غاص في سجاجة باعثة طرية وجدران عالية جداً مقوشة. ومكتب

كبير من فوقه دفتر ضخم مفتوح، ورجال طوال يرتدون بدلاً سوداء عضلاتهم مشدودة كأنما بالأسلاك. طلبوا منا أن نكتب أسماءنا ثم خرجنا إلى الميدان. وستمزت الهتافات ثم عدت مع زميلاتي إلى المدرسة.

ما أن رأتي الضابطة حتى شدتني من وسط السات بأصبعها القوية الحديدية وقادتني إلى مكتب الناطرة.

سمعت الناطرة تكلم أبي في التلغراف وتقول له إن أقل جزاء لي هو الفصل من المدرسة.

جفت ريفي ودق قلبي. كنت أحب المدرسة رغم ضابطة الداخلية. وأحب العلوم والأدب العربي وأنوي دخول كلية الآداب أو كلية الطب.

من لهجتها في الحديث أدركت أنها تحترم أبي. فهي تسأله بلقب «أبيه» كان أبي في ذلك الوقت معشاً بوزارة المعارف، وكنت أرى الناطرة والمدرسات يرتعدن حين كان يدخل أي معش إلى المدرسة.

ولم تعصلي الناطرة. علمت من أبي أنه دافع عني. قال للناطرة إن من حق الطالبات السنين المشاركة في المظاهرات الوطنية مثل الطلبة. وعلمت أيضاً أن المدرسات والمدرسين دافعوا عني لأنني كنت مضوّقة في الدراسة.

وفي كلية الطب كنت أخرج مع الطلبة في المظاهرات. في إحدى المظاهرات وجدت أنني الطالبة الوحيدة التي تسير وسط



الطلة وتحمل معهم اللاقطة الصحية، كما عليها. طسه وحالات  
الطب...

أني وأمي كما يشجعاني على الاشتراك في المظاهرات  
لوطنية، ضد الملك وصد الإنجليز.

في ثورة ١٩١٩ كان أني طالباً في دار العلوم في القاهرة،  
واشترك مع بعض زملائه في ضرب فرقة من الجيود الإنجليز  
أصابته شظية رصاصية في ساقه، وعاد إلى قريته كمر طحلة  
محمولاً على عربة كارو.

أمي كانت تلميذة صغيرة في المدرسة الابتدائية في القاهرة.  
خرجت مع بعض رملاتها إلى الشارع يهتف ضد الإنجليز.  
أمسكها رجال البوليس، ووضعوها في قسم الشرطة نهائياً كاملاً  
ثم عادت إلى بيتها



أقمت على اسمي يرن في الجو نهضت ومن خلعي مبار  
حارسي، وأمامي ضابط يقودني إلى باب مغلق. فتح الباب  
ودخلت وحدي وبقي الضابط والحارس حارج الباب.

وجدت نمسي في حجرة مكيفة. ملات صدري بالهواء  
المعش. رأيت رجلاً يجلس وراء مكتب كبير، ورجلاً آخر  
يجلس إلى مصدة صغيرة عليها دفتر كبير يشبه دفتر المأدون.

دعاني المحقق للجلوس ورأيت أمامه ظرفاً حكومياً معلقاً

بالشمع الأحمر، إلى جواره ملف علاقه أزرق كتب عليه اسمي  
فتح الملف والطرف ونظر في الأوراق. ثنت عيني على وجهه  
وجه كبير أسمر. عيان واسعتان لا تنظران مباشرة إلى عيني كأنه  
يتفادى أن تلتقي عيناه بعيني. لماذا!

ولماذا لا ينظر في عيني مباشرة!

وسمعت يقول: موعد جلستك كان بالأمس. لماذا تحلفت عن  
الحضور بالأمس؟

اتسعت عياني في ذهول. هل هذا المحقق مجنون؟ أم أني  
جست ولم أعد أفهم ما يقول؟

وقلت بدهشة: ماذا تقول؟

وقال: كان يجب أن تحصري في موعدك بالأمس!

وقلت بدهشة: مواعدي؟ أنا لم أعرف شيئاً عن هذا الموعد  
إلا صباح اليوم ثم ألا تعرف أين أنا! أنا في السجن! فكيف  
أحضر إليك إلا بواسطة رجال البوليس؟!

وقال. أنا لا شأن لي بالبوليس كان لا بد أن تكوني هنا  
بالأمس. على أي حال سأبدأ معك التحقيق الآن.

هل يمكن أن أثن في عدالة هذا الرجل؟ وإذا بدأ بهذا الكلام  
غير المظني فهل يمكن أن يكون هناك مطلق أو عقل؟

وقلت: لن يتم التحقيق بدون حضور المحامي.

قال: هل لديك محام؟

قلت: نعم.

دقّ الجرس، ودخل أحد السعاة قال له:

- أحضر محامي الذكورة نوال السملوي.

- حاصر

وأعلق الباب.

وقال لي: مستظر يصعب دقائق حتى يأتي المحامي.

- ومن أين سيأتي؟

- من الدور الأسفل حيث ينتظر المحامون.

- هل أخطرت المحامي بموعد التحقيق معي؟

- لا نخطر المحامين.

- لماذا؟

- ليس هذا عملنا.

- عمل من؟

- كل منهم يخطر محاميه.

- لكنني في السجن ولم يخطرني أحد بموعد الجلسة. ولا

وسيلة لي للاتصال بالمحامي فكيف أخطره؟!؟

- هذا ليس شأني.

- شأن من؟

- لا أعرف.

- نفرض أن المحامي لم يأت.

- يمكنك تأجيل الجلسة إلى يوم آخر.

- ولكن هذا التأجيل يعني تأجيل ظهور الحقيقة وتأجيل

خروجي من السجن

- يمكنك إذن عدم التأجيل.

ولكنني أريد المحامي معي أثناء التحقيق، هذا من حقي.

- إنه حقك ويمكنك تأجيل الجلسة.

- وإذا تأجلت الجلسة كيف أصبر أنه سيعرف بالموعد

لجديده، ومن الذي سيخطره بهذا الموعد؟

وظل صامتاً حائراً لا يعرف الرد. العصب يتجمع في

أعماقي. أريد أن أمجر في وجه هذا الرجل الذي كنت

أتصور أنه يمثل العدالة فإذا به عاجز لا عن العدالة فحسب ولكن

عن المنطق ذاته. إنه يتفادى النظر في عيني.

وفتح الباب ورأيت المحامي يدخل. كدت أهاقته وهمت

بفرح: من حسن حظي أنك جئت اليوم.

قال المحامي: أنا أحضر كل يوم وانتظر مع المحامين.

وبمجرد أن سمعت المأدي يادي ناسك جئت على الفور

قال المحقق: لنبدأ التحقيق.

قلت: قل أن أبدأ التحقيق أريد أن أسجل في المحضر كيف

افتحم رجال البوليس بيتي وكسروا الباب وفتشوا الشقة وأحدوني

إلى السجن دون أن يكون معهم أمر رسمي من النيابة. وأريد أن

أسجل أيضاً أنهم وصعوني مع زميلاتي المتحفظ عليهم في عمر

لمسؤولات في سجن القضاة، وأن اثنتين من زميلاتي مرضتا

بالجرب، وأن صحتا الجسمية والعسية مهتدة، ولا يحصل على أي حق من حقوق المتهم تحت التحقيق، ولا نخرج إلى فناء السجن، ولا يرورنا أحد، ومعيش في عزلة كملة وراء بابين حديديين.

وقال المحامي باسماء. لا أرى يا دكتورة فائدة من هذا الكلام.

قلت مدعثة لا فائدة! كيف؟ إن كل ما حدث ضد القانون

وابتسم المحامي قاتلاً. نعم، ولهذا لا فائدة من تسجيل أي شيء. لا أحد سيفرأ هذا الكلام. المهم أن تكون إجاباتك على الأسئلة مختصرة، ولا هاج للإسهاب في شيء.

قلت: ولكني أود أن أسجل ما قلت.

وقال المحقق: لا بأس... أكتب يا أستاذ...

وبدا كاتب الجلسة يكتب في دفتره... شمر أكممه ليملك القلم رفع ذراعاً في الهواء ثم هبط الذراع فوق الدفتر. الدفتر شكله عجيب. يشبه دفتر رأيت في متحف في جزيرة رجسار في زمن العبيد.

اتمت عيالي في دهشة أين أنا؟ وفي أي زمن أعيش؟

سطح المكتب يلعب من فوقه الملف، يعكس وجه المحقق ومن فوق علاقه اسمي الثلاثي... اسم جدي والد أبي لارال مشوكاً في اسمي. مات دون أن أراه وهاش يمول الدم. رأس

المحقق تهتز فوق الملف، لأروق. يفتح ثم يعلقه. يمنع المظروف الحكومي دي الشمع الأحمر دائرة حمراء مشرشرة ملتصقة بطرف المظروف العتي. تهتر تحت يده مع اهتزازات رأسه.

يحملني طويلاً في الأوراق يقلب في الملف وغياء تبحثان عن شيء. تصيقتان وتسمعان، ثم يعنق عيماً ويفتح الأخرى. كأنه ينظر من خلال ميكرومكوب...

يرفع رأسه قليلاً ثم يعود إلى البحث...

سطح المكتب الساروي يعكس وجهه على نحو عجيب أنه أصبح طويلاً كزلومة القيل. عياء صبتان كثيفين في إبرة إصمعه داخل الملف فوق الورقة البيضاء كالإبرة الطويلة الممدودة داخل جسد أبيض.

ما زال صامتاً. يعرك إصمعه ويبحث.

عن أي شيء يبحث؟!

تذكرت محاكم التفتيش في القرون الوسطى، والإبرة الطويلة يعرسونها في جسد الساحرة الحكيمة بحثاً عن علامة الشيطان

وأخيراً رفع رأسه وظلّت عياء تحوم بعيناً عن عيني. انفرجت شفنتاه وسمعتة يقول بصوت خامت كالصحح:

تقول الباحثة إنك في سنة ١٩٧٢ ألفت محاضرة في كلية طب عين شمس، وكان معك زوجك الشيوعي السابق، وأنت في

هذه المحاصرة هاجمت اسطدم وحرضت الطلبة على التمرد  
والثورة. . ما قولك في هذا؟

كنت أفجر بالضحك . لكي ابتسمت بهلوه.

وقت . ولماذا لا بدأ من المطولة بدلاً من سنة ١٩٧٢ فقط؟

اتسمت حياء بدعشة وقال . ماذا تقولين؟! لم أسمعك جيداً

قلت: هل تستعد معلوماتك علي في هذا التحقيق من  
المباحث؟

قال . أود أن أقول إنني أنا الذي أسأل، وأنت التي تجيبين  
على الأسئلة وليس العكس، فأنا المحقق . أنا القاضي!

قلت بدعشة: أنت القاضي؟! لكن اسمك المدعي فكيف تكون  
قاضياً ومدعياً في الوقت نفسه؟

قال . قلت لك إنني أنا الذي أوجه الأسئلة ولست أنت التي  
توجهين الأسئلة. . .

هه. . ما رأيك في الكلام الذي قلته؟

قلت . أتقصد الكلام الذي قالته المباحث لك؟ إنه كلام كذب  
في كذب فيما عدا أني أنفقت محاصرة في كلية طب عين شمس  
في عام ١٩٧٢. كانت المحاصرة عن المرأة والمجتمع، ولم يكن  
معي زوجي.

المحقق . المباحث تقول إن زوجك كان معك.

قلت بصيقل المباحث تكذب . إنها تزح باسم زوجي وهي  
تعلم علم اليقين أن زوجي لم يكن معي ولم يحصر هذه  
المحاصرة. كان معي أستاذ آخر من جامعة عين شمس. وبعد  
المحاصرة بضعة أيام طلبي الأستاذ صفوت عباس للحضور إلى  
مكتب أمن الدولة في شارع ركني وسألني بعض الأسئلة . ثم عدت  
إلى بيتي. وقد طلب أيضاً الأستاذ الآخر الذي اشترك معي في  
«سدوة ووجه» إليه بعض الأسئلة وانتهى الأمر . وقد مر الآن ما  
يقرب من عشر سنوات على هذه المحاضرة وكانت محاضرة  
علمية داخل جامعة، وهي لا بد مسجلة ولا بد أن المباحث  
اطلعت أيضاً على إجابتي على أسئلة صفوت عباس في أمن  
الدولة. فلماذا تحريف الحقائق.

وقال المحقق: أنا الذي أوجه الأسئلة أرجوك.

قلت: ولكنني أريد أن أفهم أيضاً لماذا تكذب المباحث.

قال المحقق: لا دخل لي بالمباحث. . أنا أمثل جهاز المدعي  
الاشتراكي وهو جهاز مفصل عن المباحث.

قلت: إذا كان جهاز المدعي الاشتراكي مفصلاً عن المباحث  
لماذا تعتمد في التحقيق معي على معلومات وردت إليك من  
المباحث. وتدخل المحامي قائلاً.

- يا دكتورة أرجوك أن تتذكرتي نوع هذا التحقيق وحاولي أن  
تردي على السؤال دون التطرق إلى أشياء أخرى وأنت تهمين  
كلامي، وابتسم لي ابتسامة ذات معنى. .

- واستمعت له قائلة: أهمهم ولكي لا أستطيع أن أُلقي عليّ أو  
أُلقي المنطق السيطر

ثم جاء السؤال الثاني أكثر ادّهاشاً من السؤال الأول

سألني المحقق فجأة: تقول المباحث إن لك ميولاً ماركسية.

وهي صحت وكنت بدّهشة. وكيف عرفت هذه المباحث هذه  
الميول. أنا طيبة بمسبة وأعرف أن الميول هي مجرد مشاعر.  
فهل شُئت المباحث قلبي وعرفت مشاعري وميولي؟ ثم من قال  
إن الإنسان يدخل السجن لأن له ميولاً فلسفية، ماركسية، أو غير  
ماركسية. إن للدستور المصري لا يصح قيوداً على ميول الإنسان  
لمصري، ومن حق أي إنسان أن يميل ويهوى ويعشق من الأفكار  
والفلسفات ما يشاء

وضحك المحامي وقال: يا دكتورة، كما نعرف ذلك. إن هذا  
السؤال خطأ من ناحية الدستورية والقانونية لكن هذا التحقيق  
شيء آخر...

والفت المحامي إلى المحقق وقال له:

الدكتورة كاتبة ولها مؤلفاتها وجميع أفكارها في هذه  
المؤلفات (بها) لم تدخل أي حرب سياسية إنها شخصية  
مستقلة، روائية ومناصلة من أجل تحرير المرأة وأنا أقترح، بعد  
أن تأذن لي الدكتورة، أن أختصر الإجابة على السؤال السابق  
بكلمة واحدة هي لا

وهمس المحامي في أذني: إن هذا التحقيق لا يفي الحقيقة

ولكنه يهدف إلى تصيد أي كلمة ضدك، ولا تريد أن يعطيه هذه  
الفرصة.

وتوالت الأسئلة على هذا النحو العجيب أخرج لي المحقق  
من مطرووف أحد أعداد مجلة «التقدم»، وهي مجلة عدية يصدرها  
حزب «التجمع» أحد الأحزاب السياسية الرسمية في مصر، وقال  
لي:

هتروا على هذه المجلة في بيتك أثناء التفتيش.

قلت بدّهشة: هل هي مشور سري؟! إنها مجلة أحد الأحزاب  
الرسمية في مصر، وأشار لي المحقق على المقال الأول في  
المجلة وكان بقلم «عالم محبي الدين» رئيس حزب التجمع وقال  
لي: هل قرأت هذا المقال؟

قلت: لا.

قال: اقريه، وقولي لي ما رأيك في هذا المقال

اتسعت عينا في دهشة وقلت: هذا المقال ليس بقلمي أنا  
ولا أدري لماذا تريد رأيي فيه.

قال: هل توافقين على ما جاء فيه؟

وقلت بعمضب: لا أعرف ماذا جاء فيه، ولا أعرف لماذا  
تسألني هذه الأسئلة العجبية عن مقال ليس بقلمي لماذا لا توجه  
هذه الأسئلة لصاحب المقال نفسه؟

وهل تصغي في السجن وتحقق معي بشأن مقال لم أكتبه على

حين أن صاحب المعدل نفسه حر طليق في بيته ولا أحد يسأله عن  
مقله !! لماذا لا تذهب إليه وتسأله هو ، ولماذا تسألي أنا؟ هل  
أنا وصية أو مسؤولة عن كتاباته؟

وأطرق المحقق برأسه خجلاً وظل صامتاً ينظر في الملف  
أمامه حائراً ثم أخرج لي سؤالاً آخر، كالحادي يخرج من جرابه  
شيئاً.

قال: تقول المباحث إنك هاجمت معاهدة كامب ديفيد في  
مؤتمر كوبنهاجن لعالمي للمرأة في يوليو ١٩٨٠.

قلت. هذا كذب أبصاً. لأن معاهدة كامب ديفيد لم تكن  
موضوع المناقشة في المؤتمر لقد دعيت في أحد الاجتماعات  
لتحدث عن مشاكل المرأة الفلسطينية في الأرض المحتلة،  
بصفتي مسؤولة عن برنامج المرأة في اللجنة الاقتصادية لغربي  
آسيا بالأمم المتحدة كانت القاعة مليئة بالصحافيين من جميع  
بلاد العالم بما فيهم الصحافيون الإسرائيليون وثار أحد  
الصحافيين الإسرائيليين بعد أن تكلمت عن نشأة دولة إسرائيل  
تاريخياً، وكيف قاد النظام الطفاي الأبوي إلى النظام العبودي ثم  
الاقطاعي ثم الرأسمالي، وكيف لعب الاستعمار دوراً في نشوء  
إسرائيل.

وحاول هذا الصحافي الإسرائيلي مقاطعة كلامي وإحداث  
فوضى في الاجتماع فطرده من القاعة.

وسألي أحد الصحافيين الإسرائيليين في الاجتماع قائلاً:

بصفتك تعملين في اللجنة الاقتصادية لغربي آسيا بالأمم المتحدة،  
هل تعسرين لنا لماذا لا تكون إسرائيل إحدى الدول الأعضاء في  
هذه اللجنة التي تضم البلاد العربية في المنطقة؟ أليست إسرائيل  
إحدى الدول الشرعية في المنطقة؟

وقلت له ولماذا لا تذهب وتسال الأمم المتحدة.

وقال لصحافي الإسرائيلي ما رأيك أنت شخصياً في هذا  
الوضع غير العادل؟

وقلت إن نشوء إسرائيل كان غير عادل لقد نشأت دولة  
إسرائيل بقوة السلاح والقتل لإبادة شعب فلسطين رجالاً ونساء  
ورأبي الشخصي هو أسي لا أرى أي عدالة في ضمها إلى دول  
الأمم المتحدة في المنطقة. .  
وانتهى الاجتماع ولم يسألي أحد عن كامب ديفيد .

وقال المحقق لكن المباحث تقول إنك هاجمت معاهدة  
كامب ديفيد في هذا المؤتمر.

قلت. أي مباحث؟ المباحث الإسرائيلية أم المباحث  
المصرية؟

وقال المحقق: المباحث المصرية بالطبع.

وقلت: إذا كانت المباحث المصرية موجودة في ذلك المؤتمر  
فلا بد أنها تعرف ماذا قلت. إن كلامي في ذلك الاجتماع كان  
في صف الشعوب العربية وفي صف الشعب المصري ضد دولة  
إسرائيل، فما الذي يعصب المباحث المصرية في ذلك؟ ومن  
المعروف أسي لا أوافق على سياسة السادات ومها كامب ديفيد.

أنا لا أهتم شيئاً. وكل آرائي مشورة. لكن في هذا المؤتمر بالذات لم يسألني أحد عن كامب ديفيد. فلماذا نعرف الحقائق ويرج بمعاملة كامب ديفيد كدباً في هذا المؤتمر؟ ظل المحقق صامئاً ينظر داخل النوسيه.

وقلت لنفسي هل جاء اسمي ضمن المنحفظ عندهم لهذا السبب بالذات؟

كنت أبحث عن سبب مقنع لاعتقالي، واعتقال هذا العدد الكبير من محتلف الاتجاهات والتيارات والأفكار.

لا شيء مشترك بين هؤلاء الدبوس حسهم السادات سوى معارضتهم لاتفاقية السلام مع إسرائيل.

أتكون إسرائيل هي السبب في وجودنا داخل السجن؟ هل أردت أن تكتم الأصوات المعارضة للعدو الإسرائيلي الاقتصادي والثقافي تحت اسم «تطبيع العلاقات»؟ أي خديعة تحدثت تحت ستار الوحدة الوطنية والسلام الاجتماعي وحماية مصر من الفتنة الطائفية وحماية قيم القرية من الميب؟

وسمعت المحقق يردد لكن المباحث تقول إنك هاجمت معاملة كامب ديفيد في مؤتمر كوبنهاجن

وضحككت. لا أدري لماذا ضحككت. لكي تذكرت امرأة مصرية ذات شعر رمادي، كانت واحدة في المركب الذي تسير فيه زوجة السادات في مؤتمر كوبنهاجن. . . قابلتي وجهاً لوجه في أحد الأروقة فصاحت بضيق:

ماذا قلت في الاجتماع حتى يثور الصحافي الإسرائيلي ويطرده من القاعة؟ قلت لها مدد متي وأنت تدعين عن إسرائيل؟

وانسعت عيونه في دهشة ثم امرجت شفتها لترد عليّ، لكنها لمحت زوجة السادات من بعيد فهزولت بعيداً عني وهي تقول بصوت:

لا أريد أن تراني معك.

وجرت بحرها تتأرجح على كعبيها العاليين الرفيعين وقتت. هل لمت لزوجة دوراً ضدي حين هادت إلى مصر من مؤتمر كوبنهاجن؟

لكن المحقق لم يرد عني سؤالاً، وظلّ ينظر داخل المنع.

وقلت بعصب: أريد أن أعرف لماذا أنا في السجن؟ لماذا اعتقل في حين أن السادات أعلى إعلاق جميع المعتقلات وأعلى أيضاً إلماء قانون الطوارئ في ١٥ مايو ١٩٨٠؟

ابتسم المحامي وقال: لكنه أصدر في اليوم نفسه القانون ٩٥ لسنة ١٩٨٠ بحماية القيم من الميب.

وقلت: قانون الطوارئ كان أفضل. إنه على الأقل قانون مؤقت ومهما امتدت - الأحكام العرفية فهي تنتهي بانتهاك الظروف الاستثنائية، لكن السادات أراد أن يجعل الطغيان دائماً وليس مؤقتاً، وأصدر قوانين بطش دائمة، وأعطى لها أسماء بريئة تناقص حقيقتها. إن محكمة القيم ليست إلا انتهاكاً للقيم الإنسانية الحقيقية

وظلّ المحقق يحملق داخل الملف وكأنه لا يسمعي . .

ثم أخرج لي من الدوسية صفحة من جريدة «الوطن» تصدر بالكويت. وأيت فيها صورتني ومقالاً بعنوان: «الأحزاب يشكّلها الشعب وليس الحاكم».

وقال المحقق: أيت صاحبة هذا المقال.

قلت: هذا المقال نشر في جريدة «الشعب» بالفترة في ٩ يونيو ١٩٨١ تحت عنوان «الأحزاب يشكّلها الشعب». هل معك نسخة من جريدة الشعب؟

وقال المحقق: لا.

قلت: هذا المقال منقول عن جريدة «الشعب».

وقال المحقق: هل يمكن أن تقرّني المقال بدقّة وتؤكدني أنث صاحبة كل كلمة فيه.

وأخذت أقرأ المقال.

انتهيت من قراءة المقال، ونسيت في لحظة أنني كاتبة المقال وملأني الإعجاب بمن كتبه. ثم تذكرت فجأة أنني أنا التي كتبه، فملأني الزهو والإعجاب بنفسي.

ورأى المحامي على وجهي استسامة الرضا فانتسم هو الآخر وسمعت المحقق يقول

- هل كتبت هذا المقال.

- نعم

- كل حرف فيه.

- كل حرف فيه.

- وما رأيك. هل أنت مقتنعة بما فيه.

- تمام الاقتناع.

وبدأت المناقشة من أول فقره في لمقال إلى آخر فقره يقرأ المحقق الفقرة ويسألني معها ثم يتقل إلى الفقرة الأخرى

وتوقف المحقق طويلاً عند هذه العبارة الظاهرة التي ندمتها اليوم من أن الحكام هم الذين يشؤون الأحزاب أو يقولون إياهم هم الذين أنشأوها، وهل يتفق ذلك مع الدستور.

سألني المحقق: ماذا تقصدين بهذه العبارة، ومن هم الحكام الذين أنشأوا الأحزاب أو قالوا إنهم هم الذين أنشأوها

قلت: نعم، حدث هذا في مصر، وقد صرح السادات في الصحف أنه هو الذي أنشأ أحزاب المعارضة ولولا ما بدأت، وأنه يمكنه أن يسحقها بمثل ما أوجدها. صرح السادات بهذه العبارات في صدامه الأخير مع أحزاب المعارضة وردّ المحامي قائلاً: نعم، كلما قرأنا ذلك في الصحف في الفترة الأخيرة.

استغرق التحقيق عدة ساعات وشمل أسئلة شبيهة بالأسئلة السابقة، لم أعد أذكرها بسبب تهايتها لكن المحقق لم يسألني سؤالاً واحداً عن دوري في القصة الطائفية، أو عن اشتراكي في



أي مخطط أجبي لإحداث فوضى بالبلاد أو قلب نظام لحكم.

لم نستطع المباحث أن تلقى لي مثل هذه الاتهامات التي نشرتها الصحف، والتي أكدها مجلس الشورى.

واتضح لي، وللمحقق، وللمحامي، أن لا شيء ضدي، وأن إجاباتي كلها منطقية ومقنعة، على حين كانت الأسئلة كلها غير منطقية وملققة على نحو مصحك.

ورفعت رأسي في كبرياء وأنا أشعر أن الحق معي. تصوّرت أنه سيأمر بالإفراج عني لبرائتي. وبهضت وأنا أقول الآن أذهب إلى بيتي... لا شيء ضدي.

وابتم المحامي قائلاً: ليس بهذه السرعة يا دكتورة.

وقلت بعبث. قصيت بالسجن حتى الآن اثنين وعشرين يوماً دون وجه حق، ودون تحقيق، وما هو التحقيق يصرح لا شيء ضدي!

وقال المحقق. إن التحقيق لم ينته بعد، وسوف ترسل إليك مرة أخرى إذا حصلنا على معلومات جديدة.

قلت ولماذا أوضح في السجن كل ذلك الوقت؟! هذا ضد القانون المعروف أن يطلق سراحه اليوم فوراً. ثم أعرض عن كل الأيام التي قضيتها في السجن، وحين تصلكم معلومات جديدة يمكن استدعائي من بيتي!

وابتم المحامي وقال. يا دكتورة... هذا اعتقال بأمر

بإسادات شخصياً، ولن يفرح بك إلا الأسادات نفسه حين يريد!

وقلت بعبث: هذه دولة بغير قانون وبغير عدالة، وهذا التحقيق لا فائدة منه ولا عدالة فيه!

ودقّ المحقق الجرس وانفتح الباب وحوطني الصابط والحراس وحملوني بالسيارات إلى السجن مرة أخرى.



في طريق العودة إلى السجن كنت حزينة لكن من تحت المشعور بالحزن كان هناك شعور آخر. نوع من الشوق العريب لرميلات العسبر. كأنني غبت عهن عدة أعوام وليس عدة ساعات. نوع من الفرح لأنني أهود إليهن

دعنت لهذا الشعور. لكنني اكتشفت أن حياة السجن تحلق بين المسجونين نوعاً من الزمالة المريدة. تصوّرت في لحظة أنني عائدة إلى أهلي وأسرتي الحبيبة في ذلك العبر المعول في آخر الدنيا.

ما أن اقتربت السيارة من القاطر حتى هادت إليّ وجوه زميلاتي هيونهن في الليل وهي تبحث عن عيني أصواتهن وهي تشد صوتي. تأزرنّا معاً ضد إدارة السجن جلوساً فوق الحوش الشرايبي نقي العول والعدس ضحكنا المرحّة أحياناً... بل والحلافات والمشاكسات أحياناً بدت لي من على البعد أشياء قريبة إلى قلبي عزيزة على نفسي.

لكن بوابة السجن الصلحة أشاعت في جسدي قشعريرة. الشق

الصغير يشني داخله جسدي أصابع الشاويشة ويدأها ممران فوق  
رأسي وجسدي تنثني. الأبواب الحديدية. الأصوات. الرائحة  
لهواء الراكد الثقيل يجرم على صدري وقلبي.

لكن ما أن فتح باب العبير حتى اتسعت العيون مدعشة وفرح،  
وتعالت الأصوات الحميمة تهتف بسعادة

وحشيتنا. لم تتصور أد لك كل هذه الوحشة كأنك  
فيت هنا هاماً كاملاً وليس يوماً واحداً.

جسدي حولي مثلهمات يسألني ماذا حدث أثناء التحقيق.  
حكيت لهم القصة كما حدثت، وبتفاصيلها الدقيقة. مثلت لهم  
بعض حركات الضباط والمتحفظ عليهم من الرملاء داخل غرفة  
الانتظار. قلت لهم إن إصبع المدمي داخل الملف كانت كإبرة  
محاكم التنيش تبحث عن علامة الشيطان.

صحبنا حتى كاد يغمي علينا من الضحك.

كنت كمن يحكي مسرحية هزلية أو عيشة من مسرح الالمقول  
ورثت الضحكات في العنبر لكنها ليست إلا لحظات وعاد  
إلينا الوجوم... والحرور. وقالت زميلة لا أمل في التحقيق ولا  
أمل في العدالة، ولا أمل في شيء. قلت ذلك مئات المرات.

وردت زميلة أخرى: لا أمل إلا في عدالة الله!

ودت الصمت الحزين الطويل طول الليل...

\*

في منتصف الليل سمعت صوت أين خافت. رأيت «اعتدال»  
رافقة على سريرها مفتوحة العيين. الدموع تفرق وجهها شفتها  
متفرجتان كأنها تتمتم بآيات القرآن. و «ندور» إلى جوارها تربت  
على كفها وتقرأ لها بعض الآيات.

همست: أمي مريضة؟

ردت «ندور» لا. خرجت إلى جلسة تحقيق ثم عادت بهذا  
الشكل.

وصعت يدي على رأسها. كانت ساحنة، ملتزمة كأنما أصيبت  
بحمى. جسمها يرتعش. وجهها شاحب. نرعت البطانية من فوق  
سريري وعطبتها، وأمسكت معصمها لأعد البصر. تعلقت عيناها  
بعمي وامرجت شفتها عن صوت حافت ممزق كالأنفاس  
المتقطعة، أو هذيان المحموم:

أمي لم تحضر، لا بد أنها مريضة، لم تأت مع خلتي إلى  
الجلسة. خالتي كانت تذهب كل يوم إلى مكتب المدمي. كل يوم  
تذهب حتى ترى أسها وتراني. لم يكن معها محام. وأنا لا أعرف  
شيئاً. يكتئب وجمعت أن أدخل وحدي إلى المدمي. رأيت ابن  
خالتي والحديد في يده. خالتي قالت إن المحامي يحتاج إلى  
فلوس وهي ليس معها فلوس. وقالت إن الناس قالوا لها إن  
المحامي ليس له فائدة. ألثم خطيرة. والناس قالوا لها إن  
المسألة صعبة. أصعب حاجة في الدنيا ولا يمكن أي محام  
يحلها. والتهمة كثيرة والمتهمون كثر والقرارات كثيرة. قرارات  
معروفة وقرارات غير معروفة ونحتاج إلى بحث طويل. وكل

القرارات المعروفة وغير المعروفة بحفظونها في منى كبير.  
 والمحامي لا بد أن يذهب نفسه والمكانب كثيرة والأدوار كثيرة  
 ليس لها عدد إذا عرف الطريق ووصل إلى الباب الصحيح لا بد  
 أن يترك بطاقته عند الدخول وتظهر في غرفة مع المحامين. غرفة  
 المحامين بالدور الأسفل بجوار دورة المياه. حالتي رأيتهم بعينها  
 لأنها حاولت تدخل دورة المياه. سمعوها وقلوا إنها البوقية. رأيت  
 المحامين مكثسين في الغرفة مثل السردين . . . مائة أو ألف لا  
 أحد يعرف. فوق بعض . . . وقصص طول النهار ينتظرون مثل  
 شحاتين البيلة ناس قلوا لخالتي إنهم ينتظرون تأشيرة رئيس  
 المحكمة الكبيرة . . . سألت خالتي عن اسم المحكمة. لا أحد  
 يعرف. لا اسم المحكمة ولا اسم الرئيس. لكن قالوا لها إن  
 التأشيرة مهمة. لا يمكن المحامي يعمل حاجة بدون التأشيرة.  
 ولا يمكن الحصول على التأشيرة في يوم واحد. المسألة تأخذ  
 وقت طويل. لأن الرئيس لا يحضر كل يوم، لأن هذه أعمالاً  
 أخرى في مكاتب كثيرة في أدوار كثيرة والقرارات كلها هذه في  
 درج مكتبه. ولا أحد معه مفتاح الدرج إلا هو شخصياً وإذا  
 سافر يأخذ المفتاح معه. وإذا غاب شهراً أو اثنين لا يمكن لأي  
 واحد غيره يفتح الدرج . . . ناس قلوا لخالتي إن القرارات سرية  
 ولها أرقام سرية. لكن كل قرار له رقم مسلسل. ومادام الرقم  
 مسلياً يبقى له تاريخ باليوم والساعة . . . ولا بد أن المحامي يعرف  
 الرقم والتاريخ بدون الرقم والتاريخ لا يمكن يحصل على  
 القرار. لكن مادام الأرقام مسلسلة لا بد أن القرار يظهر ويبان  
 ولو بعد عام . . . لكن المهم أن المحامي يعرف السكة، أو يعرف

شخصاً يعرف الرئيس أو الوكيل أو السكرتير أو حتى المراسل.  
 حالتي عرفت المراسل وقالت المراسل أهم واحد لأنه أول واحد  
 يعرف إذا كان الرئيس موجوداً أو غير موجود. مسافراً أو غير  
 مسافر . . . لكن المحامي الصالح صاحب الصمير لا بد أن يصل لأر  
 الله مع الصالحين . . . وخالتي تعرف محامياً عنده صمير لكنها تقول  
 إنه شاب خام ولا يعرف أحداً. طلب منها ثلاثين جيبها تحت  
 الحساب. لم يكن معها إلا عشرة جيبيات. ولأنه عنده صمير قال  
 لها الحقيقة مصراحة ورفض أن يأخذ العشرة جيبيات. قال لها  
 صعي الملووس في جيبك يا حادثة، ولا فائدة مني أو أي محام  
 لا فائدة من الحصول على رقم القرار أو حتى القرار نفسه. لأن  
 المسألة ليست قراراً، ولا رقماً، ولا أي حاجة المسألة كبيرة  
 وصعبة ولا يمكن يحلها محام ولا قاضي لا يمكن يحلها إلا الله  
 سبحانه وتعالى. وحالتي صرحت كما بكف وقالت له أعمل به يا  
 أستاذ. قال لها نوصأي وصلي لله يا حادثة . . . رأيت خالتي  
 تسكي، وبكيت مثلها. ودخلت للمدعي وحذي أرتعش من  
 الخوف . . . سألتني إسمك إيه يا شاطرة . . . قلت له اسمي اعتدال . .  
 قال لي واسم أموك، واسم جدك . . . قلت له كل الأسماء حتى  
 اسم أمي واسم خالتي. كتب كل حاجة في ورقة وقال لي. أنت  
 فين يا اعتدال . . . قلت أن في سجن القضاة في عصر السياسيات.  
 قال لي مين معاك يا اعتدال في العسير. قلت له معايا باسم  
 كويسين . . . قال لي مثل مين يا اعتدال . . . قلت له معايا دكتورة  
 اسمها نوال السعداوي . . . قال لي نول السعداوي معاكم حلي  
 بالك منها . . . قلت له أخلي بالي منها ليه . . . قال لي: حلي بالك من

كلامها، يمكن تحريك كلامها، وتقلب لك عقيدتك. قلت له.  
 هي ست كويسة وكلامها كويس، واحا كذا كويسين مع بعض  
 قال لي طيب روحي يا اعتدال قلت له. أروح بيتنا. قال لي  
 قصدي تروحي السجن وبكرة عندك جلسة ثاية هنا عدي قلت  
 له. طيب وليه بكرة، ما تسألني كل حاجة الهاردة عشان أخلص،  
 وبلاش أجبي بكرة تاني. قال لي: أنا ورايا ناس كثير غيرك  
 الهاردة، وبكره إن شاء الله نيجي تاني يا اعتدال قلت لك  
 وأجبي إراي قال لي: هم عارفين وهم اللي حديجيوكي، ولا  
 تحملي أي هم أنت.

\*

## الجزء الخامس

### موت السادات

تبددت بارقة الأمل في العدالة بعد جلسة التحقيق تأكدت أن  
 لا قانون ولا قضاء ولا عدالة أما هذا الجهاز المسمى بالمدعي  
 العام، أو المدعي الاشتراكي العام فليس إلا جهازاً لإلغاء  
 القانون، وطمس الحق والحقيقة. أين القضاء المصري؟ أين  
 المحاكم؟!

بدأت أشعر وطأة السجن. زميلاني من حولي صامتات  
 حزينات انكشف سر المدعي العام، لا أمل في إخراج طالما أن  
 السادات صاحب السلطة.

إلى متى يظل صاحب السلطة؟!

حين يشتد بنا الحزن ولأس نطن أنه سيظل صاحب السلطة  
 إلى الأبد أننا صموت في السجن ونندم تحت الجدار وهو  
 سيظل قابضاً على السلطة المطلقة بكلتا يديه.

حين يشطح بنا الحزن الجامح نتصور أنه أصيب بمرض

عصال، أو شلل معاجي، يمسعه من الاستمرار في الإمساك  
بالسلطة

إذا أصابت نوبة أمل مجونة يلوح لنا في المنام أو الحلم  
ثقلات في الجيش يعرله عن الحكم بعث ما حدث للملك  
فاروق.

لم يكن لعقولنا الظاهرة أو الباطنة أن يحظر لها أكثر من ذلك.

لم يكن موته أمراً وارداً لأي عقل أو حبال، هي يقظة أو  
منام. سمعنا أنه يحافظ على صحته. ينام كثيراً ويعمل قليلاً،  
ويرتبط في الهواء الطلق، ويأكل طعاماً صحياً، ولا يفكر كثيراً  
الدين يفكرون يموتون مبكراً، والذين لا يفكرون تظل أجسادهم  
قوية. موته صرب من المستحيل. لم نسمع لأنفسنا أن نحلم به  
مثل هذه الأحلام قد تضعف الإنسان. وبالفريزة وحدها عابت  
عنا الأحلام البعيدة.

ثم جاء ذلك اليوم. كما جالسات على الأرض، ظهورنا إلى  
الجدار... قلوبنا ثقيلة. عيوبنا ملتفة بالمبار. وجوها  
مبقعة بهياب المدحنة الأسود. أقدامنا مشققة تظل من  
الشبابش البلاستيك... جلايسا معقرة بالتراب عليها بقع من كل  
لون. شعورها مكوشة. جالسات وراء الفضبان كحيوانات حيصة  
داخل أقفاص حديدية.

رفعت عيني وانعرجت شعناي لأقول شيئاً لكسي أطبقت  
شفتي ماذا أقول وقد انطأ آخر نصيص من الأمل.

وفجأ رأينا «دوية» تفتح الباب ويدخل إليها وهي تلهث  
وجهاها الأسمر متوهج بالحمرة وعيناها كالجمرتين. هتفت  
بأنفاس كالشهيق: هل عرفتم الخبر؟!

- أي خبراً

- الساعات... ضربوه بالرصاص!

حركة شعنها وهي تطلق الكلمات بدت لي كحركة خارج هذا  
الكون. واللحظة كلها خارج الكون.

دارت الأرض، ودارت الشفتان الصراوان دورة كاملة كدورة  
الأرض حول نفسها. أصبح وجه ذوبة شعنتين يحجم الكرة  
الأرضية تدوران وتلمان وترددان ضربوه بالرصاص!

لم أكن وحدي الذي حدث لها ذلك رأيت الوجوه من حولي  
كلها محتقنة بالدم العيون متسعة. الأيدي تمسك بدوية.  
يدراعاها، يسافها، يرأسها، تهزها، ترجها، يتأكلان أنها بقطة،  
أنها بكامل عندها، أنها لا تهذي. وهي تردد بلا وعي...  
ضربوه... ضربوه...

هستيريا اجناحت العبر... أجساد ترتمي فوق دوية بلا  
وعي. ثعناها، ثقلها. دوية تحتق بالعناق والقبلات. تشد نفسها  
من تحت الأجساد. لانزال نشهن ضربوه!

والجميع يشهق في نفس واحد: ومات؟!

وترد ذوبة شاهقة: معرشة!

وتتحد عضلات الوجه وعضلات اللسان. تتجمد عضلات الصدر ويكفّ الهواء عن الحركة. تكفّ الصدور عن الحركة. يتجمد اللسان في الحلق. تلتصق الكدمة بالحلق:

لم يمض؟

وتنهق دوية: معرفشي

العيون جاحظة تدور حول نفسها، كالبيتدول زائفة. حائرة... مرعوبة بالأمل الجامح المفاجيء وهو يسلّس كالسراب.

الصدور تنتفخ بالأمل حتى تنفجر. ثم تنقلص وتهوي إلى القاع، قاع اليأس وصرخت واحدة: لو هاش!!

وشهقن: لن يرحم أحداً! سيدبحنا جميعاً... ميتنم منا.

وتساقط الأجساد بعضها فوق بعض، فوق ذوبة التي ما زالت تشد نفسها من يسهن وهي تشهق إذا جاء صابط المباحث الآن!

تفرق بعيداً عنها. الكل يلهث بالانفعال الطاعني يحاولن التحكم فيه. تشد كل منهن عضلات شفتيها لتعلق فمها. لتكن صونها.

همست واحدة: احكي يا ذوبة... كيف هرفت الخبر؟! من ضربه وأين ومتى؟!!

ساوت دوية شعرها الذي نكش، وجسبها الذي تهذّل تحت الأيدي والأدراع كأنها خرجت من معركة جسدية. بدعت ريقها

وقالت. سمعت الخبر الآن في التلفزيون. كنت هي العنبر وكلنا نتفرّج على العرض العسكري، وحقاً سمعنا طلقات الرصاص، رلإرسال وقف. وسمعنا من يقول إن السادات ضربه بالرصاص ونقلوه للمستشفى.

كان الوقت ظهراً والساعة تقارب لثانية مارال أماما ساعتان حتى موعد التمام في الساعة الرابعة. لم يكن نخرج «الرديو» «الترانسستور» من محبته في بطن الأرض إلا بعد ساعة تمام حين يبعث علينا البان الحديديان وتعود الشاويشة إلى بيتها، وكل إدارة السحن تصبح في البيوت

وقلت. لا بد أن نخرج الراديو ونابع الأخبار

وهتمن جميعاً في نفس واحد فلتخرج الراديو!

حتى «فوقية» أكثرنا حذراً قفزت لتخرج الراديو من المحب و «بنور» التي كانت تعتبر «الراديو» جهازاً شيطانياً مصيره جهنم لأنه يغني بخلاعة، هتفت فائقة: لنسمع الراديو!

أخرجنا الجهاز السحري الصغير بحجم كف اليد. أمسكته وحوطته بكفي. قلبي يندق وضعت فوق أذني ولم أسمع إلا دقات قلبي. ودقات قلوب الرميلات رؤوسهن إلى جوار رأسي، يقرب أذانهن من ذلك الشيء الصغير بحجم علبة السجائر.

انبعث الصوت السحري يقول: ها القاهرة

وتوقفت القلوب عن الدق. توقفت الأنفاس.

نصورتنا أنه مبعثل بأ لوفاة. ودثّ صمت ثقيل طويل. لا

صوت ولا حركة صدورها متوقفة. أما ما مقطوعة تماماً

ومجأة انطلق صوت مطربة تغني... تجمعت الدماء في عروقها صوحت «موقية» وهي تلطم خديها. نجا من الموت!

وشهقت الأخريات بشعاء جافة: كارثة!

ارتفع صوت المطربة في العنبر...

صرحت ذوية وهي ترمق الباب الشاويشة جءت يا جماعة... خيثوا الراديو!

كان الراديو في يدي فكتمت صوته، وأسهرت إلى دورة المياه. اختفيت داخل المرحاض.

من وراء نصف الباب المغلق سمعت صوت الشاويشة تخاطب ذوية ماذا تفعلين هنا يا بنت يادوية؟ لم تمسحي العنبر ولم تكسي الحوش ادعيني إلى عنبرك حالاً! لا أريد أن أرى وجهك ها!

صوتها مضطرب. يحفي شيئاً. لا بد أنها سمعت الخبر، وتريد أن تمتع من التسرب إلينا.

دب الصمت في العنبر.

مرق الصمت صوت فوقية صوتها مثل كل يوم هاديء خال من الانفعال. قالت:

يا شاويشة... هل هناك أحبار جلييلة؟

وجاء صوت الشاويشة أيضاً هادئاً مثل صوتها كل يوم خالياً من أي أعمال جديد.

قالت أبدأ. لا أحبار ولا حاجة الدنيا هي...

دندنة خفيفة في صوتها. رعشة حمئة لا يمكن أن تلحظها أذن. صوت مدرّب على إخفاء الحقائق يصل الصوت إلى أذني وأنا واقعة في المرحاض دون أن أرى عيبيها.

انطلوت حتى سمعت صوت رميلة تهتف من وراء نصف الباب المكسور: انصرفت الشاويشة...

وقلت ربما تأتي مرة أخرى. أو ربما يأتي صابط المباحث سأطل هنا وراء هذا الباب أتابع الأحبار في الراديو... وإذا لمحت أي أحد قادم في الماء أخبرني بسرعة.

قالت سأراقب باب الحوش، لا ترفعي صوت الراديو ضعيه فوق أذنك.

قلت: إنه فوق أذني.

قالت: إذا لمحت أي أحد سأهتف قائلة:

يا إله السماوات هذه هي الإشارة... يا إله السماوات!

كان المرحاض ضيقاً حافئاً. أسدت ظهري إلى الجدار أمام وجهي نصف الباب المكسور. إذا حركت ذراعي ارتطم كوعي بالجدار عن يميني أو عن يساري. الثقب المملوء بالمرار والماء العفن يحتل نصف مساحة المرحاض. لا يمكن أن أفق دون أن يكون الثقب بين قلبي.

ثلاث ساعات وقعتها على هذا النحو. كالمصلوبة ذراع

مرهوعة إلى أعلى بالقرب من رأسي، في نهايته ذلك الشيء  
المعدني المربيع ملتصق بأدي . ذراعي الثاني مرهوعة  
أبصاراً . وإصبع يحرك ذلك المسمار الدائري . ها لندن .  
هنا القاهرة . صوت أميركا . . . مونت كارلو . وأصوات  
بكر النعام . . . وسمعت صوتاً يقول: الإصابة خفيفة . ليست  
خطيرة . . . في الذراع فقط!

دارت الأرض انطبقت جدران المرحاض عليّ. توقفت عن  
الشمس. تصيب العرق من رأسي وذراعي وسافي، والتصق  
الجلباب بجدي.

فتحت الباب بسرعة خوفاً من الاختناق . التفت حولي  
الزميلات. قلت بصوت خائر يائس: الإصابة خفيفة . . . في  
الذراع!

ومسقت الأجساد على الأرض . . . بعضها في إعماء .  
بعضها في غيوبة . . .

قاومت اليأس شللت جسدي من فوق الأرض. حركت  
سافي المشلولتين

وقلت: سأتابع الأخبار . . . ربما تكون هذه الأخبار كاذبة . . .  
يقاومون الاربك المفاجيء الذي قد يحدثه موته . . . ربما يحتمون  
آخر موته حتى يفثوا من الصدمة ويستعدوا للدفاع عن مصالحهم  
في الشرق الأوسط بدونهم.

عدت إلى مكاني في المرحاض. صليت نفسي بين الجدار

والباب وبين قلعتي الثقب العفن . . . الإصابة لا تزال خفيفة.  
لكل صوت المديح فيه دجلة ورعشة الصوت الذي يحمي  
الحقيقة . . . سمعت زميلة تهتف: يا إله السماوات!

تذكرت الإشارة بصفطت بيدي على المسمار وقطعت  
الصوت. سمعت صوت الشاويشة في الحوش . . .

- تصبحوا على خير يا سات.

- وأنت من أهله يا شاويشة

ودار المفتاح في باب العبر ثلاث دورات . . . انتظرت حتى  
سمعت المفتاح يدور في باب الحوش الدورات الثلاث . ثم  
قفزت خارج المرحاض.

جلست على السرير ومن حولي الزميلات.

رؤوسنا متلاصقة، آذاننا تقربها ما أمكن من تلك الثقوب،  
كنقوب الإبرة، في ذلك الشيء المعدني بحجم كتف اليد.  
الأنفاس تتلاحق والرؤوس تتزاحم . . .

وسمعت الصوت ها لندن . . .

ودبّ الصمت . . . وكنا أنفاسنا . . .

وجاء الصوت الهادي يقول: جاءنا أبناء مؤكدة تقول إن  
السادات توفوا . . . وانتفضت كل الأجساد في الهواء. سقط  
الراديو على الأرض ولم تنبه إليه واحدة.

لحظة حارح الرمس، وخارج الكون. لا يمكن الإحساس بها  
ربما فقدنا حواسنا الخمس فلم نرى أو نسمع شيئاً . . .



الأشياء من حولي تدور وتدور أمسكت رأسي. حلم أم علم؟! وما هذا الذي يدور من حولي؟! العسر؟ أم أنا التي تدور؟!!

أفتت على مشهد عجيب «بدور» تدور حول نفسها، بدون سقاب وبدون عباءة، تدور وترقص، ومن حولها الرميقات المسقيات، يرقص عاريات الشعر، بدون نقاب أو حجاب، الأجسام تهتز بعف، والخصر يشي والطن يرنح، والردوس تمايل والشعور تتطاير.

ومشهد آخر أعجب. «فوقية» التي لم تركع في حياتها ركعة واحدة. رأيتها ساجدة على الأرض، راقعة يديها إلى أعلى وهي تصيح. أحمدك يا رب. ومن حولها الرميقات الأخريات ساجدات واكعات.

يهتمن في نفس واحد: فحملك يا رب!

كنت أنا مشغولة عن الرقص وعن الصلاة شيء أعجب. هو محاولة الإمساك باللحظة. أحس أن تملت اللحظة وأنتع عني وأدرك أنه حلم. أنطلق إلى جدران السجن والفصيان وأقول. ليس حلماً بل دليل أنني في السجن.

وهتمت فوقية بصوت هيسيري تقلد صوت السادات في خطه: لن أرحم... وصاحت «بدور»: سيجانك وبه...

لا رلت هجرة عن الإمساك باللحظة. عفتي يدرك الحقيقة. قلبي ستهج بالفرح والأمل لكن خلية في عفتي لا تزال قلقة

متوجسة. لا زلنا وراء الفصيان... من قتل السادات. وما الذي سحدث؟!... أي شيء يمكن أن يحدث. ربما انقلاب... ربما ثورة... ربما يطلق سراحنا... وربما يذهبوا داخل السجون. كل شيء وارد وأي شيء ممكن، ما دامت رصاصه انطلقت وقتلت رئيس الجمهورية وهو محاط بالخراس والبوليس والجيش.

من أطلق الرصاص؟! وكيف؟!!

أول مرة في تاريخ مصر، مطلق رصاصه وتقتل رئيس الجمهورية أي لحظة تاريخية أعيشها جسدي وعقلي وأنا داخل هذا السجن!

هتفت «بدور»: من قتل يقتل ولو بعد حين

قلبي يدق تحت ضلوعي الفرح يحتلظ بالقلق الحقيقة تمتزج بالخيال. عياني تتاعان الرقص والسجود، وتتقلد من السقف إلى الجدران... ومن بعيد يلوح لي وجه روجي، استني، ابني... لا بد هرفوا الحبر. ماذا يفعلون...

بدأ الحلم يلوح من بعيد. طردته لحظة ثم أعدته إلي... رأيت نفسي في بيتي، ثم طردت الفكرة أعدتها إلي ثم طردتها مرة أخرى أنعاسي تتلاحق. صدري يملو ويهبط... الدم يتدفق في رأسي، شريان في عفتي يكاد يتفجر.

بهتت فجأة وقلت حتى إذا لم يحرج من هنا يا جماعة فقد تحررت اللدا! وهتعا في نفس واحد نعم تحررت اللدا!

ولم يعمم له جفن تلك الليلة تدفق الدم في شرايين المخ  
وطرد النوم. ونسّلت الأحلام والآمال لتدب ظلام الليل

سمعنا الطبل ولرقص يتبعث من العناصر الأخرى صوت  
الشايشة «نوشجية البيل» يرن في الليل ويقول لنا من خلال  
القضبان مبروك يا سياسيات. مبروك عليكم وإن شاء الله كلكم  
إفراح، والبلد كلها إفراح إن شاء الله!

ودوت أصوات في السجن تنشد:

دولا مين دولامين دولا عساكر مصريين!

دولا مين دولامين دولا ولادنا الوطنيين!

وهتعت «ندور»: العيد بكرة يا جماعة. العيد الكبير!

واطلقت الأصوات تعمي: يا ليلة العيد أستيا. وجددت  
الأمل فينا... يا ليلة العيد!

\*

في الصباح جلسنا كالمعتاد خباباً الراديو في بطن الأرض،  
وضعنا الأفتنة على وجوها. تظاهرنّا أننا لم نعرف الخير أننا لا  
زلنا نعيش في عهد السادات. الحزن مرسوم على وجوها. -  
والياس..

دخلت إلينا إدارة السجن مكامل هيئتها. بعضهم يرتدي رباط  
عنق أسود. وجوههم شاحبة. عيونهم حمراء لا يد أنهم لم  
يتأموا الليل مثلاً.

قلق يجري في العيون كالرثق لا يعرفون ما الذي سيحدث.  
عندهم أوامر بإحفاء حبر الوفاة عن المتحفّط عليهم.

هتعت «ندور» بصوت خافت: الهادة العيد كل سنة وأنتم  
طيبين.

قالت زميلة من المنقيات: نريد أن نشترى لحمة العيد. كل  
الناس ستأكل لحم في العيد إلا نحن.

قال مسؤول السجن: ستشتري لكم لحماً وعندكم فلوس في  
الأمانات.

هتعت «ندور»: لا! نحن لا نأكل اللحم من السوق. لا  
نعرف من ذبحه، وهل ذبح على الطريقة الإسلامية أم لا. نريد  
أن تشتري مرحتين ونذبحهما بأنفسنا. ابتسم مسؤول السجن  
وقال: ستشتري لكم فراحاً صاحبة لتذبحوها على الطريقة  
الإسلامية

ثبتت عيني على وجه ضابط المباحث. عياه تتحركان بسرعة.  
قدق واضح يحاول أن يحفيه. ومن تحت القلق شيء كالزحاة  
العميقة أو المرح الخفي... تفرج شفاه كأنها سيلقي علينا  
بالأ، لكنه يتراجع ويطن شفاه في صمت. مسؤول السجن أيضاً  
يحفي سروره لكن عيناه تفصحانه عياه تمنعان بانسامة وقبل  
أن يستدير ليخرج قال: عيد سعيد يا جماعة..

وكل سنة وأنتم بخير

رأيت ظهورهم من الخلف. ظهور محيئة قليلاً يبدو عليها

التعب. القلق الحيرة. رجال أصبحوا يحكم الوظيفة حراس  
سجون أو جلادين أو جواسيس على غيرهم من البشر. في  
أعماقهم الإنسان مازال قابلاً.. كامساً.. ما أن يسيّر المناخ  
العاسد حتى يطل الإنسان برأسه، يتشم رائحة الهواء النقي.

لماذا أحفوا عنا غير لومة؟ هل جاءتهم تعليمات من فوق  
بإحفاء النحير؟ أم هي العادة، ولتمرد، وهادات يكتسبها من  
يعملون في تلك المهن؟

قبل أن يخرجوا تماماً من الباب ناديت عليهم. استداروا  
نحوي. ثبت عبي في عبي المسؤول الأكبر معهم، وقلت له:  
أريد ورقة وقلماً لأكتب طلباً للسادات!

كان صوتي عادياً كأد السادات مازال يعيش. رأيت الاهتزازة  
في العيون. والشحوب في الوجه. رعشة العضلات حول الفم.  
انمرجت الشفاه من حركة أشبه بالخوف. الحيرة المفجأة.  
التردد. ثم الصمت.

حيالي القصصي وشيطاني الفني يسجل هذه اللحظة يرسم  
الصورة، والمأساة، الإنسان المحبوس داخل الخوف...



لا بد عرفوا أننا نعرف السجن كله يعرف، العناير كلها بها  
راديو، أو تلفزيون، فكيف لا يصلنا الخير؟!

لم يكن في (مكاتبهم) إحقاء الخبر أكثر من يوم واحد. في اليوم

التالي جازوا باسمين متوددين. يتحدثون معاً بدهشة  
مختلفة.

صحت أحدهم قائلاً: من يدري ماذا يحدث غداً؟ هذا هي  
السياسة!

يوم في السجن! يوم في الحكم!..

وقالت «بدور» يوم في القبر!

وساد الصمت لا أحد يريد أن يتذكر حادث الاعمال. لا  
أحد يعرف ما الذي يحدث غداً. صحيح أنه مات... لكن من  
يعلم أنه لن يصحو مرة أخرى؟! بعض الناس تصوّروه فوق  
البشر، يعيش أو يحكم مدى الحياة!

عيوبهم لا تزال مليئة بالخوف والقلق لا شيء مضمون ولا  
أحد يعرف الغيب.

وهل توقع أحد أن هذا الإله الذي جلس على العرش وصاح  
فائلاً: لن أرحم! أنه سينكمى على وجهه فوق الأرض، وتدمس  
الأقدام (وهي تجري بعيداً عنه) على قبعة رأسه وعلى الأوسمة  
والنيشين وعلى النجمة التي علّقها فوق صدره؟



في ٢٨ سبتمبر ١٩٨١ حُرِجت للتحقيق أمام المدعي  
الاشتراكي، وهدت إلى السجن. بعد أسبوع واحد من ذلك  
التاريخ، في ٦ أكتوبر ١٩٨١ مات السادات بالرصاص، بعد شهر  
واحد من ذلك اليوم (٦ سبتمبر ١٩٨١) الذي أرسل فيه رجال

بوليسه ليكسروا باب بيتي ويأخذوني إلى السجن...

ولاح أمل الحروح بعد موت السادات. استيقظت كل الأحلام، واستيقظت معها المشاعر الطبيعية. التفت الانتظار الترقب.

فقدت الاستقرار والهدوء. لم أعد أستطيع التركيز في شيء.. هجرت حتى من الكتابة... ما أن أمسك القلم حتى يلوح لي وجه زوجي، وابنتي، وابني... ويشتمل خيالي، أتصور نفسي حاملة حقيتي وامة أمام باب بيتي أدق الجرس... ويفتحون الباب!

أحس على الأرض الترابية وأحاول التفكير في شيء آخر لكن خلايا عقلي لم تعد قادرة على ذلك. الحلم الذي لم أسمع لمسي أن أحلم به قبل موت السادات أصبح هو الحلم الوحيد الذي يملأ رأسي... يطرد كل الأمكار الأخرى. يطرد الراحة يطرد النوم. يطرد الهدوء أو الاستقرار

أصبحت عابرة عن الجلوس. أو الوقوف... أو السكود بضع دقائق.

جسمي يتحرك وحده. أجلس، وأقف، وأتمشى في العبر، ولا أتوقف.

وما أن يرن أي صوت حتى أتلمت. أتصور أن الصوت يناديني... وأن أحناً يقول أهدي الحقيبة.



لكن الأنام مرّت، اليوم وراء اليوم، ولم نسمع عن قرار حديد يلغي قرار السادات بالتخلف علينا.

بدأ التغيير داخل السجن سمحوا لنا بقراءة الصحف وسماع لراديو. والحصول على أطعمة من البيوت. ورسائل خطابات إلى أهلنا.

انتهت فترة التكدير، وحصلنا على ما نحصل عليه المسجونات الأخريات إلا الحروح إلى النساء، وحرمت أيضاً من رؤية أهالينا.

لكن كل ثلاثة في الساعة الواحدة بعد الظهر يدخل صابح المباحث يحمل لي رسالة من زوجي، ومن حلقه واحدة من المسجونات أو الشاويشة تحمل علي الطعام.

الرسالة قرأها من قلبي ضابط المباحث. قرأها قبل أن أقرأها أنا. يسلمني الرسالة وهو يتشم قائلاً: دكتور شريف جاء وهذه رسالته إليك.

الرسالة مفتوحة. وعلب الأطعمة مفتوحة. كل شيء لا بد أن يفتش بدقة قبل أن يصل إلينا. لكن كلمات شريف على الورق تعيدني إلى الحياة. نقاط ضوء في الظلام...

منذ شتاء ١٩٦٤ وشريف في حياتي لحظات الحب. لمسات دافئة كشعاع الشمس في الشتاء حوار ممتع يمتد في الأعماق. لرجال من حوله يدون في عيني ثنائين، كالأطفال، وهو صامت لكن إذا ما تكلم صمت الآخرين. قصي في السجن

ثلاثة عشر عاماً من شانه متواضع إلى حد العظمة، وعظيم إلى حد التواضع قوي إلى حد الرفه والشفافية رقيق إلى حد الصلابة والقوة الحقيقية.

بدر كسمة هواء نقي في سحن القاطر كراي صادق شجاع في مجتمع معشوش قلت بعصب لصايط المباحث أبحصر زوجي إلى السجن فلا أراه؟

قال: الزيارات ممنوعة.

فت: إذن سأكتب إليه أطلب منه ألا يأتي. لا أريده يقطع كل هذه المسافة لمجرد أن يحمل لي علب الطعام لا أريد طعاماً، وكنت الرسالة، وحملها إليه ضابط المباحث.

لكن شريف ظل يأتي إلى السجن كل ثلاثة دون أن يراي يترك علب الطعام والرسالة ثم يمضي بهدوء.

وأصحت أنتظر الثلاثة من كل أسبوع. أحوط الرسالة بيدي وعيني وأقرأها، ثم أعيد قراءتها، وأغمض عيني وأحلم أسي أصبح في بحر من ضوء الشمس.

ما أن يتردد صوت الكروان هجر الثلاثة، حتى أرى العيون من خلال ثقوب لثقاب تلمع وتنظر إليّ باسمه: اليوم الثلاثة يا دكتورة نواز طعماً... الدنيا لا تسلك اليوم!

وتعنت الرميقات عيونهن باسمات هاميات لثلاثة يا نواز... الثلاثة!



قرأنا في الصحف ذات يوم أن حسي مبارك أصدر قراراً بالغاء الإعلانات في الصحف وعدم نشر صورته كرئيس للجمهورية داخل هذه الإعلانات في المناسبات والأعياد. صفحت الرميقات فرحاً.

كما نرى صور السادات داخل الإعلانات التجارية عن شركات الأمن العدائتي، أو أي شركة أخرى، أو أي محل تجاري. ما أن يقل عيد من الأعياد حتى يتبارى التجار وأصحاب الشركات على نشر التهانى للسادات، وإعلان التأيد والولاء.

حتى كبار الموظفين في الحكومة والمحافظات، ورؤساء المؤسسات والقطاع العام كانوا يشتركون في هذه الاعلانات وينشرون صور السادات وتحتها كلمات الولاء والتأييد.

إعلانات وصور للسادات في كل مكان، عهد ناصية أي شارع، في كل ميدان، في كل إعلان، على جميع صفحات الصحف والمجلات، على الشاشة الكبيرة، وشاشة التلفزيون.

لا يمكن أن ترفع عيبك إلى شيء ما دون أن تثرى صورة للسادات، مكثرة، أو مصعرة، باسماء، أو مقطعات، بالملابس العسكرية أو البدلة البحرية، أو البدلة المدنية، أو وشاح القساء، أو عباة القرية

صور وعلامات كانت تكذب لدولة ملايين الجبهات. ولا بد أن يشارك كل مسؤول في أي قطاع في موكب الإعلانات. . . ولا أصبح عربياً ولا يطاق وقد يتعرض للاضطهاد.

وهتفت زميلة إذن حسني مبارك مختلف ولا يحبه النفاق والريث!

وقالت زميلة مواكب النفاق لا تنفع أحداً... أين كانوا حين مات السادات؟ . . . اختفوا جميعاً مذعورين... تركوه يموت وحده، ويدفن وحده.

وقالت أخرى جارة السادات كانت بدون شعب سار وراءه بعض الأجانب وروساء إسرائيل وأميركا... .

وردت زميلة لا يحزن على الميت إلا أهله ومن يستفيدون منه.

قلت: هل يمكن أن تتغير الأحوال في بلدنا؟

أمل بدأ يندوح في الأفق. هذا الرئيس الجديد لا يريد دعاية لنفسه عن طريق الإعلانات التجارية أو شركات الامتياز.

الدعاية الحقيقية لأي حاكم هي عمله.

هل يمكن أن نخطو بضع خطوات إلى الأمام؟

ومع ذلك قرأنا بالصحف أن رئيس الجمهورية يعلن أن التحفظ ليس عقوبة.

أصابتنا الدهشة، وقررنا أن نكتب له برقية.

إذا كان التحفظ هو وصفت داخل السجن فكيف لا يكون عقوبة؟! خلال حياة السادات رفض أن توجه له طلباً أي طلب رفضاً أن نحاطه أو نرسل إليه أي ورقة أو احتجاج.

لكن الرئيس الجديد ليس هو الذي حبسنا، ويمكن لما أن نحاطه طلبنا ورقة وقلماً، وجلسنا على الأرض وكنت البرقية كالآتي:

السيد حسني مبارك رئيس الجمهورية

قرأنا تصريحكم في الصحف بأن التحفظ ليس عقوبة. ولم نهم هذه العبارة. لأن الحس وراء القضاة داخل السجن عقوبة في حد ذاته. فلما بال أن نحرم أيضاً من الحقوق القانونية والإنسانية للمتهم تحت التحقيق لا رلنا حتى اليوم محرومات من حق تحديد التهم الموجهة إلينا ولم يبت في وضع من ثم لتحقيق معهن وما رلنا محرومات من مقابلة المحامين، والأهل وتعرض الرقابة على مراسلاتنا مع أسرنا. ولا يصدا ما يعيد وصولها إليهم. ولا يسمح لنا بالخروج إلى فناء السجن مثل بقية المسجونات العاديات. ونعيش داخل عتير التسؤل. في مكان مشبع بالدخان والتراب وبخار الجاز المحروق، والحشرات الباقلة للعصى، مما يوقعنا بأبلغ الضرر المادي والمعنوي، ويجعل من التحفظ عقوبة مصاعمة وليس عقوبة واحدة.

وقدنا جميعاً على البرقية وسدناها لقباط المباحث، وطلبنا الرد عليها.

ولم يصلنا أي رد. لم يعرف هل وصلت الرقية أم لا. سألت صابط المباحث عنها فقال: سلمتها لورناستي في المكتب ولا أعرف عنها أكثر من ذلك، ولا بد أنها وصلت.

مرت الأيام والأسابيع ساد التشاؤم. تسدّ الأمل بداً المرحص يهدّد صحة بعض الرميلات أصيبت إحداهن بزيغ وظلت طبيباً اختصاصياً في أمراض النساء من خارج السجن.

اكتشفنا أن سجن النساء ليس به طبيب أو طبيبة لأمراض النساء.

إحدى الرميلات كانت حاملاً في الشهور الأخيرة، وبدأت تصاب بتوابع ضعف وإغماء.

أما أنا فقد بدأت آلام العمود الفقري بسبب النوم غير المريح، ورطوبة الأرض، والهواء البارد يدخل في الليل من بين القصان، مع انتهاء الخريف وبداية الشتاء.

ارتفعت إحدى الرميلات من البرد ذات ليلة. شحب لونها وارتعشت أطرافها، وقالت: لا بد أن يسدوا الباب والنوافذ. لا أستطيع أن أبقى داخل هذا العبر في الشتاء!

صاحبت رمية أخرى. سأمرت إذا قصيت الشتاء هذا.

بدأت كلمة «الموت» تتردد على ألسنة الرميلات. العجرات مقبض دحان المدخنة تصاعف واردة سواداً وكثافة قطعة السماء فوق الحوش الترابي أصبحت رمادية بلون التراب دوية

مرصت ولم تعد تأتي إليها. الشاوشة خطواتها ارددت مطناً وثقلاً تلف حول رأسها شالاً أسود وفي قدميها جورب سميك أسود. فتحة القتالة أخفوها في المشعل.

قلبي ثقيل. في أعماقي صراع ضد المرحص، وضد الموت، وضد التشاؤم لكن الوجوه من حولي شاحبة العيون ضاعت منها فورة الغضب. نظرات يائسة مستسلمة كأنها تنظر دورها في الموت.



فتحنا عيوسا في الصباح على حبر في الصحف أحد زملائنا المتحفظ عليهم مات في السجن.

صاحبت الرميلات في نفس واحد بدأ الموت في سجن الرجال وسوف يأتي إليها حالاً.

استيقظت غريرة الدعاع عن السقاء تلاشت النظرة اليائسة المستسلمة، ورأيت العيون تتأجج بالبرق الجديد كالشعلة. كالبقطة الأخيرة قبل النفس الأخير.

التحفز الإنساني قبل انتهاء الإنسان.

بدأت الأجسام تدبّ فيها الحركة. حركة شبه مجونة لا تكف ولا تهدأ، وسؤال واحد يحترق خلايا المح الركدة فيبعث فيها حركة، وحيرة شبه مجونة لا تسكن ولا تهدأ ماذا يفعل؟ الموت يقترب فهل سكت؟ هل يموت؟! واستيقظ المارد في أعماقي

مردداً كلحاته. لم نموت! وإذا متنا فلن نموت ساكنات! لن نمسي في الليل دون صجة لا بد أن نعص ونعص!

ونجمعنا على شكل دائرة. رؤوسنا متجاورة. حتى «بدور» و «قونية» رأبتهما معاً داخل الدائرة. وقصا متجاورات، متلاصقات تستند الواحدة على ذراع الأخرى.

ماذا نفعل؟

سحر أربع عشرة، ولكل واحدة ذراعاً. ثماني وعشرون ذراعاً. لو أمسك كل ذراع شيء ما يمكن أن نضرب الباب ونكسره.

انطلقت كل واحدة فيما تجري داخل العسر واحدة خلعت عموداً حديدياً من سريرها. واحدة رفعت حجراً ثقيلاً كنا نجلس عليه كمقعد. واحدة أمسكت يد الهون الخشبي (كما قد استمرنا من عبر القتالات لطحن الفول) واحدة أمسكت حلة نحاس كما نطبخ فيها العدس. واحدة أمسكت الوابور الحديدي من لم نجد شيئاً أمسكت صحتها من الألومنيوم.

بداناً نضرب قضبان الباب ونعجن نهتف في عرس واحد سنحطم هذا السجن! لن نموت دون صجة!

ارتج الباب الحديدي تحت الصربات العبيقة ارتج السجن بالصوت الذي أصبح كهدير الشلال.

خرج المارد الجدار من أعماق الإنسان المهتد بالموت القوة

سكائمة الحبيسة منذ زمن بعيد الطاقة المحرومة المكسوة منذ الماصي السحيق، منذ الطفولة، منذ الولادة، بل قبل الولادة، منذ كان الإنسان جنيناً في بطن أمه.

هرعت إدارة السجن إلينا ما الذي حدث؟ ما الذي رفع العطاء عن المارد المحبوس في القوقعة؟!

مات زميل لنا في السجن وكلنا مهتذات ماتت. لماذا نزل في السجن ورئيس الجمهورية صرح بأن التحفظ ليس عقوبة؟! لماذا نعالج بالحس دون جريمة؟ دون اتهام؟! دون تحقيق عادل؟! دون أن نعرف نتيجة التحقيق؟!

تكنم معاً مسؤول السجن، وصابط المباحث، ومسؤولون آخرون. قدلوا إن المدعي الاشتراكي يظن في كل الحالات وسوف يطلق سراح أي حالة ثبت براءتها.

قلنا بعصب لا جديد في هذه العبارة! منذ متى يبحث المدعي الاشتراكي الحالات؟ وهؤلاء الأبرياء إلى متى يظنون وراء القضبان؟ وهل يعصون عن تلك الأيام والأسابيع والشهور التي قضوها في السجون دون دنس ودون جريمة؟!

وقد ضابط المباحث: ليس عندي إجابات على هذه الأسئلة وسألنا: من هذه الإجابات.

قل المدعي الاشتراكي، والنايب العام، ورئيس الجمهورية واسهت الثورة داخل العسر كما كانت تنتهي كل مرة بحصولنا



على ورقة وقلم، وكتب بيباً إلى رئيس الجمهورية، والمدعي الاشتراكي والنائب العام... قلنا فيه ما يأتي:

نعلم احتجاجنا، نحن النساء والفتيات المودعات بسجن القناطر الخيرية، نحن السجينات السياسيات، وبسبب الأم التي حرمت إرضاع مولودها والحامل في الأسابيع الأخيرة بدون الرعاية الصحية والجسمية الواجبة. والأمهات اللاتي حرمن رؤية أطفالهن وأرواجهن شهوراً متتالية. والمريضات اللاتي طلس العرض على الطبيب الإخصاصي دون جدوى والطلبات اللاتي حرمن الدراسة. نحن اللاتي أحدن عوة من بيوتنا ومن وسط أهاليها بغير جريمة، وألقين في زنابير السجن تحت أسوأ الظروف الإنسانية، متعرضات لأنواع شتى من القهر النفسي والمادي، ولأضرار خطيرة، ابتداء من الأضرار النفسية والمعنوية والأدبية إلى الأضرار الجسمية والاجتماعية والمهنية والعائلية. ولا رلنا حتى اليوم نتعرض لهذه الأضرار التي تمثل عقوبة نمارس ضديا وهم التصريحات المتعددة لرئيس الجمهورية الجديد بانتفاء صفة العقوبة على المتحفظ عليهم. هذه العقوبة المستمرة بشتى أشكالها، ويكفي الحرمان من رؤية أطفالنا وأهاليها. ويكفي ما نعايه من إهمال مقصود أو غير مقصود لصحتنا الجسمية والنفسية. ذلك الإهمال الذي أودى بحياة رميل لنا، والذي قد يؤدي بحياة أي واحدة منا.

ونحن إذ نعلم احتجاجنا على استمرار حسنا حتى اليوم، نطالب بالإفراج عنا فوراً، وإدانة كل أنواع القهر النفسي

والمادي، وكافة أنواع التعذيب المعنوية والجسمية التي يتعرض لها السجين السياسي أو السجينة السياسية، ونطالب بإلغاء القرارات والقوانين المقيدة للحريات، كما نطلب بوقف حملات الاقتراء والأكاذيب التي تنشرها الصحف.

وقمنا جميعاً على البيان وسلمناه لصابط المباحث، وانتظرنا الرد.



في صباح أحد الأيام، (يوم ٢٣ نوفمبر ١٩٨١) فتحت إحدى الصحف (جريدة الأحرار) فقرأت في الصفحة الأولى أسماء بعض المتحفظ عليهم، وقراءت اسمي بينهم، وأن هؤلاء قد اتهموا بواسطة المحابر العامة بتنفيذ مخطط سوفيتي تشترك فيه قوى الرفض لإحداث حالة من العوضى بالبلاد من خلال المناجزة بمشاكل الجماهير ودكاء الخلاقات الطائفية واستغلال الجماعات الإسلامية وتحريض الشعب على القيام بثورة تنجيه بالبلاد نحو الشيوعية.

كيف نشر الجريمة هذا الحبر الكاذب؟ إن المخابرات والباحث لم تستطع أن توجه إلي مثل هذه التهمة، ولم يرد في أمثلة المدعي الاشتراكي لي أي سؤال عن مثل هذا الأمر؟!

تحت الشاوشة الباب فوجدتني ثائرة عاضبة هددت بحرق العير بالكبريت والجار أسرع الشاوشة تجري وعادت ومعها ضابط المباحث ومسؤولي السجن.

فلت بعض سمعتي الوطنية تساوي حياتي، ولرأسكت على  
هذا الكذب والافتراء وتشويه السمعة

لم أهدأ إلا بعد أن أرسل ضابط المباحث إشارة عاجلة  
باحتجاجي ورغبتي في الرد على الجريدة.

تلك الليلة لم يعمض لي جفن أي قهر هذا الذي يمارس  
صدماً ونحن وراء القصاص لا نملك الرد أو الدفاع عن أنفسنا؟

أي جريمة نفتخر في حق كرامة مصر لم تدخل السجن إلا  
بسبب مواقفها وكتاباتها الوطنية الداعية إلى العدالة والحرية؟

مما زاد عظمي أنني أصبحت أقرأ في الصحف بعد موت  
السادات مقالات تنقد سياسته وتدعو إلى الوقوف بحمض ضد  
الفساد والظلم والمجسومة، وكلمات كثيرة أصبحت تشر تب  
الكلمات التي سبق أن نشرتها في عهد السادات والتي حسني  
بسبها.

الدماء تغلي في رأسي. جسدي يرتعد بالغضب.

أمسكت رأسي بيدي . الأمصل أن أهدأ فأنا ما زلت وراء  
القصاص، ولا أملك وسيلة الدفاع عن نفسي....

هدأت قليلاً.... ثم أمسكت ورقة وقلماً ووجدتني أكتب هذه  
الرسالة إلى رئيس الجمهورية....

السيد حسني مبارك/ رئيس الجمهورية  
نحلة طيبة

رغم وجودي في سجن لقاطر إلا أنني سمعت تصريحكم عن  
أن سيف القانون لن يفرق بين كبير وصغير وقد اقترعت في حق  
جريمته:

الجريمة الأولى هي إدخالي السجن منذ ١٩٨١/٩/٦ وحتى  
اليوم دون أي جريمة إلا موقفي المعلن وكلماتي المشورة في  
لصحف دفاعاً عن حرية الرأي والحقوق الأساسية للإنسان  
والشعب المصري . ويمكن لكم أن تتأكدوا من ذلك بالاطلاع  
على محضر التحقيق الذي أجراه معي المدعي الاشتراكي.

أما الجريمة الثانية فهي تشويه سمعتي الوطنية والأدبية وأما  
داخل السجن لا أملك وسائل الدفاع أو الرد وقد نشرت جريمتي  
الأحرار في صفحتها الأولى بتاريخ ١٩٨١/١١/٢٣ حرراً كذباً  
يلوث اسمي الوطني الباصح البياض، ويصور للرأي العام أن  
التهمة التي وجهت إلي هي الاشتراك في تنفيذ مخطط سويسري  
لإحداث فوضى بالبلاد، هذه التهمة التي لم تجر المحاكمات أو  
المباحث على توجيهها إلي.

ويريد وقع هاتين الجريمتين علي حين أقرأ في الصحف اليوم  
كلمات هي نفسها الكلمات التي سبق أن كتبتها والتي سبقت  
دخلت السجن، لكنهم اليوم أصبحوا يتساقون لكتاباتها مثل من  
تسابقوا بالأص لإدانتها.

كل ذلك، وأنا لا رلت بالسجن أنتظر الإفراج إلا أن الإفراج  
عني لا يعني خروجي من السجن محسب، ولكنه يعني أيضاً تطبيق  
الوعد الذي أحدثته عني نفسك، وقد أكدت بأبك لن نعد شيئاً  
تعجز عن الوفاء به.

وقد وعدت أن سيف القانون لن يفرق بين كبير وصغير، مهل  
يتجه سيف القانون ضد كل من اشترك في الجريمةين السافتين؟  
وهل يمكن أن ترد لي حقوقي القانونية والإنسانية والوطنية  
والأدبية التي أهدرت على مدى الشهور والأسابيع والأيام؟

إن سمعني الوطنية وكرامتي الأدبية تساوي حياتي تماماً، لا  
فرق. فأنا لم أرتهما عن أب أو جد. ولم تصحهما لي سلطة أو  
مصب، لكسي ببيتها على مدى السنين بكماحي وإصراري،  
واستطعت أن أصنع بهما اسمي: نوال السعداوي، الكاتبة  
المصرية، المعروفة بقلمها الحر وفكرها الشجاع الأصيل، في  
مصر وفي الوطن العربي وفي العالم كله.

فهل يمكن أن تمى بهذا العهد الذي قطعت على نفسك. أرجو  
ذلك. وشكراً وتحيّة.

•

انتهيت من كتابة الرسالة حين سمعت صوت الكروان...  
نهضت من السرير وسرت إلى الباب... دسست رأسي بين  
القصبان، سمة الحجر الرطبة المسعشة. وضوء الشفق  
يزحف من بعيد. صوت الكروان يتردد متقطعاً كالشهقات،

كالنداء، كالشيخ، كطبل يشق بالصحكات. أو الكاء.

وجه انني يلوح في الظلام. عيائه تلمعن ومن حلمي  
سمعت صوت الزميلات المنفات. أذان المعج والصلاة... .

ارتديت الحذاء الكاوتش وبدأت التمرينات الرياضية.  
الحركات المعبية تشعرني بالراحة العرق يتصب غزيراً... يغسل  
الأرق ويغسل التعب.

وضعت رأسي تحت الماء البارد، الآن فقط أشعر بانعاش،  
وجوع أو ظمأ مجنون لكوب من الشاي.

لم أكد أحوط الكوب الساخن بيدي حتى سمعت المصح يدور  
في الباب... . ورأيت الأمور منتصباً أمامي... .

قال بانفعال يكتمه: دكتورة نوال أعدي حقيبتك وتعالني  
معي.

انتمضت واقعة: إلى أين؟!

قال: لا أعرف.

قلت: إفراج؟

قال: لا أعرف!

حوطنتي الزميلات... لا بد أنه إفراج...

قلت: إذا كان إفراجاً فمماذا لا يقول ذلك لا بد أنها جلسة  
تحقيق أو انتقال إلى سجن آخر!

تركنتي الأمور لأعد حقيبتني أقاوم الإحساس بالفرح ربما لا

يكون إفراجاً وقد أعود إلى السجس مرة أخرى.

لكن إذا كنت سأعود مرة أخرى لماذا يطلب مني إعداد حقيقتي؟

دسست الملاس في الحقيبة في عربة كرتون صغيرة وصعدت أصابع السلك الألومنيوم، مجموعة من «رولوا» الشعر (سلك على شكل أصابع تلف به النساء شعرهن) لم أكن ألب شعري بهذه الأصابع السلكية، لكي كنت قد خبأت داخلها كل أوراقتي ومذكراتي كل ليلة

أسرعت كل زميلة تدلني رسالة صغيرة وهي تهمس في أذني:

«لو خرجت إفراج أو سلمي هذه إلى أهلي».

خبأت الرسائل داخل خدائي الكاونش، ومعها رسالتي إلى رئيس الجمهورية.

كنت أتوقع أن يفتشوني عند الباب، لكن أحداً لم يفتشني. رأيت باب السجس الكبير مفتوحاً على مصراحيه. وكل شيء من حولي يجري وينهث. سلمسي الأمور بسرعة الجسيهات الباقية لي في الأمانات، وبطافتي، وأشيائي التي أخذها معي أول ليلة جئت فيها إلى السجس الكل يبدو متسحلاً، الصراط يلتهون

عبونهم ثومقي شيء عامص يشه الاحترام أو الرهبة.

فادومي بسرعة إلى سيارة ملاكي صغيرة. جلست في المقعد الخلفي. انطلقت السيارة تجري وتلهث. حتى السائق يبدو وكأنه يلهث.

تفتت حولي بدعشة: ما الذي حدث؟

- خير إن شاء الله

- إلى أين تحملونني؟

- خير إن شاء الله

- سنحملك إلى مكان معين

- ما هو هذا المكان المميز

- ستعرفين حين تصلين.

من لهجتهم أحس أن شيئاً ما خطيراً قد تعبر. ما هو؟ وما هذه الرحلة الجديدة نحو المجهول؟ وإذا كانت «حيراً» كما يقولون فلماذا هذا الإخفاء والتكتيم؟ ولماذا تكون رحلة سرية بهذا الشكل؟!

طوال حياتي أتشكك في أي شيء «سري». لا أطبق الهمس، والتحففي، وعدم المواجهة.

لماذا لا يقولون الحقيقة؟!

أسدت رأسي إلى مسند السيارة رجلان يجلسان أمامي، أحدهما يسوق، والآخر ينظر إلى الطريق رجلان غريبان عني تماماً. لم أرها إلا الآن، والسيارة «الفولكس الصغيرة» كالعجلة الحديدية تطلق بهذه السرعة الجتوتية إلى أين؟

أهي محاروة خفية سريعة لإعدامي وحفائي جثتي في بطن الأرض؟

أهو إفراج؟! ولكن هل يحصى الإفراج بهذا الشكل؟ ولماذا؟!

أمثلة عديدة تدور في رأسي أرفع إلى قمة التداول والفرح ثم  
أهبط إلى حضيض اليأس والغضب.

من حقي أن أعرف إلى أين يحملوني سواء إلى الجنة أو  
الجحيم لا يهم إلى أين أذهب، ولكن الأهم أن أعرف. أنا  
إنسانة ولست «طرداً» يحمل من مكان إلى مكان المعرفة حق  
لي، وليأخذوني بعد ذلك إلى حيث يشارون.

الطريق المجهول يبدو محيقاً ومعزاً وإن كان في نهايته  
العردوس

السيارة تطير فوق الأرض بسرعة عجيبة، وأنا داخلها أمتزج  
كريح في مهب الرياح. عيناى ترتبان الشوارع والناس اتسعت  
عياى بدھشة. رأيت امرأة تسير في الشارع وتحرك ذراعيها بحرية  
غرية. يبدو أنها في طريقها إلى بيتها!؟

السير في الشارع أو العودة إلى البيت أعجوبة ... أمر غارق  
العادة. ضرب من المستحيل.

مد متى لم أسر في الشارع ولم أعد إلى بيتي؟! مد تعامين  
عماماً؟! ربما أو في زمن آخر غير الزمن. . . في ديا غير  
الديا . ربما مد كنت طعة أو تلميذة في الابتدائي.

لمحت امرأة تقود سيارة، وتنحرف في طريق جاسي ورجلاً  
يدخل إلى محل بقالة. كيف يتحرك الناس بهذه البساطة في  
الشوارع!؟

انحرية تاح على رؤوس الناس لا يراها إلا المسجون.

توقفت السيارة أمام مصر كبير، هبط الرجلان بسرعة،  
وهبطت أيضاً.

قال أحدهما: ستقابلين السيد رئيس الجمهورية الآن

خفقة قلب سريعة وانتسامة حمدة ما رلت أحمل السجور  
داخلي.

والسجور هو أن تشك فيما تسمع، حتى ترى بعينيك وتلمس  
بيديك، وتأكد بنفسك.

في البهو الأبيض رأيت ثلاثين رجلاً من المتحفظ عليهم.  
بعضهم مدھش لا يصدق بعد بعضهم فرح بملء الفرح. بعضهم  
متألم يسترجع آلامه.

أصواتهم تتعاقب. قلوبهم تحمى الضوء قوي مبهر يؤلم العيون  
المرهقة. عيون شابة وعيون عجوز. وعيون ليس لها عمر، كأنما  
أكبر من الزمن لا تشيح ولا تموت عيون الإنسان المصري  
البسيط يدخل محذاته الثمرب وملاسه المعمرة تتراب السجن  
ليقول كلمته أمام التاريخ.

مد يده نحوي وصاحني يده مفتوحة محلصة صريحة  
ومباشرة. تلاشي السجور ومعه لشك من داخلي. تحررت  
وأمسكت حبرتي بيدي وفي أدبي يرد صوتي كلماته مخلصه  
صريحة مختصرة ومباشرة كلمات كانت تشتاق إليها آدانت.  
العدالة. المساواة الحرية. الانتاج العمل احترام الرأي  
المحافظ. الديمقراطية. مصر عربية أفريقية. سيف القانون لا

يفرق بين كبير وصغير، الحرب على الفساد والقضاء على  
استغلال الأقلية المتميزة للأغلبية المطحونة.

أعطيت رسالتي. قرأها كلها. ثم رفعت يدي وقلت كلمتي.  
قلت إن الحاكم مهما صلح لا يستطيع أن يحكم وحده كفرد، وإن  
هناك دائماً طبقة تعزله عن الناس، وتحول الشعب إلى أغلبية  
متفرجة سلبية. وإن الديمقراطية لا يمكن أن تتحقق دون أن  
تكون هناك ضمانات قانونية لحماية كل صاحب رأي من بطش  
السلطة، وإلا فسوف يقضي الخوف على عقول المصريين  
والمصريات.

انتهى اللقاء، ثم خرجنا. تلقت ورائي. ظننت أنهم  
سيحملونني مرة أخرى إلى السجن، إلا أن أحداً لم يقترح مني.  
سرت بحذر نحو باب الخروج. أوقفني أحد الصحافيين وأنا  
خارجة عند باب القصر، وصاح مندهشاً وهو ينظر إلى حفاثي:  
حذاء كاوتش في قصر العروبة؟! قلت وأنا أخطو إلى الشارع  
أحمل حزينتي في عيني كضوء الشمس: ولماذا تنظر إلى حفاثي يا  
صديقي، أنظر إلى عيني!



وقفت في الطريق مذهولة، أحمل حقيبتني. الناس من حولي  
تهول إلى أعمالها، والسيارات في سباق جنوني على أرض  
الشارع.

لا أحد يتوقف وينظر إلى وجهي. لم أنظر إلى وجهي في

المرآة منذ دهر، هل وجهي كما كان؟! ألا يلحظ أحد تراب  
السجن فوق ملاحي؟!!

حرّكت ذراعي وساقِي وسرت مثل الناس. هل أصبحت واحدة  
من الناس. هل أنتهي إلى هذا العالم ويمكنني أن أسنقل ناكسياً  
وأعود إلى بيتي؟ هكنا ببساطة؟!!

توقفت لحظة. وضعت الحقيبة على الأرض. لمحت ناكسياً  
مقبلاً فأشرت له بيدي. توقف الناكسي.

ركبت وقلت للسائق: الجيزة....

وانطلقت السيارة....

كل شيء بدا كالحلم. شارع الجيزة كأنني لم أراه منذ قرن،  
وشارع النيل، والكوي، ثم انحرفت السيارة وتوقفت ورأيت  
باب بيتي.

ما زلت أسير كالتائمة. ضغطت بإصبعي على جرس الباب.  
انفتح الباب.... ورأيت وجه زوجي.

لحظة كالخيال. كذلك المشاهد التي تحدث في القصص  
والروايات. من الزنزانة إلى قصر رئيس الجمهورية إلى ذراعي  
زوجي في بيتنا؟!!

كل ذلك في صباح يوم واحد هو ٢٥ نوفمبر ١٩٨١. التاريخ  
الثالث المحفور في ذاكرتي، ومعه ٦ أكتوبر، ٦ سبتمبر، ٢٨  
سبتمبر.

أربعة تواريخ كلها في خريف ١٩٨١ وكلها في مصر.

عاد ابني وابتي في الساعة الثالثة بعد الظهر. اختبأت لأراهما دون أن يرياني. رأيت عيونهما وهما يتطلعان إلى مقعدي الخالي إلى المائدة، وسريدي الخالي في غرفة النوم. حزن صديق مكتوم. حول عيون الأطفال إلى عيون عجوز.

لو رأيت عيونهما هذه لانهزمت داخل السجن، لكن خلايا عقلي دفنت ملامحهما في مكان ما لا أدريه، وخيالي عجز عن أن يرسم الحزن في عيونهما. وناديت عليهما... وكانت لحظة أخرى شارج الكون والحقيقة. التفت فراهي حول الجسمين اللذين لم يعودا جسمي طقلين... والعيون التي لم تعد عيون أطفال...

وفي العناق رأيت اللمعة تعود إلى سواد العين، والطنزلة كلها تعود ومعها الحنين وشوق ثمانين عاماً من البعد والألم العميق، وشيء في أعماقي يقول: انتهت هذه المرحلة من حياتي والآن بدأت مرحلة أخرى.

## الجزء الأخير

فتحت عيني في الصباح فلم أر السقف الأسود. أغمضت عيني ثم فتحتهما. لم أر الجدران المشققة الكالحة ولا القضبان الحديدية فوق الباب.

أغمضت عيني ثم فتحتهما. رأيت المكتبة البيضاء وصفوف الكتب. صورتني في الاطار إلى جوارها صورة زوجي. وجه ابني يطل من الباب. صوت ابتي تغني في الحمام.

أغمضت عيني وعاد إلي صوتي وأنا أغني تحت الدش وبين قدمي الثقب المملوء حتى الحافة بالصراخير السوداء الطافية. رفعت البطانية الدافئة الناعمة من فوقتي وانتفضت واقفة. زميلاتي ما زلن هناك. لم يخرج في قرار الإفراج الأول إلا واحد وثلاثون سجيناً منهم أنا وصافيتاز.

تلفت حولي. الوجوه الثلاثة أمامي. العيون الست من حولي. تحوطني. أملاً عيني بملامحهم. أحفر العلامح في ذاكرتي. من يدري؟ ربما نفترق. قد أعود إلى السجن. اليوم أو غداً أو بعد عام. لا شيء مضمون. لكن السجن لم يعد ذلك الشيخ المجهول

المخيف. وزميلاتي ما زلن هناك؟ ترى ماذا يفعلن الآن؟ ولماذا لم يفرج عنهن؟

واغمضت عيني. ورأيتهن أمامي. جالسات على الأرض المتربة. وجوه شاحبة مرهقة. عيون قلقة مؤرقة. أقدام ممطرة اسودت كمويها. وانتفضت جفوني مفتوحة.

قلت: لنذهب الآن!

قال: إلى أين؟

قلت: إلى السجن.

حينئذ مفاجيء غريب. ولم يندهش زوجي. وقال بهندوء: زمالة السجن ليست كأي زمالة.

سارت بنا السيارة في طريق القناطر الخيرية. عن يميني الحقول الخضراء الممتدة. وعن يساري النيل.

تذكرت الرحلة المجهولة في هذا الطريق نفسه وإلى جوارتي الضابط، ومن خلفي رؤوس الرجال والبنادق. أدت رأسي ونظرت إلى الخلف. علب الطعام على المقعد الخلفي. تشبه العلب التي كان يرسلها إلي كل ثلاثة.

حركت رأسي ناحيته. أصابعه الطويلة التحيلة حول عجلة القيادة. عيناه شاخصتان إلى الأمام. مزيج من السعادة والحزن. والثفت ناحيتي. حوطت يده بيدي وقلت: كل ثلاثة كنت تقطع هذه المسافة الطويلة.

فقال: كل ثلاثة كنت أظن أنني سأراك.

رفعت رأسي نحو الطريق. أصبحت القناطر خلفنا. وانحرفت السيارة داخل الطريق الجانبي. ثم السرداب الطويل. اختفت رائحة الزرع والنيل. ملأت أنفي رائحة التراب.

في نهاية السرداب رأيت العمود الطويل يسد الطريق. توقفت السيارة عند العمود. برز من جانب الطريق رجل نحيل عيباء تلمعان وتتحركان بسرعة كعيني قاطع طريق. أسرع يجري يظهر منحني وشدة العمود. ارتفع العمود في الهواء عن مساحة تسمح بمرور السيارة ثم سقط مرة أخرى وأغلق الطريق خلفنا.

انفتح الباب الضخم. حفل استقبال. المسؤولون والضابط والشاويشة كلهم عيون تلمع. وأصوات كالرنين ترحب: أهلاً أهلاً. السجن نور. رأينا صورتك في الصحف بالأمس مع رئيس الجمهورية.

حملت الشاويشة علب الطعام إلى الزميلات في العنبر وعادت تخبيء في صدرها ورقة مطوية. خبأتها في حضية يدي.

في طريق العودة رأيت سيارة تسرع خلفنا ثم تقطع الطريق علينا وتقف أمامنا. أوقف زوجي السيارة وهبطنا. ورأيت المسؤول البوليسي الكبير ذا العصا. تصوّرت أنه سيأخذني مرة أخرى إلى السجن. لكنه اقترب مني باسماً وهمس في أذني: إذا قابلت السيد نائب الرئيس النبوي اسماعيل فاذكرني اسمي. إن لي ترقية متأخرة.

ثم ركب سيارته وانصرف مسرعاً.



لا بد أن الدم هرب من وجهي. لأن زوجي نظر إليّ وتساءل:  
ماذا حدث؟

وقلت بدهشة: تصوّر؟

وقال بهدوء: نعم أنصوّر.

فتحت حقبيتي، وقرأت الورقة المطوية: «حاولي كل جهدك  
مع الأطباء حتى نتقل إلى مستشفى القصر العيني أو مستشفى  
الدمرداش».

وتوجهنا بالسيارة إلى كلية طب عين شمس. أحجم زملاؤنا  
الأطباء عن المساعدة إلا زميل واحد. رئيس قسم الأمراض  
النفسية. أخلّى للسجينات غرفة في القسم. وفي اليوم التالي  
انتقلت الزميلات من السجن إلى تلك الغرفة. وبعد أيام صدر  
قرار بالإفراج عنهن جميعاً.

وفرتنا الأيام ومشاغل الحياة. لكن ما أن ألتقي بواحدة من  
الزميلات في أي مكان حتى نتعانق ونذكّر أيام السجن. كأنما  
للسجن وحشة. أو كأنما الزمالة في السجن لا تنسى، ولا  
تموت. ومن يدري ربما تعود.

## فهرست

الإهداء .....	٥
مقدمة الطبعة الثالثة .....	٧
مقدمة .....	١١
الجزء الأول	
القبض .....	١٩
الجزء الثاني	
السجن .....	٥٥
الجزء الثالث	
إختراق الحصار .....	٢٠٧
الجزء الرابع	
الخروج للتحقيق .....	٢٢١
الجزء الخامس	
موت السادات .....	٢٦١
الجزء الأخير .....	٢٩٩